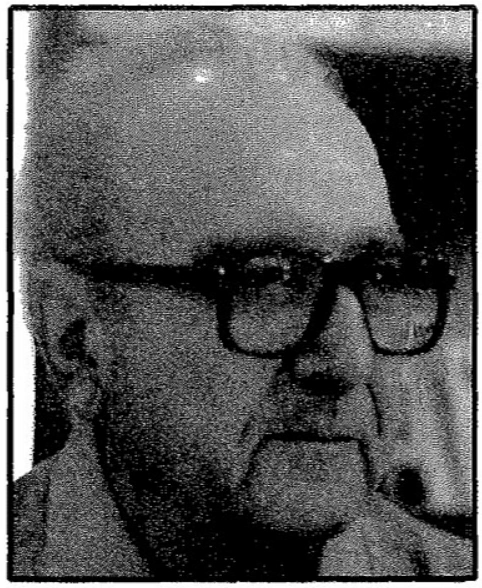
رُوجيه غارُودي



نقله إلى العربية
مروان حموي

الولايات المتّحدة طليعة الانحطاط

دار الكاتب



الولايات المتّحدة

طليعة الانحطاط

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

دار الكاتب

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

دمشق - سوريا - جانب وكالة الأنباء (سانا)

ص.ب ٣١٦٦١ ☎ ٢١١٣٠٠٢ - ٢١٢٣٧٥٣

موافقة وزارة الاعلام تحت رقم /٤١٩٧١/ تاريخ ١٩٩٨/٣/٧م.

رُوجيه غارُودي

الولايات المتّحدة طليعة الانحطاط

كيفَ نُحضّرُ لِلقرنِ الحادي والعِشرين

نقلَه إلى العربيّة
مروان حموي

دار الكاتب

الولايات المتحدة الأمريكية

طليعة

الانحطاط

ROGER GARAUDY

Le 28 mai 1997

Aux bons soins de M. Manaf Keilani

Je soussigné Roger Garaudy auteur de l'ouvrage "Les Etats-Unis, avant-garde de la décadence", autorise les éditions "Dar Al Kateb" à publier mon livre en langue arabe.

Je laisse les éditeurs libres d'établir eux-mêmes les termes du contrat ; les priant seulement de me les communiquer puisque je les accepte d'avance.

كتب سيمون وايل :

نعرف جيداً أن أمركة أوروبا بعد الحرب، تشكل خطراً بالغاً. ونعرف جيـــداً، ما سنفقده لو تحققت هذه الأمركة. فأمركة أوروبا، ستقود بلا شك، إلى أمركـــة الكرة الأرضية كلها.. وستفقد الإنسانية ماضيها.

سيمون وايل

١٩٠٩-١٩٤٣

سيمون وايل فيلسوف بدأ حياتـــه عاملاً في مصنع، ثم انضم للجنرال ديغول في لندن عام ١٩٤٢. معروف بشكل خاص بكتابـــه:

" La Pesanteur et La grãce "

المقدمـــــة

البطالة والطرد من العمل في بلادنا، والجوع في ثلاثة أرباع العـــالم، والهجـــرة كممرّ من عالم الجوع إلى عالم البطالة ..

لقد بدأنا باغتيال أطفالنا الصغار، ونـــهيئ للقرن الحادي والعشرين انتحـــاراً كونياً، فيما إذا استسلمنا للانحرافات الحالية في السياسة الدولية .

ونتساءل: أهناك سياق واحد للأحداث نستطيع من خلاله فهم عصرنا؟

أعني، أهناك رابطة داخلية وعميقة تجمع بين كل المشكلات الدولية التي تســتدعي التدخل العسكري، وتبرر دور صندوق النقد الدولي، والبنك الـــدولي، والـــدور الأوروبي كما رسمته معاهدة مايستريخ، ومنظمة التجارة الدولية" الجات القديمة "، وعودة النظام الرأسمالي إلى بلدان أوروبا الشرقية، والأصوليات الإسلامية والمسيحية واليهودية، ومشكلاتنا الراهنة : البطالـــة والتســريح ، والهجـــرة ، والعنـــف، والمخدرات؟

كيف نستطيع الإمساك بوحدة هذه المشكلات وفهم معناها ؟

وقبل كل شيء: كيف نستطيع أن نضع برنامجاً متماسكاً للخروج منها ؟

هذا هو موضوع كتابنا .

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الأول

الفصل الأول

ما هي الرؤية التركيبية التي تبرز في نهاية القرن العشرين، والتي يمكن أن نكونها من مجموعة أحداث تبدو ظاهرياً منفصلة بعضها عن البعض الآخر؟

ما هي المشكلات الكبرى التي تبرز لتشكل مستقبلنا القريب ؟

هل نحن متجهون إلى حرب عالمية ثالثة، إنما من نموذج جديد ؟ ذلك أن ما سمي حتى الآن بالحربين العالميتين لم يكن في حقيقة الأمر إلاّ حربين أوروبيتين، لا عالميتين، و لم تسمّ الحرب الأولى عالمية إلاّ لأن الدولتين المتحالفتين،إنكلترا وفرنسا ضمتا إلى جيوشهما " **فرق الملونين**" التي تشكلت من مواطني مستعمراتهما: من الجنود السنغاليين، حتى جنود الشمال الأفريقي، بالنسبة لفرنسا، وجنود ممتلكات التاج البريطاني الممتدة من كندا حتى استراليا، بالنسبة لبريطانيا.

وجرى الأمر نفسه في الحرب العالمية الثانية، التي انفجرت أيضاً بسبب صراع أوروبي– أوروبي، مع فارق أن الحلفاء الغربيين، أشركوا في هذه الحرب الشعوب التي كانت خاضعة لهم. فإنزال **البروفانس** مثلاً، ضم ٧٠ % من عناصره، جنوداً مغاربة، (ونسبة قتلى المغاربة إلى نسبة القتلى الآخرين أعلى بكثير). وكان الهدف: تحرير فرنسا. وجرت الحرب الأمريكية – اليابانية في نفس السياق، إذ لم تكن حرباً بين حضارتين، إنما بين خصمين يطوران نفس النظام الصناعي، وقد اختصما بهدف السيطرة على المحيط الهادي، وعلى غزو الأسواق. و لم تتداخل الحربان عسكرياً أبداً، فقد تخيّل **هتلر**– كي يبعد الولايات المتحدة إلى أقصى زمن ممكن، عن النزاع الأوروبي– أن يجعل من اليابانيين **"آريي شرف "** كي يحقق بعد ذلك محور **برلين– روما– طوكيو** .

يعتقد **هانتنجتون** في إطار ما يسميه "بالحرب الحضارية" أن الحرب الثالثة إذا ما انفجرت، ستكون من نوع جديد،

إذ لن تكون نتيجة تنافس الأوروبيين، فيما بينهم، بل مجابهة بين حضارتين: حضارة المركز (الغرب) وحضارة المحيط (بلدان الاستعمار القديم) .

كما يعطي لهذين الطرفين مفهوماً دينياً : وهو الصدام بين حضارة "يهودية مسيحية" وبين حضارة "إسلامية كونفوشية". ولئن طرحت المشكلة بشكل سيئ، إلاّ أنها مشكلة حقيقية: فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي، واستبدال **"الشيطان السوفيتي"، "بالشيطان الإسلامي"** "وحلفائه المحتملين ممن نطلق عليهم اسم العالم **الثالث، ثم تدمير العراق" كي يكون مثالاً للآخرين"، نتساءل هل ستحقق الولايات المتحدة حلمها في بسط نظامها الخادع "للسوق الحرة " على العالم كله؟ وبمعنى ما — وهو ما شرحته في كتابي " نحو حرب دينية "—سيكون تصادماً حضارياً: إن وحدانية السوق ستضطر أن تحطم كل أولئك الذين يريدون الاحتفاظ بنظام آخر من القيم، غير القيم التجارية، والذين يدافعون عن هويتهم، وبالإضافة** إلى ذلك عن معنى الحياة.

إن النقطة الحساسة في حدود الإمبراطورية الأمريكية "وهي ما كانت تسمى في زمن الإمبراطورية الرومانية قبل أن يمحوها البرابرة "بعتبات الإمبراطورية "، هي "الخليج العربي" لأنه محاط بأحواض البترول الأغزر في العالم، و سيبقى لعشرات السنين "عصب التنمية الغربية". فوق هذه العتبات، تحقق لوحدانية السوق أحدث نصر، إذ جرى تدمير العراق، عبر حرب خاضتها الولايات المتحدة بتأثير جماعتي ضغط في الولايات المتحدة دفعتاها لفتح نار المعركة، وقد حددهما ألين بيريغيت في جريدة الفيفارو/عدد ٥ تشرين الأول ١٩٩٠/ بأنهما:

١– اللوبي اليهودي . ٢– لوبي رجال الأعمال .

وفوق هذه التقطة الحساسة من حدود الإمبراطورية الجديدة لا تتوقف إسرائيل عن لعب

الدور الذي رسمه لها مؤسسها الروحي **تيدور هرتزل** ، وهو أن تكون "حصناً متقدماً". للحضارة الغربية ضد "**بربرية الشرق**".

أما البرنامج الأكثر دقة لدور إسرائيل فقد ظهر جلياً في شباط ١٩٨٢ "أي قبل غزو لبنان بقليل"، في **مجلة كيفونيم** التي تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية : وهو تفتيت كل الدول المجاورة من النيل حتى الفرات ، وهي الطريقة الأفضل التي تستجيب لأطماع الهيمنة العالمية للولايات المتحدة، في الموضع الأكثر حساسية على حدود امبراطوريتها .

كما فرضت على الشعب العراقي إجراءات حرمان مميت، من خلال الحظر الذي يستمر في القضاء على الأطفال في محاولة لسرقة حتى مستقبل هذا البلد . واليوم يرصد هدف جديد، ربما كان أكثر أهمية من الهدف السابق: إيران، التي لم يستطع العراق أن يهزمها، رغم الدعم المالي السخي، والسلاح الوفير، اللذين قدمتهما الولايات المتحدة وأتباعها .

لقد جرى تحديد الهدف الجديد في مؤتمر شرم الشيخ عام ١٩٩٦، وكانت الحكومة الإسرائيلية هي التي حددت الهدف:"محاربة الإرهاب"و"التدخل الإنساني". هذان هما الإدعاءان الجديدان المتكاملان للإستعمار الجديد. وحدد **شمعون بيريز** ، ودون أن يمتلك أدنى دليل ، ايران بأنها "مركز الإرهاب "الدولي.

ومن المتفق عليه أن كلمة الإرهاب، تشمل كل أشكال مقاومة الشعوب دفاعاً عن استقلالها، مع استبعاد كل أشكال الإرهاب التي تمارسها الولايات المتحدة التي تهدد استقلال هذه الشعوب. وعلى سبيل المثال، يزعمون أن مقتل جندي إسرائيلي في الجزء المحتل من جنوب لبنان، بمعنى أن يُقْتل محتل من قبل المقاوم، كما حدث في الماضي في فرنسا أيام الاحتلال النازي، هو عمل إرهابي. أما مذبحة المدنيين في **قانا**، والقصف الإسرائيلي الذي وصل حدود مدينة بيروت فهو "دفاع

مشروع "، تماماً كما هو "مشروع" تصفية النازيين لأربعين من رجال المقاومة في **شاتوبريان** انتقاماً لمقتل ضابط ألماني في باريس .

وعندما سقطت طائرة أمريكية فوق أولمبياد أتلانتا، وقبل إجراء أي تحقيق، وجهت أصابع الإتهام إلى إيران. ورغم ضغط وكالة المخابرات المركزية، على وسائل الإعلام، لم يثبت من خلال المعاينة الميدانية أي دليل على صدق هذا الادعاء.

من السهولة بمكان أن نورد العديد من الأمثلة لاختلاق المزاعم المتصلة "بالمعركة ضد الإرهاب" أو "التدخل الإنساني" و "الدفاع عن حقوق الإنسان"، لتبرير الاعتداءات المباشرة على الدول المتهمة ، ووضع العراقيل في وجه التعامل التجاري معها. لقد تذرعوا بـ "**تيان آن مين**" لكبح نمو العلاقات الاقتصادية مع الصين، ولكن مقتل ألفي لبناني مدني في مذبحة قادها **آريل شارون** عام ١٩٨٢، لم تكن كافية للحد من الدعم الأمريكي لإسرائيل بالسلاح والمال، باعتبارها رأس حربة لوضع اليد على كل بترول الشرق الأوسط.

وإنه لأمر ذو مغزى أن الحاخامات الأكثر تطرفاً والأكثر شوفينية إنما تلقاهم في الولايات المتحدة، حيث تعيش الجماعة اليهودية الأكثر أهمية في العالم، بل إنها أكثر أهمية حتى من المجتمع الإسرائيلي نفسه. أما المحاربون القوميون الأكثر تعصباً فهم **الحاخامات** الذين تربوا في المدارس **التلمودية** التي أسسها الحزب القومي الديني برئاسة الحاخام الأمريكي "**زفي يهودا كوك**" (١٨٩١- ١٩٨٢) والتي كانت مبادئها الرئيسية كما يلي :

"يتابع الله عمله للخلاص عبر المعجزة التالية : وضع كل هذه الأراضي تحت السيادة اليهودية. كل الأرض التوراتية اليهودية مقدسة، إنه تكليف إلهي: حماية الأرض وإلحاقها، وبناء أكبر عدد ممكن من المستوطنات اليهودية فيها .. وكل

تسوية إقليمية إنما تؤخر زمن الخلاص".

أما المجموعة الثانية من الحاخامات الأمريكان والمعروفة باسم **لوبافيتش** والتي تستوحي أفكارها من **حاخام بروكلين العجوز، اليعازر مزراحي**، فتعلّم أتباعها بكل صراحة ، أنه يحرّم على الشعب اليهودي أن يتخلى عن أصغر كسرة من أرض إسرائيل الكبرى إلى العرب، وكذلك يحرّم التفاوض معهم حول هذا الأمر .

تمثل إيران العقبة الرئيسية في هذا المشروع، وخاصة أنها تقيم علاقات طبيعية مع باكستان والهند والصين وروسيا، وحديثاً مع تركيا، التي تسير في طريق العودة إلى الإسلام. وتتابع إيران مسيرتها على الرغم من التعليمات الأمريكية بفرض حصار عليها .

وتشكل إيران مركزاً محتملاً لإعادة تجميع أجزاء كبيرة من الجزيرة الآسيوية الأوروبية في مواجهة أطماع حلف الأطلسي. ويمكن في ضوء هذه الحقيقة، تفسير الجهود التي تبذل في إطار الإستراتيجية الأمريكية تجاه العالم، لتأمين كل الإمكانيات لتطوير السلاح النووي الإسرائيلي، رغم رفض إسرائيل لأي رقابة دولية على نشاطها النووي.

إن نقطة الضعف الإسرائيلية في هذه الإمبراطورية، هي فقدانها للروح، ونعني بذلك فقدانها لأي مشروع تعاوني من أجل مستقبل الإنسان، إلاّ تنمية إنتاجها واستهلاكها من خلال تفوقها بالسلاح.

هذا هو السبب الذي اضطر معه **هانتجتون** لأن يقنّع حقيقة أفكاره بتعارض مزعوم بين الحضارة اليهودية – المسيحية و "التواطؤ الإسلامي – **الكونفوشيوسي**" (وهو الوريث لأقدم الحضارات في العالم من دجلة إلى سورية إلى الصين) . وقد اعتبر **المؤرخ توينبي** أن النطاقين السوري والآسيوي المركزي هما مركز الحضارة، فقال : "في سورية، أخذت المسيحية شكلها الذي انتشرت من خلاله في العالم الهلنستي كله ، وفيما بين النهرين، تشكلت النسطورية، ومذهب الطبيعة الواحدة،

وفي الحجاز، جنوب سورية، ظهر الإسلام في مكة، وفي الحدود الشرقية لشمال الجزيرة العربية، ولد المذهب الشيعي".

إنه تجديد غريب للقطبية في العلاقات الدولية، باسم "**العولمة**" الاستعمارية للاقتصاد ، ضد الهويات الثقافية أو الدينية ، لكل الحضارات الأخرى .

وينشأ عن هذا الأمر، بغية مقاومة هذا التوحيد للشكل بلا روح، ضرورة قيام اتحاد أوروبي- آسيوي مع أمريكا التي سماها مستعمروها القدماء باللاتينية، بغية إفشال محاولات الولايات المتحدة للقضاء على بذور المقاومة سواء في الميادين العسكرية والاقتصادية، أو الدينية والثقافية، والتي يمكن أن تنمو في كل القارات. إن محاولتها تفتيت مراكز المقاومة التي لا تقهر، تظهر الآن جلية في الكرة الأرضية كلها. كما تشجع في نفس الوقت الصراعات الإقليمية، فتحرض كوريا الجنوبية ضد كوريا الشمالية، وتايوان ضد الصين، والهند ضد الباكستان، وكذلك البوسنة ضد الصرب، لتبرير تدخلها العسكري على ما كان يعرف بالحدود بين الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية. وفي أمريكا اللاتينية تغذى الخلافات بين كوبا والبلدان الأخرى في أمريكا الجنوبية، أو بدقة أكثر من واجهة المحيط الهادئ "**تشيلي**" إلى واجهة المحيط الأطلسي لشبه القارة الأمريكية الجنوبية .

وتعتبر "خطة السلام" المزعومة في فلسطين النموذج الأكثر تعبيراً عن المناورات الأمريكية، فهذه الخطة لا تقدم للفلسطينيين إلا غبار ما كان يتمتع به المواطنون السود في التنظيمات الإدارية، في ظل نظام التمييز العنصري في اتحاد جنوب أفريقيا (**البانتوستان**) ويمثل أقل من ٥٦% من الأرض الفلسطينية محاطاً بطرق تصل المستعمرات الإسرائيلية بحماية الجيش الإسرائيلي. وقد شارك حزب العمل في هذا التفتيت، الذي اخترعه **بيغن** تحت اسم الحكم الذاتي، والذي تابع خلفاؤه من الليكود، الذين تسلموا السلطة اليوم، تنفيذه بسعي حثيث. إن هدف الحزبين، إلحاق فلسطين عن طريق زرع نصف مليون يهودي مستوطن، والاستيلاء على الأرض والماء.

وقد بدا هذا التحدي مجزياً للمعتدين، لأنه لم ينجح في تقسيم الفلسطينيين فحسب، بل أيضاً في انقسام العالم العربي بكامله، حول الموقف الواجب اتخاذه حيال هذه المناورات التقسيمية الكبرى.

ويعبّر التناقض الرئيسي في العالم المعاصر، عن نفسه بمنتهى الجلاء في خلق الانقسامات إلى أقصى حد. والخبث الأكبر فيما يسمى الدفاع عن "الديمقراطية" وعن حقوق الإنسان، يمكن اكتشافه في حالة الجزائر الآن: فالتناقض كان واضحاً جداً، إذ اتخذ النظام "الديمقراطي الحر" اتجاهاً متناقضاً تماماً مع كل مبادئ هذا النظام، فقد قبل بوقف العملية الانتخابية "الحرة" وساند الانقلاب العسكري بهدف مقاومة أصولية جبهة الإنقاذ الإسلامية.

وهناك، وكما يجري في فلسطين، كانت المشكلة الدينية هي التي دفعت لتحتل المرتبة الأولى. ويتطلب الأمر النضال ضد الحملة العالمية التي تشن باسم ديانة لا يجرؤ أحد على تسميتها: وحدانية السوق، والتي تصطدم عندما يتطلب الأمر، مع ديانات محددة، مثل إسلام أورو- آسيا وأفريقيا، أو مثل الحركات اللاهوتية التحريرية في أمريكا.

لو أن الإسلام، بدل أن يتمترس خلف ماضيه، استعاد المفهوم القرآني حول وحدانية الأديان، منذ أن نفخ الله روحه في آدم، مع "شريعة " تشكل قاسماً مشتركاً لكل أشكال الإيمان والحكمة، على مستوى العالم كله، وبكلمة أخرى، لو جمع بين أصالة القرآن في فقه التحرير، مع أصالة رسالة يسوع، بعد قرون من لاهوتيات الهيمنة، لاطمأنت هذه الجبهة العالمية إلى انتصارها على عالم بلا روح تسوده وحدانية السوق. هذا هو مدى اتساع الدراما التي تُلْعَبُ على مستوى الكوكب الأرضي، في كل المستويات: الثقافة والإيمان، وكذلك السياسة والاقتصاد.

وقد ظهرت محاولات لحشد الناس: ففي عام ١٩٩١، عقد في الخرطوم مؤتمر شعبي إسلامي عربي، بناء على دعوة من السودان وإيران.

إشارة أخرى كاشفة: ففي مؤتمر سيتل، عام ١٩٩٥، حيث أملت الولايات المتحدة أوامرها بقبول أهدافها في "سوق عالمية"، انسحب القادة الآسيويون الرئيسيون بسبب المطالب الأمريكية، حتى أن رئيس وزراء ماليزيا، وهي إحدى الدول المؤسسة لمنظمة "**آسيان**"، قد رفض أن يتابع أعمال المؤتمر تعبيراً عن احتجاجه على سياسة التدخل الأمريكي. أما **كلينتون** الذي عبّر عن خيبة أمله من الموقف الأوروبي، فقد أبدى رغبة في أن يتوجه بأنظاره نحو المحيط الهادي.

في عام ١٩٨٢، بَنت الصين مركزاً للأبحاث النووية في **أصفهان** ، في محاولة لوضع عقبة في وجه حرب وقائية ضد إيران، على غرار تدمير إسرائيل، في ظل سلام تام، مفاعل تموز النووي في العراق، في الوقت الذي كانت تبني هي سراً، ترسانتها النووية، إلى أن كشفت اعترافات الفيزيائي الإسرائيلي، **مردخاي فعنونو**، في جريدة لندن **صاندي تايمز**، في ٥ تشرين الأول عام ١٩٨٦، عن خطورة هذه الترسانة القادرة على محو كل المدن وصولاً إلى السد العالي في مصر.

وتضم المجموعة النووية الإسرائيلية، إضافة إلى مفاعل **بلوتونيوم في ديدمونة**، مركز البرمجة النووية في **مورك** "حيث يوجد فيه مفاعل أمريكي تجريبي"، وحقل اختبار **صواريخ بالميكي**، ومعمل تجميع في **يوديفات** وقواعد تخزين الأسلحة النووية التكتيكية في **كفار وزاخريا** ، **وايلابون**.

وما زال **فعنونو**، منذ ذلك الحين، في السجون الإسرائيلية، بينما تستنكر الحكومة التجارب النووية في الصين، والهند، وباكستان، وكازاخستان التي ورثت جزءاً من السلاح النووي السوفيتي.

ويكشف التحالف الحالي، بين الليكود والأصوليين الدينيين، في أعقاب انتخابات ١٩٩٦، وبشكل أكثر وضوحاً من أي وقت مضى، الدور الذي تحضر إسرائيل نفسها له وهو تفجير حرب عالمية جديدة.

وربما تكون الصدمة أكثر وحشية لاسيما وأن روسيا، التي تختزن كمية ضخمة من الأسلحة النووية، قد تحولت إثر تفككها إلى دولة شبيهة تماماً بإسرائيل: أي جيش يمتلك دولة، لا دولة تمتلك جيشاً.

وفي إطار الفوضى وتفكك الدولة، اللتين حققهما **يلتسين** بمساعدة الولايات المتحدة، لا نستطيع أن نتصور إطلاقاً مخرجاً آخر للتخلص من الإهانات ومن أشكال التمزق التي تعاني منها البلاد منذ "استعادة الرأسمالية"، إلاّ الدكتاتورية العسكرية القومية.

ونتصور أنه أمر سيئ وجود جيش بلا دولة، في خدمة بلد توقف عن الوجود بسبب غياب المشروع الجماعي. ولن تستطيع هذه الديكتاتورية العسكرية التي لن تكون نتاج حركة تاريخية، وإنما انطلاقاً من منطق جبري لعلاقات القوى في العالم، أن تواجه منظوراً آخر غير التحالف مع ألمانيا وآسيا المركزية، بهدف مقاومة التبعية لواشنطن وإسرائيل، المتمثلة باحتواء السوق الروسية ضمن النظام العالمي الجديد في صيغته **الإنحطاطية والمافيوية**. ويتوجب على هذا البلد أن يختار بين هذين العالمين، ولن يعدم التشيع التاريخي للمسيحية الأرثوذكسية، والقومية الروسية، من الحصول على الوسائل اللازمة لتوجيه هذا الاختيار.

و لم تعد أوروبا حليفاً دائماً ومؤكداً للولايات المتحدة، ليس فقط لأن معاهدة **مايستريخ** جعلت من أوروبا ملحقاً تابعاً لحلف الأطلسي، مبدية هذه الأيام شرورها الاقتصادية والثقافية، وإنما لأن انقسام أوروبا على نفسها يظهر أكثر فأكثر.

ويشهد على ذلك **حادثان حاليان:**

❋بينما قبلت بريطانيا وفرنسا أن تجعلا من جيشيهما ملحقين بالجيش الأمريكي في العراق، فقد عارض ٨٠% من الشعب الألماني التدخل العسكري في هذا البلد.

❋وفي يوغسلافيا كان الألمان الواجهة للتحالف مع الكروات بينما لم يتخذ البريطانيون والفرنسيون مواقع معارضة للصرب إلا بضغط جرماني- أمريكي.

وفي اللحظة التي تحوّل فيها الأمريكيون من دائن إلى مدين رئيسي، حيث أصبحت استثماراتهم، الأقل في العالم الصناعي، على الرغم من قوتهم التي تأتي من تقنية ضغط الزر، ومن جيشهم الذي لا يحركه أي مشروع إنساني، ولا يحلم، شأنه شأن **البنتاغون**، إلاّ بحروب يكون فيها الهلاك "حتى الصفر". وتظهر هذه البلاد التي يريد قادتها أن يصبحوا سادة العالم، كجبار بقدمين من صلصال، بسبب هشاشته الاقتصادية المموّهة لبعض الزمن، بالمضاربات المالية التي حوّلت المصارف إلى كازينوهات، وحيث تضاعفت إفلاساتها، بعد إفلاسات صناديق التوفير .

لهذا السبب، تراهن الولايات المتحدة، ولو لزمن، على سياسة التسليح، لمواجهة صعود عمالقة آخرين. ليس فقط بالتسليح المبالغ فيه لمرتزقتهم الرئيسيين في الشرق الأوسط: إسرائيل، ولكن أيضاً لتأخير بزوغ الصين. ومثلما تبحث إنكلترا عن المراوغة في إعادة هونغ كونغ إلى الصين، تقوم الولايات المتحدة بتسليم طائرات إلى تايوان بقيمة ٤,٥ مليار دولار، في الوقت الذي باعتها فرنسا فيه، ستين **طائرة ميراج.**

كل ذلك يحدث لمنع الصين من التوحد مجدداً، الصين التي ستصبح بسوقها الداخلية لمليار و٢٠٠ مليون إنسان، ومصادرها الطبيعية الكبرى، واليد العاملة الرخيصة، قوة عالمية كبرى.

وقد دخلت الولايات المتحدة، في مرحلة "قصور حراري" من تاريخها، أي مرحلة من التفكك الداخلي بسبب النمو البائس لأمريكا الأخرى، النمو البائس لثلاثة وثلاثين مليون مواطن يعيشون تحت عتبة الفقر، ومن التفتت الاجتماعي بسبب التمييز العنصري الممتد عبر القرون، وبشكل خاص ضد السود، والذي تشهد عليه فتن لوس أنجلوس والتجمع الاحتجاجي لمليون أسود في واشنطن والذي قاده الزعيم الأسود **فرحان**، وكذلك الانحلال الاجتماعي بسبب المخدرات والفساد، والمضاربات الطفيلية

مرة أخرى نقول، لقد استطاع النظام "المركز" الذي يسعى عبر القوة التقنية الفريدة لأسلحته، أن يجعل من سيادة دول "المحيط" سيادة محدودة، وأن يحتكر لنفسه "حق التدخل" مموهاً ذلك، عند الإمكان، بأنه تدخل إنساني تحت غطاء مؤسسات يفتعلها مثل الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي.

الهوامش

يحفل الكتاب بحشد كبير من الأسماء والأعلام، لذلك آثرت اثباتها في نهاية كل فصل. أما الهوامش التي وردت في النص الأصلي للكتاب ، فقد أشرت إليها بكلمة غارودي.

١. نحكم هنا على الوحشية النازية في أوروبا، ولكن أحداث سطيف (الجزائر) عام ١٩٤٥، وهايفوتنج عام ١٩٤٦ ومدغشقر عام ١٩٤٧-١٩٤٨، والدار البيضاء عام ١٩٤٧، وساحل العاج عام ١٩٥٠، تدل أن المجازر وأعمال التنكيل التي ارتكبتها جيوش الجمهورية الفرنسية لم تتوقف (غارودي).

٢. لقد نشرت النص العبري الأصلي، وترجمته إلى الفرنسية في كتابي "فلسطين أرض الرسالات المقدسة" (المنشور عام ١٩٨٦-غارودي).

٣. " آسيان **ASIAN** " منظمة دول جنوب شرق آسيا. هدف المنظمة إنشاء سوق مشتركة بين ماليزيا، وأندونيسيا، وتايلاند، وسنغافورة، وبروناي، والفليبين. وكرد فعل أمريكي، شبيه بتأثر الماء على النار، قامت الولايات المتحدة، بإنشاء منظمة، تضمها واستراليا، ونيوزيلانده، باسم "الاتحاد الاقتصادي للآسيا في المحيط الهادئ (APEC -غارودي).

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الثاني

الفصل الثاني

وحدانية السوق

تتبع كل دواعي هذا الانحطاط من منطق "اقتصاد السوق" الذي أصبحت نسخته الأخيرة الديانة المسيطرة، ديانة لا تستطيع أن تعلن عن اسمها الحقيقي: "وحدانية السوق".

عاصر السوق، كمكان للتبادل، كل المجتمعات التي طبقت مبدأ تقسيم العمل، فمنذ ما قبل التاريخ، تشهد المشاغل، ومنتجات الصوان المنحوت، أنها لم تكن موجهة للاستخدام الشخصي، وإنما لمقايضة احتياجات أخرى في الحياة. ثم تكوّن سوق القرية التقليدي، حيث كان يحمل إليه البيض والدجاج والخضار لبيعها مبادلة مع بضائع أخرى تنتجها الأداة أو المهارة أو لدفع أجور خدمات البيطار أو الحلاق.

وهناك اختلاف أساسي بين أشكال السوق المتعاقبة، وهو وجود الوسيط، أي النقد الذي إستخدم في الأصل كأداة قياس، تقاس بها وفق قاسم مشترك، منتجات الأعمال المختلفة كمّاً ونوعاً. لكن السوق بقيت وسيلة للاتصال والتبادل، أما غاية الحياة فتبقى خارج هذه السوق، وتبنى على تراتبية اجتماعية، وقيم أخلاقية ظاهرة أو مضمرة، وديانات نشأت خارجه، و لم تبحث عن مبرراتها فيه.

و لم يتحول السوق إلى "ديانة" إلا عندما أصبح المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية والشخصية والقومية، والمصدر الوحيد للسلطة والمراتب الاجتماعية.

ولا يعنينا هنا أن نؤرخ لهذا التحول، الذي أصبحت فيه كل القيم الإنسانية قيماً تجارية، بما فيها الفكرْ والفنون والضمائر:

وسنكتفي بالإشارة إلى النتائج الاقتصادية والسياسية والروحية للصورة الأخيرة لهذا القرن، ولإعطاء نظرة إجمالية لبعض الميادين، كي نحرر أنفسنا من النظرة "التخفيفية" لخطورة هذه النتائج، ولهذا "القصور الحراري" الإنساني الذي يراه بعض منظري **البنتاغون** وأتباعهم في العالم، بحسب عنوان **كتاب فوكوياما: "نهاية التاريخ".**

وسوف يقود الأمر، إذا ما وصل هذا الانحدار منتهاه، إلى نهاية الإنسان مما يتصف به أساساً: سمو المقصد مقابل التخلي عن الحتمية الاقتصادية التي يعتبرونها قوانين طبيعية، تماما مثل الغرائز الفطرية الحيوانية التي تسود البحار وحدها، حيث يتغذى السمك الكبير بالتهام الأسماك الصغيرة، أو التي تسود الأرض من خلال الفوضى البيولوجية لمليارات النطف أو الحيوانات المنوية، لتكوين جنين بالصدفة.

وما تتصف به "وحدانية السوق " في الواقع، هذه الليبرالية الشمولية، هو إحتقار حرية الإنسان، وبتره بالتالي عن بعده الذي يتميز به وهو: أنه ليس نتاجاُ لقوانين الطبيعة، بل العكس، إنه قادر على تكوين مشاريع ليست امتداداً بسيطاُ للماضي، ولا نتيجة لغرائزه الحيوانية، أو مصلحته الفردية. لقد بالغ **آدم سميث** في هذا العزل للإنسان فكتب يقول:

"إن الخطوط الكبرى لعالم الاقتصاد الحقيقي، قد رسمت لا وفق خطة شاملة برزت من عقل منظم، ثم نفذت اختيارا من قبل مجتمع ذكي، إنما من خلال تراكم عقود لا حصر لها، رسمها حشد من الأفراد أذعنوا لقوة غريزية، دون وعي بالهدف الذي سيصلون إليه. "من كتاب أبحاث في الطبيعة وأسباب غنى الأمم"(١).

من **آدم سميث** حتى **فريدريك فون هايك** مروراً **بباستيا وفريدمان**، تكرر رفض مفهوم القصدية (٢).

وقد كتب **ميلتون فريدمان** في كتابه "حرية الاختيار" ١٩٨١ يقول :

"إن التنسيق بين نشاطات ملايين البشر، الذي لا يعرف أي منهم إلاّ مصلحته الشخصية، قد حسّن، أوضاعهم جميعاً. ويقوم نظام الأسعار بسد هذه الثغرة بغياب أي توجيه مركزي، ودون الحاجة لأن يتحدث الناس في هذا الأمر أو يحبوه. إن النظام الاقتصادي هو انبثاق، أي أنه ليس نتيجة مقصودة أو مطلوبة من قبل عدد كبير من الأشخاص تحركهم مصالحهم الشخصية وحدها. ويقوم نظام الأسعار بوظيفته بشكل جيد، وبكثير من الفاعلية، بحيث أننا لا نكون واعين، وفي القسم الأعظم من الوقت، أنه يقوم بدوره" .

ويضيف **فون هايك** في كتابه "الفردية والنظام الاقتصادي":

" ليس أمام المرء في مجتمع معقد من اختيار آخر إلاّ أن يكيف نفسه لما يبدو له أنها قوى عمياء للسيرورة الاجتماعية".

أصبح ممكناً اليوم أن نسترجع مسار النمط الغربي للتنمية، منذ أن وقع الخطأ القاتل في توجه ما سمي بعصر النهضة، أي نمو حضارة الكم والتفكير الذرائعي، والديكارتية، وديانة الثروة، بعد أن فصلت عن البعد الأول للعقل وهو التأمل في الغايات النهائية للحياة ومعناها.

وكتب **ميشيل البرت** في كتابه "الرأسمالية ضد الرأسمالية" ١٩٩١ .

إن الأمر المطلق " أو الفعل الضروري بذاته"، هو إفراغ المسألة الفلسفية من القصدية "الغائية". هذه هي في النهاية، الغاية الأخيرة من وحدانية السوق. إنها "ربطنا" بالحياة الأكثر زيفاً، التي صوروها منذ أول فيلم أمريكي يبدأ بصيد

الهنود، مع "سفاحي الغرب الأمريكي"، ومع غاب المال، مع مسلسل **"دالاس"**، مروراً بكل أشكال العنف والهمجية، مع باتمان **"الرجل الوطواط"**، مروراً **الترميناتور الماحق**، وانتهاء برموز ارتدادنا إلى عالم الديناصورات.

ولن نورد هنا إلاّ ما يشكل في يومنا هذا، المدماكين الأكثر صلابة لتوسع السوق: المخدرات والسلاح.

يبلغ حجم التعامل بالمخدرات في الولايات المتحدة اليوم، من الضخامة ما يعادل أرقام التعامل في صناعة السيارات، أو صناعة الفولاذ. ويزداد استهلاك المخدرات طرداً، مع فقدان الحياة لمعناها، نتيجة للبطالة والتسريح، أو أمور أخرى. إن الغاية النهائية للحياة هي الاستهلاك الذي يخلق ازدهار "السوبر ماركت". وإنه لأمر ذو دلالة أن الرقم القياسي لانتحار اليافعين ، سجلته الدول الأكثر غنى: الولايات المتحدة، والسويد. في الجنوب، يموت الناس بسبب نقص وسائل العيش، أما في الشمال فيموتون لانعدام غايات الحياة.

ويعتبر الاستهلاك المتزايد للمخدرات، أحد النتائج الطبيعية لوحدانية السوق: أولاً، بسبب إنتاجها. إن الربح الذي تدره **نبتة الكوكا** التي يستخرج منها **الكوكاين**، على الفلاح **البوليفي**، أكبر بعشر مرات من ربح نبتة الكاكاو أو البن، وهي وحدها القادرة على السماح له بالحياة. كما أن الدولة، ملزمة بتسديد ديونها لصندوق النقد الدولي. ونتيجة لاستهلاك المخدرات، تعاني الولايات المتحدة من ثلاثة ملايين مصاب بالتسمم المزمن، أما الذين يتعاطون المخدرات فيقدر عددهم بعشرين مليون أمريكي. أما في فرنسا، واستناداً إلى تقديرات **مؤسسة سوفر** فقد تناول فرنسي واحد من أصل خمسة تتراوح أعمارهم بين ١٢-٤١ عاماً، الحشيش، أو ما زال يتناوله.

أصبحت المخدرات بخور "الكنيسة الجديدة "، نعني وحدانية السوق. ويعطينا الاتحاد السوفيتي معنى كبيراً، فمنذ العودة إلى الرأسمالية، انفجر إنتاج واستهلاك المخدرات، وتضاعفت مساحة الأراضي المزروعة بالخشخاش في أوزبكستان خلال عامين فقط (١٩٩١-١٩٩٣). أما أفغانستان، فقد أصبحت منذ عام ١٩٩٣ البلد الأول المنتج للأفيون، فقد تضاعف إنتاجها ثلاث مرات.

أما في ميدان السلاح، فقد استمرت صناعته الأكثر ازدهاراً في الولايات المتحدة، وجعل منها القوة الأولى في العالم، منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى. وقد حملت الحرب العالمية الثانية، والتي أصبحت الولايات المتحدة بفضلها تملك نصف ثروة العالم، حلاً نهائياً للازمة الاقتصادية فيها، والتي بدأت عام ١٩٢٩. كما أدت الحرب الكورية إلى ازدهار اقتصادي جديد. أما مجزرة العراق، فقد أدت بما رافقها من انتشار من خلال النقل الحي عبر القنوات الفضائية، إلى صقل سمعة الأسلحة الأمريكية حيث ارتفع الخط البياني للإنتاج بعد انتهاء الحرب بشكل سهمي.

وهناك نتيجة طبيعية أخرى لوحدانية السوق: **الفساد.**

حدد آلن **كوتا** منطق هذا النظام: "إن تصاعد وتائر الفساد أمر لا يمكن تجنبه نتيجة انطلاق النشاطات المالية والسمسرة. وبقدر ما تتيح لنا المعلومات عن العمليات المالية من مختلف الأنواع، وعلى الأخص عمليات الدمج، والشراء، والمكتب العام للمشتريات، التي تسمح بتكوين ثروات ببضع دقائق، من المستحيل تكوينها من خلال عمل كثيف يستمر حياة كاملة، فإن إغراء البيع والشراء يصبح أمراً لا يمكن مقاومته".

ويضيف: "إن الاقتصاد التجاري سيلقى دعماً دائماً من هذه السوق الأساسية.. ويلعب الفساد دوراً شبيهاً بالخطة" .

وليس هناك كلام أفضل من هذه العبارات: في نظام يباع كل شيء فيه ويشترى، يتوقف الفساد، بل وحتى الدعارة، عن كونهما انحرافات فردية، ليصبحا قانونين بنيويين في صلب هذا النظام (٤) .

والعهر السياسي هو المثال الأكثر فضحاً. فالبعض أيد حرب الخليج من أجل حفنة من الدولارات. والبعض برَّر نزول عشرات الألوف من الجنود الأمريكان إلى أرض مقدّسة ومحرّمة على كل الكفار، ودفع نفقاتهم، أما **يلتسين** فقد باع بلاده رخيصة، بعد أن نام على أبواب صندوق النقد الدولي، الذي أرسل إليه **سوروس الشهير** ليكون حاميه الكفؤ.

هذه هي الظواهر التي تحدد انحطاط النظام، حيث تدر المضاربات أكثر بكثير مما يدره الاستثمار في ميدان الإنتاج أو الخدمات.

وتحمل كلمة المضاربة معنى محدداً كالذي سجله معجم **روبوت** في التعريف التالي: المضاربة عملية مالية تتضمن الاستفادة من تقلبات السوق "حركة القيم والبضائع" من أجل تحقيق منفعة.

وقد لاحظ **موريس آلياس** الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد أن التدفق المالي يرتفع في المتوسط إلى ألف ومئة مليار دولار في اليوم، أي أربعين مرّة أكبر من التدفق المتصل بالقواعد التجارية. إن نظاما كهذا لا يمكن الدفاع عنه " **آلياس:** الغرب على حافة الهاوية-مقابلة في **جريدة الليبراسيون في ٢ آب ١٩٩٣**".

تشير هذه الحقائق أن النظام القائم لوحدانية السوق يحقق للمرء ربحاً، فيما لو دخل ميدان المضاربة بالمواد الأولية، أي أوراق النقد، أو ما يدعوه **الاقتصاديون** "المنتجات المشتقة"، وهي كل مالا يؤخذ في الحسبان، عند تعداد المنتجات أو الخدمات، أكبر أربعين مرّة مما لو عمل في ميداني الإنتاج أو الخدمات.

الهوامش

- **آدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠)**: فيلسوف واقتصادي انكليزي يعتبر مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي، اشتهر بكتابه "دراسة في طبيعة وأسباب ثروة الأمم". يعتبر هذا الكتاب المحاولة الأولى في تاريخ الاقتصاد، الهادفة لفصل الاقتصاد السياسي عن العلوم المتصلة به، السياسية والأخلاقية والدينية، ويتضمن تحليلاً عن عملية الغنى الاقتصادي، وتوزع هذا الغنى بين الأمم والأفراد. ويرى أن المصادر الأساسية لكل الدخول هي الإيجار، والأجور والأرباح. كما درس تطور الصناعة والتجارة لدى الأمم الأوروبية، وطبيعة رأس المال. والموضوع الرئيسي الذي صيغ باعتباره لرأس المال، بغية إنتاج الثروة وتزريعها، يكون في غياب التدخل الحكومي، وفي حرية التجارة.

ويرى **سميث** أنه بالإمكان تشجيع الإنتاج والتبادل، وبالتالي تحسين مستوى المعيشة فقط، من خلال النشاط الفعال لرجال التجارة والصناعة على أن يعملوا في ظل أقل ما يمكن من سيطرة الحكومة وتدخلها.

وقد شهدت هذه النظرية تعديلات هامة من قبل اقتصاديين متعددين، على ضوء التطورات التي طرأت منذ زمن سميث، ولكن نظريته-مع ذلك-لعبت دوراً كبيراً في رسم الرأسمالية. (**موسوعة فانك رواجنل-المترجم**).

٢.**فون هايك**: اقتصادي انكليزي من أصل سويدي ولد عام ١٨٩٩، حائز على جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية. درس الأزمات الدورية في الاقتصاد.

– **ميلتون فريدمان** : اقتصادي أمريكي ولد عام ١٩١٢حائز على جائزة نوبل في الاقتصاد. اشتهر بدراسة مشكلات النقد.

– **فريدريك باستيا (١٨٠١–١٨٥٠)**: اقتصادي فرنسي دافع عن حرية العمل، وحرية التبادل.

٣. تشير دراسة أجرتها وزارة الصحة الأمريكية، أن استخدام المهدئات عند المراهقين في سن ١٢–١٧ عاماً، قد ازدادت ٧٨% ، ما بين عامي ١٩٩٢–١٩٩٥ . وقد ارتفع استهلاك حبوب الهلوسة، مثل حبوب ل.س.د، إلى ١٨٣% (٥٤% ما بين عامي ١٩٩٤–١٩٩٥)، وارتفع استهلاك الكوكايين إلى ١٦٦%، والماريجوانا إلى ١٠٥% ٣٧% ما بين عامي ١٩٩٤–١٩٩٥.

واعترف ١٠,٤% من الشباب الأمريكي، من نفس الشريحة العمرية، أنهم تناولوا المخدرات خلال الشهر السابق على الاستطلاع الذي أجرته وزارة الصحة.

وتدل دراسة أخرى، رسمية أيضـــاً أن حـــالات الإســـعاف الـــتي ســـجلتها المستشفيات، بسبب الإسراف في تعاطي المخدرات، قد ازدادت ٩٦% في حالات تعاطي الماريجوانا، و٥٨% في حالات تعاطي الهيروين، و١٩% في حالات تعـاطي الكوكايين- غارودي).

٤. من الملاحظ أن عودة الرأسمالية إلى بلدان شرق أوروبا، قد رافقها ارتفـــاع مجنون في انتشار البغاء. (غارودي)

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الثالث

الفصل الثالث

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

لكي نفهم لماذا نعتبر انتشار طراز الحياة الأمريكية "وأوهامها"، أحد الأسباب الحقيقية لتفكك الأخلاق وانحدار الفنون في يومنا هذا، نجد من الضروري أن نضع هذه المشكلة ضمن منظور التاريخ الأمريكي، لأن انحطاط الثقافة الذي يلعب دوراً منظماً في حياة المجتمع الأمريكي، إنما ينحدر من طبيعة تاريخ الولايات المتحدة.

لعبت الثقافة والايديولوجيات في أوروبا دوماً، دوراً هاماً في الحياة السياسية، كما جرى على سبيل المثال، في أوروبا المسيحية، وفي عصر التنوير، وفي عصر الثورة الفرنسية، وفي عقود القوميات، والماركسية وثورة أكتوبر.

أما في أمريكا، فخارجاً عن الهنود، السكان الأصليين الذين نظمت حضارتهم علاقاتهم الاجتماعية **"قبائل الأنكا مثلاً"**، والذين فقدوا ٨٠٪ من عددهم بسبب التصفية العرقية، ثم هُمِّشَ من بقي منهم، وزُجَّ في "محميات"، فإن كل السكان الذين يعيشون في الولايات المتحدة هم من المهاجرين.

ومهما كانت أصول هؤلاء المهاجرين، وحضاراتهم الأولى، فقد جاؤوا إلى أمريكا بحثاً عن العمل وكسب المال. وسواءً كانوا ايرلنديين أو طليان، أو عبيداً سوداً غُرِّبوا عن مواطنهم الأصلية قسراً، سواءً كانوا مكسيكيين أو من **بورتوريكو**، فقد جاء كل منهم يحمل معه دينه وثقافته. ولأنه لم يكن لدى هؤلاء المهاجرين والمهجرين ديانة أو ثقافة مشتركة، فقد كانت الرابطة الوحيدة التي تجمعهم، تشبه ما يربط بين أفراد فريق يعمل في مشروع مشترك.

أما الولايات المتحدة، فهي تنظيم إنتاجي، تضبط عمله، نفس العقلية التكنولوجية والتجارية، حيث يشترك فيها المنتج والمستهلك، في غاية واحدة هي النمو الكمي للرفاه. أما الهوية الشخصية، الثقافية، والروحية أو الدينية، فهي مسألة خاصة، وفردية بشكل جازم، لا شأن لها في آلية عمل هذا التنظيم، ولا تتدخل فيها.

ولا يستطيع الإيمان، الإيمان بمعنى الحياة، أن يعيش في مثل هذه البنى الاجتماعية، إلاّ لدى الجماعات التي حافظت على هويتها وثقافتها القديمة، أو لدى بعض الأفراد ممن تغمرهم روح البطولة. أما الغالبية العظمى من هذا المجتمع، فقد مات الله عندها، لأن الإنسان فيه، قد بتر عن بعده الرباني، وهو البحث عن معنى الحياة.

وهكذا أصبح المكان خالياً ليحل فيه تشرذم الطوائف، والخرافات، وتسرب المخدرات، وسموم الشاشة الصغيرة، كل ذلك تحت غطاء طهرية رسمية، ترضى بكل أنواع التمييز، وتبرر كل المجازر.

إن أول مراقب نافذ البصر لواقع الولايات المتحدة كان **توكفيل** الذي كشف عام ١٨٤٠ في كتابه "الديمقراطية في أمريكا"، حتمية آلية بناء الدولة قائلاً: "إني لا أعرف شعباً يحتل فيه حب المال حيزاً كبيراً من قلوب الناس أكثر من هذا الشعب، شعب يشكل تجمعاً من المغامرين والمضاربين". وما زلنا اليوم، قادرين أن نجد في تاريخهم أسس انحطاط ثقافتهم.

فمن جهة العلاقة بالطبيعة، لم تأخذ كلمة "الحدود" وعلى مدى قرن كامل، نفس المعنى الجغرافي الذي أخذته في أوروبا. كان الحيز المكاني بالنسبة لهم امتداداً مفتوحاً، وبقي كذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر، حيث بلغ التوسع مداه بالوصول إلى المحيط الهادئ. عندها فقط أعلن عن " ترسيم الحدود". كان هذا الفضاء الجغرافي مفتوحاً لكل أنواع السلب، وأشكال الإبادة: إبادة الغابات، وحيوان البيزون "**البقر الأمريكي**"، وكذلك التنقيب المحموم في مناجم الذهب والفضة.

أما العلاقة مع البشر الآخرين فكانت ذات طبيعة خاصة: في البداية كان اصطياد الهنود للاستيلاء على أراضيهم، دون أن يترك لهم خيار، غير خيار التصفية العرقية أو التصفية في "**المحميات**". وبعد ذلك، ساد بين البيض أنفسهم، قانون الغاب، لاقتسام ثروات الهنود المسروقة، وأراضيهم، أو الذهب المأمول استخراجه.

أما ما يتعلق بمعنى الحياة، فقد تقلص إلى البعد الكمي للثروة أو الأرض أو كنوزها. كانت حياة "**الوسترن**" و"**الغرب الأقصى**" -ماعدا بعض الاستثناءات- تضفي لبوس العظمة على هذه "الملحمة" العنصرية، وسيادة قانون الأقوى في الحرب التي شنّها الجميع ضد الجميع. أما **البيوريتانية المسيحية**، فلم تلعب أي دور في العلاقات الاجتماعية القائمة آنذاك إلا دور التبرير.

ويشكل العنف الأكثر دموية والذي يرعاه نفاق ديني، سمة دائمة في تاريخ الولايات المتحدة منذ تأسيسها. وقد حمل **البيوريتانيون** الإنكليز الذين نزلوا أمريكا، حملوا معهم الاعتقاد الأشد فتكاً في تاريخ الإنسانية، وهو الاعتقاد بفكرة "**الشعب المختار**"، الذي أعطى الشرعية لعمليات استئصال السكان الأصليين واغتصاب أراضيهم، وكأنها أمر إلهي، اقتداءاً بالنموذج **التوراتي**، **نموذج يشوع**، حيث أوكل "**رب الجنود**" لشعبه مهمة ذبح السكان الأصليين في بلاد كنعان والاستيلاء على أراضيهم.

وتماماً مثلما فعل الإسبان الذين وصفوا تصفية هنود جنوب القارة، أنها عملية "**تنصير**"، فقد استلهم **البيوريتانيون** الإنكليز **سفر يشوع** في مطاردتهم للهنود، وسرقة أراضيهم، وعمليات "الاستئصال المقدسة"، على غرار ما ورد في التوراة.

كتب أحدهم يقول: "من الجليّ أن الله دعى المستعمرين إلى الحرب، حيث يركن الهنود إلى عددهم وأسلحتهم، يتربصون الفرص لارتكاب الشر، مثلما فعلت

قبائل الأماليين، والفلسطينيين الذين تحالفوا مع آخرين ضد إسرائيل.."**من كتاب ترومان نيلسون: بيوريتانيو ماساشوستس: من مصر إلى أرض الميعاد — اليهودية**". وغالباً ما يصور"إعلان استقلال الولايات المتحدة "، في٤ تموز ١٧٧٦، أنه تصور مسبق لإعلان "حقوق الإنسان والمواطن" في فرنسا الذي صدر عام ١٧٨٩. إلاّ أن إعلان الإستقلال هذا، هو في حقيقة الأمر، مثال مذهل للنفاق الذي توحيه كلمة "الحرية" حسب المفهوم الأمريكي.

ينادي الإعلان في سطوره الأولى:"يولد كل الناس متساوين. وقد وهبهم الخالق حقوقاً غير قابلة للتنازل عنها: حق الحياة، وحق الحرية، وحق البحث عن السعادة".

إلا أن "الحرية" الأمريكية تجلت بشكل آخر: الاحتفاظ بالرقيق الأسود قرناً كاملاً بعد الإعلان. واحتاج الأمر حرباً أهلية لتوضع عام ١٨٦٥، نهاية لما كانوا يسمونه حتى ذلك الحين "المؤسسة الخاصة"، أي بمعنى آخر "الرق". ومنذ تحرير العبيد لم يترك لهم مكان في المجتمع، و لم يكن يسمح لهم بامتلاك واحداً فقط من الستين آربانت "قياس فرنسي" المسموح به للبيض.

بعد ذلك، ولد إرهاب الجمعيات السرية، مثل **منظمة كوكلوكس كلان**. أما قوانين السود فقد أبعدت العبيد القدامى عن الحياة السياسية، كما أبعدهم التمييز العنصري عن المجتمع المدني. وهكذا ورغم تضحيات **مارتن لوثر كينج**، تستمر التفرقة العنصرية إلى يومنا هذا. وتفوح رائحة النفاق أكثر عندما يتعلق الأمر بالهنود. إنها المرة الأولى التي يظهر فيها بقوة ما سيصبح لاحقاً المبدأ المحرك لكل الاعتداءات الأمريكية المستقبلية للولايات المتحدة في العالم: وهو أن العدوان والتصفية العرقية، صوّرا مسبقاً على أنهما ردود فعل دفاعية. وقد وصف إعلان الاستقلال الذي نادى بالحرية والمساواة، وصف الهنود "بالمتوحشين الذي لا يعرفون الرحمة، والمعروفين بحبهم لإشعال الحروب، وارتكاب المجازر".

من هذا المنطلق، تحدث الإعلان عن مجتمعات السكان الأصليين، كـــي يـــبرر مقدماً المجازر واغتصاب الأرض بحجة **"الدفاع المشروع"**. وهبط عدد الســـكان الهنود بحكم عمليات التصفية من عشرة ملايين إلى مئتي ألف فقط، وكأن الأمر، أن الهنود هم الذين غزوا أرض المستعمرين، لا أن المهاجرين من أوروبا، هم الذيـــن وفدوا ليغتصبوا أراضيهم ويدمروا حياتـــهم.

هكذا كانت السياسة الأمريكية الثابتـــة، منـــذ ذاك الحـــين، انطلاقـــاً مـــن "الخطيئة الأولى" بحق الهنود والأرقاء السود.

قال **سيمون بوليفار**، أحد أبطال محاولات الاستقلال في أمريكـــا اللاتينيـــة في أواسط القرن التاسع عشر: "يبدو أنه كتب على الولايات المتحدة أن تقوم بتعذيب وإذلال القارة باسم الحرية".

ويشهد **توكفيل** على بربرية المستعمرين تجاه الهنود الذين استخدموا أســلحة لا يمكن مقارنتها بأي مقياس بأسلحة الغزاة. ووصف بسخرية لاذعة، وإنسانية داميـة انتصار "الحرية"، تلك المسيرة المظفرة للحضارة عبر الصحراء قـــائلاً: "في قلـــب الصحراء، وفي أواسط الشتاء، حيث كان البرد قارساً جداً، قام ثلاثـــــة آلاف أو أربعة آلاف بمطاردة الأعراق البدوية من الوطنيين الذين كانوا يفـــرون أمامـــهم، حاملين مرضاهم وجرحاهم، وأطفالاً ولدوا حديثاً، وشيوخاً على حافة المـــوت". وتابع يقول: إن المشهد كان مثيراً و لم يمّح من ذاكرته أبداً.

هكذا بدأ تاريخ "الشمال" في "العالم الجديد"، كما صوره **نعوم شومســكي** في كتابه **"ايديولوجيا واقتصاد"**. وفي عام ١٧٥٤، وصف **بنيامين فرانكلين**، النـــاطق الرسمي البارز باسم التنوير، وصف **"أب الأمة"** بأنه الرجل الذي يطرد الســـكان الأصليين، كي يفسح المكان لأمته.

وأعطى **جورج واشنطن** الدرس نفسه لقبائل **الايروكواس**، عندما كلّف جيشه بتدمير مجتمعها وحضارتها، وهما مجتمع وحضارة متقدمان نسبياً بمقاييس عام ١٧٧٩. لم تشهد القرون المتعاقبة، إلاّ نادراً أن ينظر إلى مثل هذا النفاق والجبن الأخلاقي الواضح، بمنظار الإعجاب والاحترام.

وفي عام ١٧٨٩، وصف **توماس جفرسون**، ما سماه "اتحادنا"، بأنه المنطلق لإعمار كل أمريكا، الشمالية منها والجنوبية. وقال إنه لأمر حسن أن تبقى القارة بيد العرش الإسباني، إلى أن يصبح "مجتمعنا قوياً بما يكفي ليتمكن من التهام القارة قطعة قطعة"..

أما **جون كينزي آدامز**، مهندس الفكرة التي قادت إلى وضع **مبدأ مونرو** فقد وصف "**الدومينيون**" على أنه قارة أمريكا الشمالية. وقد أوضح فكرته بقوله: هذا هو قانون الطبيعة. وقد جرى تطبيق هذا "القانون" تطبيقاً واسعاً جداً. فقد استخدمه **آدامز** من جديد في القضية المتعلقة بالجهود الخائبة التي بذلتها الصين لمنع توريد الأفيون إلى بلادها، انطلاقاً من الهند. وقد أدى فشل هذه الجهود إلى اندلاع حرب الأفيون. واستخدمت بريطانيا العنف لتقضي على المقاومة التي أبدتها الصين، باسم المبادئ السامية للتجارة الحرة. كانت المقاومة الصينية قد منعت الإمبراطورية البريطانية من الوصول إلى الأسواق الصينية عن طريق منع توريد منتجها الرئيسي الذي قدمته للصين، وهو الأفيون.

ووصف **آدامز** محاولات الصين لمنع توريد الأفيون، بأنه عمل ضد القانون الطبيعي.

وفي فترة أقرب إلينا، حدّد **وودرو ويلسون** "واجبنا الخاص"، تجاه كل شعب مستعمر، وهو "أن نعيد لهذا الشعب النظام والسيادة." و"ندربّه على القانون والتعود عليه وإطاعته". هذا يعني من الناحية العلمية الخضوع لـ "حقنا" في سرقة هذا الشعب واستغلاله. وشرح **ويلسون** باختصار الدور الذي تلعبه القوة الأمريكية في هذا المشروع قائلاً:

"انطلاقاً من حقيقة أن التجارة، ليس لها حدود قومية، وانطلاقاً من أن الصناعي يريد امتلاك العالم من أجل الأسواق، فإن على علم بلاده أن يتبعه أينما ذهـــب، وعلى الأبواب المغلقة للأمم الأخرى أن تخلع ، وعلى وزراء الولايات المتحـدة أن يحموا امتيازات أصحاب رؤوس الأموال، حتى ولو أدى ذلك إلى انتهاك ســيادة الأمم الأخرى المتمردة. يجب خلق المستعمرات أو الحصـول عليـها، بحيـث لا نـهمل أو نتغاضى عن أصغر زاوية في العالم".

هذه العبارات الصادقة بسبب صراحتها، تحمل دلالة حقيقية للمثـل الأعلـى "للولسنية"، في الحرية وتقرير المصير. وهو مثلٌ غالباً ما يورده المثقفون الغربيـون عارياً دون تزويق.

وقد طبق ويلسون، عندمـا أصبح رئيساً للجمهورية بعـد بضـع سـنوات، عقيدته حول تقرير المصير، بغزوه المكسيك، **وجزيرة أسبانيولا** "التي تشكل تاهيتي وجمهورية الدومينكان". وقد قتل جنوده، وسلبوا، وأسسوا حالة شبيهة بـالرق، ودمروا النظام السياسي، ووضعوا البلاد بين أيدي المستثمرين الأمريكيين.

وقد نشر **روبرت لانسينغ**، وزير خارجية **ويلسون**، مذكرة شرح فيها معـنى "**مبدأ مونرو**" ووصف **ويلسون** نشرها بأنه سـوء تصـرف سياسـي، ولكـن حيثياتـها لا يمكن أن تـهاجم.

قال لانسينغ: "في دفاعها عن مبدأ **مونرو**، إنما تدافع الولايات المتحـدة عـن مصالحها الخاصة. أما إنصاف الأمم الأمريكية الأخرى فهو مسألة إضافية، وليـس غاية بحد ذاتـها. وبقدر ما يبدو هذا المضمون مبنياً بشكل فريد على الأنانية، فإن واضع هذا المبدأ، ليس لديه دافعاً أسمى أو اكثر أريحية ليقدمه".

ما كان استرجاع أشكال المخاتلة الأصلية في الأسطورة الأمريكية ليحمل فائدة تاريخية كبيرة، لو لم يتطور هذا النظام السياسي، بعد قرنين، ليشمل العالم كله.

فحتى الحرب العالمية الأولى تركزت أعمال السلب في القارة الأمريكية فقط. وكانت المشكلة آنذاك تتلخص بإعاقة سيطرة أوروبا على الأرض والمؤسسات الأمريكية، بالوسائل المالية، أو غيرها.

كان تاريخ الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، هو أولاً تاريخ إبادة الهنود، إذ جرى بين عامي ١٨٠٠ و ١٨٣٥، تهجير كل الهنود من **حوض المسيسبي**، في ظروف تهجير وإسكان تذكرنا بعمليات التهجير الهتلرية.

كما أبيد الآلاف من **حيوان البيزون** الذي يقتاتون به، ومن صوفه يصنعون ملابسهم، ودمرت مساكنهم. و لم تتوقف المقاومة الهندية المسلحة إلا بعد ارتكاب مجزرة "**ووندديني**" عام ١٨٩٠. كان تاريخ الولايات المتحدة أيضاً، تاريخ استغلال العبيد السود، وخاصة في ميدان زراعة القطن.

هذه هي السمات الأساسية لسياستهم الداخلية. أما سياستهم الخارجية فقد هدفت لنزع يد إسبانيا والبرتغال عن "ممتلكاتهما" في القارة، ليحل محلها توغلهم الاقتصادي وسيطرتهم السياسية. ثم طردوا بريطانيا ليستغلوا بدلاً منها البترول.

وقد حدد **الرئيس مونرو** في رسالته إلى **الكونغرس** "٢ كانون الأول ١٨٢٣" القاعدة الأساس لهذه السياسة الهادفة لاستبعاد الهنود، والزنوج وأوروبا، قال فيها: للأوروبيين القارة القديمة، وللأمريكان القارة الجديدة.

واتخذ من تفجير بارجة في **ميناء هافانا**، ذريعة لشن حرب ضد اسبانيا، جرى بنتيجتها احتلال **بورتوريكو**، والفليبين وكوبا.

أسال التدمير الأوروبي المتبادل في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) أنهاراً من الذهب، صبت في الولايات المتحدة، التي هبّت للنجدة عندما وصلت الحرب إلى نهايتها ولاحت أعلام النصر.

وتحمل أسطورة المحررين الأمريكيين لأوروبا تضليلاً مزدوجاً:

- التدخل الأمريكي الذي جـاء بعد ثلاث سنوات مـن انـدلاع الحـر (عام ١٩١٧) لأن مصالح الفعاليات الاقتصادية الأمريكية تعرضت للخطر بسبب نسف البواخر الأمريكية التي واصلت متاجرتـها خلال الحرب مـع بريطانيـا، وكذلك لأن الوزير الألماني **زيمرمان**، وعد المكسيك بتشكيل حلف ضد الولايـات المتحدة، سيعيد بنتيجته للمكسيك أقاليمـها الضائعـة: "تكسـاس، أريزونـا، نيومكسيكو"... وقد أدى تدخل **القيصر كيسزر** "صاحب أكبر مصانع للسفن في الولايات المتحدة" إلى تبدل في الرأي الأمريكي، لمصلحة إرسال حملة إلى أوروبـا (٤ نيسان ١٩١٧).

كلفت الحرب العالمية الأولى فرنسا مليون ونصف قتيـل، وألمانيا أكـثر مـن مليون وسبعمائة ألف قتيل. ومن الضروري أن نقارن هذه الأرقام بعدد الضحايـا التي نتجت عن المشاركة الرمزية للولايات المتحدة.

أما الرخاء الاقتصادي الذي شهدته الولايـات المتحـدة مـا بـين عـامي (١٩٢٠-١٩٣٣)، فقد تحول إلى تـهتك، مع نمو نشاط المافيات المتـآمرة مـع أجهزة الشرطة من خلال قانون منع الخمور الذي صدر عـام ١٩١٩، والـذي ازدهرت من خلاله الحانات غير القانونية، والملاهي وبيـوت الدعـارة السـرية، ونشاطات مهربي الخمور.

وقد شهدت أعوام (١٩٢١-١٩٢٤) إجراءات لكبـح جمـاع الهجـرة إلى الولايات المتحدة، وازداد نشاط عصابـات **الكوكلاكس كلان**، ناشرة الرعـب من جديد في مناطق الجنوب. وحملت **الشوفينية** المسيطرة، إلى الكرسي الكـهربائي العديد من الأبرياء مثل **ساكو وفانزيتي**، الناشطين الايطاليين وأصبح الهم السياسـي تحطيم أي نظام اجتماعي يتعارض مع التوغل الاقتصادي الأمريكي، وبكل وسـيلة ممكنة. كما أصبح الاتحاد السوفيتي و "العدوى" التي يمكـن أن ينقلـها، العـدو الرئيسي. و هيمن رعب مماثل على أوروبا الغربية. و لم يتردد القادة الأمريكـان، في

الاعتماد على أعتى الطغاة، باسم الدفاع عن الحرية، التي هي في الحقيقة حرية الباب المفتوح للتوسع الأمريكي بلا حدود.

وفي الحرب العالمية الثانية، جرى الإنزال الأنكلـــو – أمريكـــي في أوروبـــا، عام ١٩٤٤. وكان اليابانيون، قد دمروا بشكل غادر الأسطول الأمريكي في **بيول هاربر**، بينما كان الأمريكيون يسعون لإنقاذ مصالحهم في المحيـــط الهـــادي أمـــام التوسع الياباني الخاطف.

لم يتدخل الأمريكيون مباشرة ضد **هتلر** إلاّ في ١٩ حزيـــران ١٩٤٤، عندمـــا كان يعاني من هزيمته الأولى في كانون الثاني ١٩٤٤، حيـــث تحطـــم جيشـــه في **ستالينغراد**، بعد أن خسر ٤٠٠ ألف جندي بينهم ١٤٠ ألف أسير.

كانت المقاومة في كل أوروبا، وطوال سنوات الحرب قد قضمت الاحتـــلال الألماني. وفي ذلك الحين، كان **هتلر** قد حشد خيرة قواته (١٨٩ فرقة من أصـــل ٣١٥ فرقة) على الجبهة الروسية، و٣٨ فرقة على الجبهة الإيطالية و ٦٤ فرقة على الجبهة الممتدة من النرويج إلى فرنسا. وأدى هذا كله إلى تشتت آلة الحرب الهتلرية.

وجاء إنزال حزيران ١٩٤٤ بعد قصف مرعب على التجمعات السكانية المدنية راح ضحيته ٥٧٠ ألف قتيل و ٨٠٠ ألف جريح من المدنيين.

والمثال الأكثر دلالة على قصف المدنيين، هو قصف **درسدن** (١٣٥ ألف قتيـــل مدني)، على الرغم من أن الزحف الروسي كان قد تجاوز المدينة، التي لم تعد لهـــذا السبب تشكل هدفاً عسكرياً. أما **هيروشيما**، فقد مسحت يـــوم ٢ آب ١٩٤٥، من على الخارطة بفعل قنبلة ذرية، أودت بحياة ٧٥ ألف ضحية .. ثم جـــاء دور **ناغازاكي**، بعد ثلاثة أيام من قصف **هيروشيما** فعاشت نفـــس المصـــير، مـــع أن الإمبراطور كان قد اقترح استسلام اليابان.

كانت الفكرة عن الشيوعية شاملة جداً. ففي عام ١٩٥٥، توصلت مؤسســـة **وودرو ويلسون**، بالاشتراك مع جمعية التخطيط القومي إلى تعريف للشيوعية أكثر

ما يكون دقة: "يأتي الخطر الشيوعي من التحول الاقتصادي لبلد ما بشكل يضعف رغبته وقدرته في أن يكون متمماً لاقتصاد الغرب الصناعي".

ولكي يتصدى القادة الأمريكان لمثل هذا التهديد، لم يترددوا، غـــداة الحـــرب العالمية الثانية في حمل جنرالات النازية الجديدة إلى السلطة والتحالف معهم.

وكانت هذه السياسة، التي طبقت بعد الحرب الثانية في كل أمريكا اللاتينية، قد طبقت سابقاً بعد الحرب العالمية الأولى. ففي عام ١٩٢٢، وصف السفير الأمريكي في روما، مستذكراً ذكرى مسيرة **موسوليني** إلى روما الـــتي وضعـــت نـــهاية للديمقراطية في إيطاليا، وصفها "بالثورة الشابة والجميلة"، وأوضح لمـــاذا يـــرى "أن الفاشيست ربما يكونون العامل الأقوى في كبح جماح البلشفية".

وحظيت إيطاليا الفاشية منذ ذلك الحين بتعامل طيب من قبل الولايات المتحدة، وذلك عندما سويت مسألة ديون الحرب. ثم تدفقت الاستثمارات الأمريكيـــة إلى إيطاليا. وفي عام ١٩٣٣ تحدث **تيودور روزفلت** عن **موســـوليني** واصفـــاً أيـــاه "بالسيد الإيطالي الذي يثير الإعجاب". وفي عام ١٩٣٧، قيّمت وزارة الخارجيـــة الأمريكية الحركة الفاشية بأنـــها " أصبحت روح إيطاليا التي فرضت النظـــام في قلب الفوضى والمبادئ في وجه التجاوزات، وحلّت مشكلة الإفلاسات".

و لم تغير إدانة غزو أثيوبيا إطلاقاً من طبيعة العلاقات بين البلدين، وشرح **السفير الأمريكي لونغ** أسباب ذلك بقوله: "بدون هذا التوجه .. كانت أشكال العنـــف البلشفي ستظهر في المراكز الصناعية، والمنـــاطق الزراعيـــة الـــتي تســـود فيـــها الملكية الخاصة".

وفي عام ١٩٣٧، اعتبرت وزارة الخارجية، أن الفاشية تتوافـــق مـــع المصـــالح الاقتصادية الأمريكية. وبمعنى آخر، مع المفهوم الأمريكي للديمقراطية.

وحدث الأمر نفسه مع **هتلر**. ففي عام ١٩٣٣، كتب القائم بالأعمال الأمريكي في برلين إلى واشنطن: إن الأمل المعقود على ألمانيا، إنما يعلّق على "الجناح المعتدل في الحزب الذي يقوده **هتلر** ...الذي وجّه دعوة تعاون إلى كل الناس المتمدنين والعقلاء".

ولأن "المحور" لم يهاجم الولايات المتحدة بعد **بيرل هاربر**، فقد استمر الموقف الأمريكي من الفاشية على حاله لم يتغير.

وبعد الحرب .. تتابعت السياسة نفسها، ولكن بلبوس جديد.ففي عام ١٩٤٣، شهد الجنوب الإيطالي تراجع قوات **الدوتشي**، بناء على إيحاء من **تشرشل** مدفوعاً بالخوف من شبح حصار بلشفي. وقامت الولايات المتحدة بدعم ملك إيطاليا الذي تعاون مع النظام الفاشي، وفرضت ديكتاتورية **المارشال بادوغليو**، تماماً كما فعل **روزفلت** عندما نصّب عام ١٩٤٢ **الأميرال دارلان**، لا **الجنرال ديغول**، على الجزائر.

كان الهدف هو منع المقاومة ضد الفاشية من الوصول إلى السلطة، وكان الشيوعيون قد لعبوا دوراً حاسماً في صفوف هذه المقاومة.

قال **ديفيد ماك ميشيل** في كتابه "**أكاذيب عصرنا**": منذ أن تسرب التقرير المعروف باسم تقرير **بايك** عام ١٩٧٦ إلى الكونغرس، بات معروفاً مدى تدخل وكالة المخابرات المركزية في الحياة السياسية في إيطاليا. وكان الأمر يتعلق بمبلغ خمسة وستين مليون دولار، قدمت كمساعدات مالية لأحزاب سياسية مرضيّ عنها، وإلى شركاء لها، وذلك بين عام ١٩٤٨ وبداية السبعينات. وفي عام ١٩٧٦ سقطت حكومة **ألدومورو** في إيطاليا، بعدما كشف أن وكالة المخابرات المركزية أنفقت ستة ملايين دولار لدعم المرشحين المعادين للشيوعية.

ونقرأ في كتاب **لكريستون سيمبسون** بعنوان "**الفجار**" صدر عام ١٩٨٨:

"قامت أجهزة التجسس الأمريكية، والأجهزة المعادية للمقاومة، بتجنيد مجرمي حرب نازيين كبار، مثل **كلاوس باربي** الذي يعتبر بدون شك، الأكثر شهرة بينهم".

وعمل النائب العام الأمريكي **ماك كلوي** على إطلاق سراح مجرم حرب نازي، أسوأ حتى من باربي، وكان يطلق عليه اسم **فرانز ٦**. والذي كان يعمل تحت إمرة **رينارد غيلن** الذي أوكلت إليه مهمة تشكيل "جيش سري"، تحت الرعاية الأمريكية، وبالتعاون مع أعضاء قدامى في جهاز الأمن النازي واختصاصيين آخرين في جهاز قوات الدفاع الوطني النازية والذين كانوا قد قدموا العون للقوات العسكرية الميدانية التي وضعها **هتلر** في بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي، وساعدوا بعد انتهاء الحرب في عمليات استمرت حتى أعوام الخمسينات. وكان **غيلن** نفسه رئيساً للاستخبارات العسكرية النازية في أوروبا الشرقية، وقد عهد إليه فيما بعد، في الدولة الألمانية الجديدة بمنصب مدير إدارة التجسس والتجسس المضاد، تحت مراقبة صارمة من المخابرات المركزية الأمريكية.

وحقيقة الأمر، أن خوفاً كبيراً في الولايات المتحدة، قد برز مع تصاعد أزمة ١٩٢٩، عندما أدى انهيار سوق الأوراق المالية في ٤ تشرين أول، نتيجة المضاربات المالية، إلى إفلاس عدد لا يحصى من المصارف والمؤسسات، وارتفاع مذهل في معدل البطالة. وفي عام ١٩٣٠، وصل عدد العاطلين عن العمل إلى أربعة ملايين، وارتفع عام ١٩٣١ إلى سبعة ملايين، ثم بلغ عام ١٩٣٢ أحد عشر مليوناً.

أدى وصول **روزفلت** وأركان حكمه من المنظرين إلى السلطة عام ١٩٣٢، إلى بروز مبدأ جديد للدولة في ميدان الاقتصاد، أطلقوا عليه اسم "الصفقة الجديدة"، والذي ظهر بعجلة دون أن يتمكن من حل الأزمة، فقد انخفض الناتج القومي عام ١٩٣٧، بنسبة ١٣% وانخفضت معدلات الاستخدام ٣٠%.

كانت الحرب العالمية الثانية وحدها القادرة على إخراج الولايات المتحدة من أزمتها. وفي الوقت الذي رفض فيه **روزفلت** تقديم العون لفرنسا المهزومة منذ عام ١٩٤٠، فقد بذله لبريطانيا بموجب قانون خاص **(قانون الإعارة والتأجير)** أدى تطبيقه إلى إنعاش الاقتصاد الأمريكي عن طريق تصنيع آلاف عربات الشحن والطائرات والدبابات والمدافع. وحسم الهجوم الياباني في **بيرل هاربر** دون إعلان الحرب، الجدال لصالح موقف مؤيد **لروزفلت**.

وسمحت القوة الاقتصادية الأمريكية تجاه أوروبا التي دمرتها الحرب، سمحت **لروزفلت**، حتى قبل تدخله المتأخر، أن يصبح سيد اللعبة في أوروبا الغربية منذ كانون الثاني ١٩٤٣ تجلى ذلك واضحاً في **مؤتمر كازابلانكا**، ثم في **مؤتمر طهران** الذي تلاه في نفس العام، ثم في مالطا عام ١٩٤٥، حيث مثل فيه **روزفلت** دور المفاوض الرئيسي **لستالين** لتنظيم العالم بعد سقوط **هتلر**.

خرجت الولايات المتحدة من الحرب، وهي في وضع السيطرة الشاملة، وهو وضع لم سبق له مثيل في التاريخ. فالمنافسون الصناعيّون كانوا قد دُمِّروا، أو أصابهم الضعف إلى حد كبير، ولهذا فقد تضاعف الإنتاج الصناعي الأمريكي خلال سني الحرب أربع مرات.

وأصبحت الولايات المتحدة في نهاية الحرب، مالكة لنصف ثروات العالم، بينما كانت خسارتها البشرية متواضعة جداً بالمقارنة مع ما قدمه العالم كله. لقد كلفت الحرب ألمانيا ما يزيد عن سبعة ملايين ونصف نسمة نصفهم من المدنيين، وخسر الاتحاد السوفيتي سبعة عشر مليوناً منهم عشرة ملايين مدني. وفي إنكلترا وفرنسا تجاوز الرقم مليون قتيل منهم ٤٥٠ ألف مدني. أما الولايات المتحدة، فقد كان عدد قتلاها ٢٨٠ ألف جندي، وهو رقم يعادل عدد ضحايا حوادث السيارات في الولايات المتحدة خلال سني الحرب.

وقبيل الحرب الكورية بقليل ١٩٥٠، أُعدت الوثيقة التي رسخت الخط السياسي للولايات المتحدة. وعرفت فيما بعد باسم مذكرة مجلس الأمن القومي رقم ٦٨/ وقد حرّرها **بول نيتش**، الذي خلف **جورج كينان** على رأس جهاز التخطيط في وزارة الخارجية.

وكان **جورج كينان** قد أقيل من منصبه لأن السلطة اعتبرته من "الحمائم" جداً، وكان قد كتب عام ١٩٤٨ : *نحن نملك ٥٠% من ثروات العالم، ولكننا لا نشكل أكثر من ٦,٣% من سكان الأرض، وفي مثل هذا الوضع يبدو أنه لا مناص من أن نكون موضع غيرة وحسد الآخرين، وسيكون جهدنا الأساسي في الحقبة المقبلة، تطوير نظام من العلاقات يسمح لنا بالاحتفاظ بهذا الوضع المتسم بعدم المساواة، دون أن نعرّض أمننا القومي للخطر. ويجب علينا لتحقيق ذلك أن نتخلص من العاطفة تماماً، وأن نتوقف عن أحلام اليقظة. يجب أن يتركز انتباهنا في كل مكان على أهدافنا الوطنية الراهنة، علينا أن لا نخدع أنفسنا، ولا نستطيع أن نسمح لأنفسنا اليوم بالغوص في ترف التفكير بالايثار وعمل الخير على مستوى العالم. علينا التوقف عن الحديث عن مواضيع غامضة أو غير ممكنة التحقيق، تتعلق بالشرق الأقصى، مثل حقوق الإنسان، أو تحسين مستوى المعيشة، أو إحلال النظام الديمقراطي. ولن يكون بعيداً اليوم الذي سنجد فيه أنفسنا مضطرين للتحرك بصراحة من خلال علاقات القوة. وبقدر ما يكون ارتباكنا بسبب الشعارات المثالية أقل، بقدر ما يكون ذلك أفضل "دراسات في التخطيط السياسي".*

أما "**مخطط الصقور**" الذي رسمه **بول نيتش** بوضوح أكثر للمواضيع التي تناولها. تمتلك الولايات المتحدة – يقول **نيتش**– قوة كونية، لهذا سيكون من الضروري أن نحدد لنا عدواً كونياً، وفي هذه الحالة سيكون الاتحاد السوفيتي. وعلينا أن نضفي على هذا العدو كل صفات الشيطان، بحيث يصبح كل تدخل أو عدوان للولايات المتحدة مبرراً مسبقاً، وكأنه عمل دفاعي تجاه خطر يشمل الأرض كلها. وهكذا أصبح الاتحاد السوفيتي بموجب هذا المخطط، "امبراطورية الشر". ليس مهماً أن لا تكون كوريا أو فيتنام هي التي غزت الولايات المتحدة، وليست هامة حقيقة أن الولايات المتحدة هي التي غزت هذين البلدين الذين يقعا على بعد عشرة آلاف كيلومتر عن حدودها، ومع ذلك فقد زعمت أمريكا أنها تعتبر نفسها في حالة دفاع مشروع.

ولم يكن الاتحاد السوفييتي عام ١٩١٧، قد أصبح قوة عسكرية، وخاصة بعد خسارته المرعبة بالأرواح خلال الحرب العالمية الأولى، ومع ذلك فقد اعتبر الخطر الرئيسي، بسبب أخطار "العدوى" التي يحملها، مشكلاً تهديداً لاستمرار النظام الرأسمالي.

وقال **جاديس** في كتابه**"السلام الطويل" ١٩٨٧**:

"أصبح أمن الولايات المتحدة في خطر منذ عام ١٩١٧، وليس في عام ١٩٥٠. كان التدخل عملاً دفاعياً ضد تبديل النظام الاجتماعي في روسيا وإعلان الاتحاد السوفييتي عن نواياه الثورية". ومن هذا المنطلق كتب **السناتور وارن هاردينيج**، الذي أصبح فيما بعد رئيساً للولايات المتحدة (١٩٢١-١٩٢٣) قائلاً: "تشكل البلشفية تهديداً يجب القضاء عليه ... لابد من القضاء على الوحش البلشفي" من كتاب "**الولايات المتحدة وإيطاليا الفاشية** ".

إذن، يشكل وجود الاتحاد السوفييتي بحد ذاته عدواناً، وهذا يوجب أن تدافع الولايات المتحدة عن نفسها، في كل بقعة من بقاع العالم.

وهكذا تحددت بوضوح مواضيع الحرب الباردة. وحددت وثيقة جهاز التخطيط في الخارجية الأمريكية المذكورة آنفاً هذه المواضيع على الشكل التالي:

إن الصراع بين قوى النور وقوى الظلام لا يهدد فقط جمهوريتنا، إنما المدنية بأسرها. إن الانقضاض على مؤسسات العالم الحر، يشمل المعمورة كلها، ويضع على كاهلنا من خلال مصالحنا الخاصة، مسؤولية ممارسة "القيادة للمعمورة كلها".

وكان من السهل جعل هذه الفكرة مقبولة من "الرأي العام"، بسبب الطبقة الحاكمة المسيطرة على الصحافة ودور النشر والجامعات والسينما والتلفزيون. وكشف اليكس توكفيل، عن مدى هذه الإمتثالية لدى الشعب الأمريكي في كتابه "الديمقراطية الأمريكية": "إني لا أجد بلداً تكاد تنعدم فيه استقلالية الروح، ويسوده قليل من النقاش مثل الولايات المتحدة ". وفي عام ١٨٥٨ قال الكاتب **هنري ديفيد ثورو** وهو أحد المعارضين النادرين ومؤلف كتاب **"والدن — أو الحياة في الغابة"**:

"ليس هناك ضرورة لوجود قانون يمكّن الدولة من السيطرة علـــى الصحافـــة، لأنـــها تفرض قوانينها بنفسها، وتطبقها بصرامة أكثر مما هو مطلوب منها. لقـــد وصل المجتمع، ولو بشكل غير معلن إلى اتفاق يتعلق بالمواضيع التي يمكن للصحافـــة أن تعبّر عنها، واختار ميدانـــها، وعقد تعاهداً مضمراً بعزل كل من يحاول خرقه، بحيث لا يتجرأ واحد من ألفٍ أن يعبّر عن شيء آخر". ويضيف **نعوم شومسكي**: "من الدقة أكثر القول إن واحداً بالألف لا يستطيع أن يفكر بشيء آخر، إلى هـــذه الدرجة الماحقة يمارس نظام السيطرة سلطته على التفكير".

"وفي القرن العشرين بدت هذه السيطرة أكثر وضوحاً، إذ أدركت شـــخصيات مرموقة وباحثون كبار في العلوم السياسية، وصحفيـــون، وعـــاملون في صناعـــة العلاقات العامة المتنامية، أنه في بلد ما حيث يمكن للشعب أن يرفع صوتـــه، مـــن الضروري التأكد أن هذا الشعب يقول ما يجب أن يقال وبالشكل المناسب".

"وفي دولة مؤسسة على العنف الداخلي، تكفي السيطرة على ما يفعله النـــاس، أما ما يفكرون به فقليل الأهمية. أما عندما يكون عنف الدولة محدوداً، يصبح مـــن الضروري السيطرة على ما يفكر به الناس".

كان هذا الأمر واضحاً جداً في حلقات النخبة، حيث كان هناك إصرار علـــى أهمية "إعداد الموافقة"، وهو تعبير استخدمـــه **والتوليبمان** وهو صحفـــي متمـــيز ومعلق سياسي، أو "فبركة الموافقة، حسب تعبير **ادوارد بـــرني** ، وهو شـــخصية مؤثرة ومحترمة جداً في حقل صناعة العلاقات العامة ، وذلـــك للاطمئنـــان إلى أن المجتمع ، سيوافق على قرارات قادته الأذكياء ، ذوي البصيرة النافذة ، والذين يجب أن يكونوا بمنأى عن التأثر بجلافة الجماهير وسذاجتها ".

وكتب **روبرت دال**، وهو أحد النقاد النادرين الذين تناولوا هـــذه المفـــاهيم بالنقد، والمختص بالعلوم السياسية: "لو افترضنا أن الخيارات السياســـية تفـــرض ببساطة على النظام، من قبل القادة (سواء كانوا من رجال الأعمال أو آخريـــن)، كي يحصلوا على ما يريدون، فإن نمط الاستفتاء الديمقراطي، سيعادل في جوهـــره الهيمنة الشاملة".

وهكذا، على أرض التلاعب هذه، التلاعب بالرأي العـــام، يســعى القــادة الأمريكان أن يحققوا هيمنتهم على العالم. والشاغل الأول للأجهزة المسيطرة علــى السلطة، هو أن يحموا ظهرهم في أمريكا اللاتينية.

كانت الخطوة الأكثر وحشية بعد الحرب، خطوة غواتيمالا، حيــث هــددت حكومة الرئيس ارابيز الشعبية امتيازات شركة الفواكه ، وشـــركات البــترول الأمريكية العاملة هناك.

وتجنباً لمضاعفات التدخل العسكري المباشر، فقد حددت مذكرة مجلس الأمــن القومي، رقم NSE 5432، الإجراءات الضرورية لتكامل القــوات العسكريــــة اللاتينية — الأمريكية، من خلال الأســلوب الأمريــكي "في التشجيع":

- "زيادة حصص بلدان أمريكا اللاتينية في مجال تدريب الأفـــراد في الكليــات العسكرية ومراكز التدريب في الولايات المتحدة، بما فيها الأكاديميات الحربية".

- يفضل إنشاء علاقات شخصية أكثر حميمية بين العسكريين الأمريكيين، وغــير الأمريكيين، لتشجيع عسكريي أمريكا اللاتينية على تفهـــم أكــبر لأهــداف الولايات المتحدة وتبنيها، وإدراك الدور الهام لمؤسساتــهم العسكرية في الحكم.

- البحث عن نمطية كاملة في التنظيم، والتدريب، والعقيدة القتاليــــة، وتجــهيز القوات المسلحة في بلدانــهم، كل ذلك حسب المعايير الأمريكيـــة. الهــدف أن يعارض هؤلاء العسكريون، إرسال دول أخرى، بعثات عســـكرية إلى أمريكـــا اللاتينية، وكي يصبح مؤكداً أن التجهيزات الأمريكية هي الـــتي ستســتخدم في هذه الجيوش.

لنلاحظ أن هذه الإجراءات لجيوش أمريكا اللاتينية في إطـــار بنيــة القيــادة العسكرية الأمريكية، إنما تــهدف إلى مواجهة " أعدائنا التــاريخيين" في أمريكـــا اللاتينية، وهم أوروبا والسكان الأصليون.

ولأن المظالم التي ارتكبها القتلة في أمريكا اللاتينية، جعلت من الصعب وضعهم في كراسي الحكم، فقد استبدلت الولايات المتحدة الإرهاب بالفساد، وعمدت إلى استبدال هؤلاء القتلة، بقادة "منتخبين"، كما جرى في الأرجنتين والبرازيل وباناما بعد أن استخدموا **نورييغا**، وكذلك في نيكاراغوا التي سعوا أن تستمر فيها **السوموزية** بدون **سوموزا**، بعد ثلاثين ألف قتيل.

وطرحت المشكلة بحدة في أوروبا غداة الحرب العالمية الثانية. كان الخطر هنا مضاعفاً، حسب وكالة المخابرات المركزية التي أكدت عام ١٩٤٧ أن الخطر الأكبر، على أمن الولايات المتحدة، هو خطر الانهيار الاقتصادي في أوروبا الغربية، وما سيتبعه من وصول عناصر شيوعية إلى السلطة.

ولتجنب مثل هذا الخطر المضاعف،، أطلق القادة الأمريكيون مشروع "مارشال" الذي هدف حسب قولهم إلى إعادة إعمار أوروبا.

لكن الشروط السياسية كانت صارمة: لابد في البداية من إقصاء الشيوعيين في الحكومات الغربية. وهكذا بدى التدخل الخارجي في هذه البلدان واضحاً:

فقد أقصي الوزراء الشيوعيون في الحكومة الفرنسية عن الحكم في ٤ أيار ١٩٤٧. وأقصي الوزراء الشيوعيون في الحكومة الإيطالية في ١٣ أيار ١٩٤٧.

وأقصي الوزراء الشيوعيون في الحكومة البلجيكية في الشهر نفسه.

وهكذا، بعد أن تمت عمليات الإبعاد، أعلن بشكل رسمي عن مشروع مارشال في ٥ حزيران ١٩٤٧.

كانت "المساعدة " هي الهدف الأصغر في خطة مارشال. وقد لاحظت دراسة أجريت في نيسان ١٩٤٧، أن المساعدة الأمريكية ستكرس بشكل مطلق للبلدان التي تتمتع بأهمية استراتيجية أساسية للولايات المتحدة.. ما عدا حالات نادرة،

التي تبرز فيها مناسبة للولايات المتحدة أن تتلقى استحساناً عملياً بفضل "عمل إنساني واضح جداً".

وقد اتفق **دين اتشيسون** وزير الخارجية، وعدد من أعضاء مجلس الشيوخ عام ١٩٥٠، أنه لو أعلنت المجاعة في القارة الصينية، سيكون على الولايات المتحدة أن تقدم مساعدات غذائية قليلة بالقدر الذي لا تخفف فيه من حدّة المجاعة، إنما تكفي لتسجيل نقطة في سجل الحرب النفسية.

ولإعطاء دعم أكثر لهذه العملية السياسية الاقتصادية، فقد رسمت مذكرة مجلس الأمن القومي "NSE 68" استراتيجية لضغوط تهدف لنخر الاتحاد السوفييتي من الداخل، عبر سلسلة من الدسائس السرية وغيرها، تمكّن في النهاية من التفاوض مع الاتحاد السوفييتي (أو الدولة أو الدول التي يمكن أن تحل محله) للوصول إلى اتفاق.

أما الوسائل السرية، فقد تضمنت في تلك المرحلة، إرسال معدات وعملاء يندسون في صفوف جيوش الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، والتي كانت قد صمدت أمام **هتلر**، ووضع إدارة أجهزة التجسس في ألمانيا الفيدرالية، بين يدي **ريتشارد غيلين** الذي كان يدير أجهزة التجسس العسكرية النازية في الجبهة الشرقية، وتجنيد مجرمي الحرب النازيين للمشاركة في المشروع الأمريكي الشامل لما بعد الحرب، والذي يهدف لتحطيم المقاومة المعادية للفاشية.

ولأن العملاء من أمثال هؤلاء المجرمين لا يمكن حمايتهم في أوروبا، فقد أرسلوا، كل حسب مهمته، إلى بلد من بلدان أمريكا اللاتينية. وهكذا أرسل **كلاوس** إلى بوليفيا، فشارك بشكل فعال في انقلاب ١٩٨٠، وذهب ضحية جرائمه ما يفوق بكثير ضحايا الجرائم التي ارتكبها في فرنسا أثناء الاحتلال **الهتلري**.

أثار السلام عام ١٩٤٥، ثم انـهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٩ مشـكلات صعبة أمام الولايات المتحدة، تتعلق بالتبريرات التي ستضعها أمـام الـرأي العـام لسياسة التسليح التي كانت عنصراً ضرورياً لتنشيط الاقتصاد الأمريكي.

كتبت **مجلة وول ستريت جورنال** في ٣١ آب ١٩٨٩ ما يلي: أثـار الشـبح المزعج للسلام، مسائل شائكة، فهو يهدد مباشرة المسيرة المنتظمة للبرامج العسكرية الأمريكية والتي استندت إليها ، وإلى حـد كبير بعد سنوات الحـرب، حركـة اقتصاد الدولة. وتصور **الجنرال ادوارد ماير**، رئيس الأركان الأسبق، أن جيشـاً يتمتع بتقنية عالية، بما تستدعيه من استثمارات هامة، سيضمن عائدات ضخمـة للصناعة الموجهة للخارج، بما فيها من دبابات يسيرها **الروبوت**، وطائرات تقـاد عن بعد، وعمليات تضليل ألكترونية، إنما كلها مشكوك بفائدتـها في تحقيـق الأهداف العسكرية المقبلة.

ولكن المسألة ليست، لأن بواعث القلق تصدر عن ضعف الأمل في تطور تقنية كهذه، فكيف نقنع الشعب في دفع الفاتورة في الوقت الذي لم يعد فيه وأمام عينيه تـهديد شيوعي، بعد أن فقد هـذا الشعار مصداقيته.

يجب إذن البحث عن بديل "**لإمبراطورية الشر**".

هنا تزودنا حرب المخدرات بادعاء جديد لعمليات التدخل: "حـق التدخـل الإنساني" أو "الدفاع عن هذا الحق".

ثم وجدوا في العراق "**امبراطورية الشر الجديدة**".

منذ سنوات، كـان **صدام حسين** يمثـل سـداً ضد الإسلام الذي جسـدته إيران الخميني، و لم يمنع التسلح ولا الأسلحة عن ذلك الرجل الذي دعـاه أحـد الكتاب الفرنسيين بـ "**ديغول العراق**". أما عندما أراد أن يسترد نصف إنتاجـه البترولي الذي اغتصب منه عام ١٩٦٢، عبر تـهديد عسـكري مـن الطـراز

الاستعماري، "كانت الكويت دائماً في ظل الامبراطورية العثمانية، ومن ثم الاحتلال البريطاني تابعة لإقليم البصرة"، بادرت الولايات المتحدة، مع أتباعها وشركائها إلى اتخاذ إجراءات بدت معها وكأنها المدافع عن "القانون" و "القانون الدولي"، ضد هذا "العدوان"، بعد أن استخدمت حق الفيتو ضد كل عقاب بحق إسرائيل، وكأنه مكافأة لها على اعتدائها على الفلسطينيين والجولان، وإلحاقها أراض لا تعود لها ومنها القدس.

كان لابد من ضرب "المثل" لكل العالم الثالث، أنه من غير المسموح، تحت طائلة التدمير، لأي شعب أن يرتقي إلى مستوى تقني عال، أو يستثمر بنفسه ثرواته الوطنية "البترول في حالة العراق"، دون مراقبة الدول العظمى لأسعارها، ويشمل المنع بشكل خاص محاولة التخلص من الديانة التي لم تجرؤ هذه القوى على تسميتها، والتي فرضتها على العالم الثالث بأكمله: وحدانية السوق، ووثنية المال.

تشير إحصائيات الصليب الأحمر الدولي، أن القصف كلف الشعب العراقي مئتي ألف قتيل من المدنيين. أما الحظر التعسفي الذي فرض على العراق فقد أدى إلى وفاة ٥٠٠ ألف طفل بسبب نقص الغذاء والدواء.

عندما أرسلت الولايات المتحدة عسكرها إلى العربية السعودية، كتب **توماس فريدمان**، المشرف على الزاوية الدبلوماسية في **النيويورك تايمز** في ١٢ آب يقول:" لم ترسل الولايات المتحدة جنودها إلى الخليج لتساعد السعودية على صد العدوان فقط، بل لتساند في الوقت نفسه، أحد بلدان **الأوبك**، خدمة لمصالح واشنطن".

كما لاحظت **الواشنطن بوست** أن هذا الإجراء فيه شيء من سلوك الماضي المهجور، واستشهدت بقول **توم مان** مدير الشؤون الحكومية في **مؤسسة بروكينج**: يعامل بوش بلدان العالم الثالث بمنطق استعماري "**الواشنطن بوست ١٣ آب ١٩٩٠**".

وفي الحقيقة فقد سبق هذه العملية الاستعمارية، عدوان إنكليزي، عندما استرد العقيد عبد الكريم قاسم عام ١٩٦١، الامتيازات التي كانت تتمتع بها الشركات الغربية "٩٤ % من الثروة الوطنية"، والتي حصلت عليها عن طريق الحكومات الدمى التي نصبّها المحتلون الغربيون.

كان **سلوين لويد**، وزير الخارجية البريطاني، قد أرسل برقية سرية إلى رئيس الوزراء، عرض فيها خيارين يتعلقان بالكويت: إما احتلال بريطاني فوري لهذا البلد نصف المستقل، أو منحه استقلالاً اسمياً، وشكك بحكمة استخدام القوة. فالاحتلال يسمح بفرض خيارات صارمة على البترول الكويتي، لكنه يوقظ المشاعر القومية في الكويت، وسيكون ذا تأثير على الرأي العام الدولي، والعالم العربي. وسيكون من الفطنة أكثر، استبدال هذا الخيار بإيجاد نوع من "سويسرا كويتية" لا يسيطر فيها الإنكليز مباشرة على البترول. وفي حال اختيار هذا الحل البديل، سيتوجب علينا، إذا ساءت الأمور، أن نتدخل بأكبر حزم ممكن، كائنة من تكون، الجهة التي سببت الاضطراب. ويجب التأكيد على التضامن المطلق للولايات المتحدة معنا، فيما يتعلق بموضوع الخليج، وهذا يستدعي إجراءات حاسمة للحفاظ على وضعنا في الكويت. وعلى الولايات المتحدة أن تتخذ إجراءات مماثلة تتعلق بحقول نفط **الأرامكو** في العربية السعودية.والأمريكيون موافقون على بقاء حقول النفط في الكويت، والعربية السعودية والبحرين وقطر، بيد الغربيين مهما كلف الثمن.

ثم أوجز الوزير البريطاني المصالح الرئيسية للانكليز والغرب في الخليج:

- التأكيد على ضرورة وصول بريطانيا والدول الغربية الأخرى إلى بترول الخليج وصولاً حراً.

- التأكيد على بقاء البترول تحت تصرفنا وعقد اتفاقيات لصالحنا "وبالجنيه الإسترليني"، واتخاذ ترتيبات مقبولة لاستثمار فائض عائدات البترول في بلادنا.

- وقف تقدم الشيوعية والشيوعية المموهة في هذه المنطقة التي تسعى لاحتواء الحركة القومية التي يستخدمها السوفييت للتسلل إلى هذا المنطقة.

وتدافع وثائق أمريكية تعود لنفس الفترة عن الأهداف الإنكليزية، وبعبارات مشابهة، ونورد هنا مقطعاً من وثيقة مجلس الأمن رقم ١/٥٨٠١، بعنوان "القضايا الناتجة عن الوضع في الشرق الأدنى":

تؤكد المملكة المتحدة، أن الاستقرار الحالي، سيواجه تهديداً خطيراً، فيما إذا تعذر الوصول إلى بترول الكويت والخليج، في ظروف مفهومة. ومن جهة أخرى لا تستطيع إنكلترا أن تستغني عن الاستثمارات الضخمة لهذه المنطقة في المملكة المتحدة، كما أن الجنيه الاسترليني يحتاج لمساندة بترول الخليج "الفارسي".

وتحمل، هذه "اللزوميات" البريطانية، إضافة إلى حقيقة أن وارداً مؤكداً من البترول ضروري لحيوية الاقتصاد الأوروبي الغربي، تحمل إلى الولايات المتحدة حجة اكبر، لتدعم، أو تساعد إذا لزم الأمر، الإنكليز، بالقوة اللازمة لاستمرار سيطرتها على الكويت والخليج "العربي".

وهكذا اعتبر أيزنهاور الشرق الأوسط، وكأنه المنطقة الاستراتيجية الأكثر أهمية في العالم. وكانت الولايات المتحدة، غداة الحرب العالمية الثانية، قد جهزت خططها الجيوسياسية: "صاغت مجموعة من الدراسات التي أجراها كل من مجلس العلاقات الخارجية" الذي يمارس فيه عالم الأعمال تأثيراً كبيراً على السياسة الخارجية، ووزارة الخارجية مفهوماً أطلق عليه اسم "المنطقة الكبرى"، وهي منطقة يجب أن تخضع لمصالح الاقتصاد الأمريكي، والتي يجب أن تضم، على الأقل، نصف الكرة الغربي، والشرق الأوسط، والإمبراطورية البريطانية القديمة.

ويتوجب، بحسب الإمكان، تطوير هذا المفهوم لتكوين نظام عالمي شامل، يضم في كل الأحوال أوروبا الغربية ومصادر الطاقة الفريدة في الشرق الأوسط، التي بدأت فعلياً بالانتقال إلى الأيدي الأمريكية.

وفي كتاب "الولايات المتحدة والأبعاد الإستراتيجية لمشروع مارشال" للكاتب **ميلغن ليفر**، جاء ما يلي:

"إن المفهوم الأمريكي للأمن القومي ...يتضمن إيجاد منطقة نفوذ استراتيجية في قلب نصف الكرة الغربي "وهي دائرة تتواجد فيها أوروبا بالضرورة"، ولذلك يجب إقصاء نفوذها- يقصد أوروبا-، بحيث يشمل النفوذ الاستراتيجي السيطرة الاقتصادية، والهيمنة على المحيطين الهادي والأطلسي، ونظام شامل لبناء قواعد خارجية، لتوسيع الحدود الاستراتيجية، وترسيخ السلطة الأمريكية، ونظام أكثر تركيزاً على حقوق الترانزيت كي يسهل تحول القواعد التجارية إلى قواعد عسكرية، والوصول إلى مصادر الثروة، وأسواق القسم الأعظم من " **أوراسيا**"، ومنع أي عدو من الوصول إليها، وأخيراً تحقيق التفوق النووي".

ويسمح لنا هذا المفهوم الاستراتيجي، بفهم آلية الحرب الباردة بعد عام ١٩٤٨ بشكل أفضل. وتلعب سياسة "الإفراط في التسلح" دوراً حاسماً في هذه البرمجة.

قالت مجلة **وول ستريت** (١٩٥١): "إنه من الواضح، وجود إمكانية لانفاق مستمر على التسلح في هذه البلاد". وتحرك النفقات العسكرية للولايات المتحدة، الإنتاج الصناعي الأوروبي بشكل لا يمكن تجاهله، كما أن شراء المواد الأولية الاستراتيجية من المستعمرات الأوروبية، يقلّل من عجز الدولار، بنسبة تضاهي المساعدة التي قدمها مشروع مارشال لبريطانيا، والتي علقت عام ١٩٥٠. بينما وجد **هوغان**، أن النتائج على المدى الطويل كانت عكس ذلك. ففي اليابان لعبت النفقات العسكرية للولايات المتحدة، وخاصة بسبب الحرب الكورية، دوراً جوهرياً في إعادة بناء الصناعة اليابانية بعد الحرب، واستفادت كوريا الجنوبية من **حرب فيتنام**، بنفس الأسلوب، وبنفس الوقت الذي أفادت منه الدول الحليفة للولايات المتحدة.

كان دور العالم الثالث، خدمة احتياجات المجتمعات الصناعية، ففـي أمريكـا اللاتينية، كما في أي مكان آخر، كانت حماية "مواردنا الطبيعية" أمراً جوهريـاً، حسب تعبير **جورج كينان**، الذي رأى أنه "طالـما أن تـهديد مصالحنا، نـابع بالضرورة، من السكان الأصليين في المناطق المختلفة، فإن علينـا إدراك أن الـرد المناسب سيكون غير مستحب". وعنى بالرد المناسب، الضغوط البوليسـية الـتي تمارسها الحكومات المحلية. "يجب أن لا تثير إجراءات القمع الشديدة التي تمارسـها الحكومات، مشاعرنا طالما أنـها تخدم أهدافنا".

وتابع: "وبشكل عام، من الأفضل أن نضع في السلطة نظاماً قوياً، بـدلاً مـن حكومة ليبرالية، يرى فيها الشيوعيون حكومة متسـاهلة ومتراخيـة وهـو مـا يفضلونه". وتستخدم كلمة "**شيوعيون**" في الخطاب الأمريكي كتعبير فني، يقصـد به النقابيون، ومنظموا الجماهير الفلاحية، والجماعات المسـاندة الـتي أسسـها القساوسة، وبشكل عام كل أولئك الذين يسعون لأهـداف ليسـت "سـليمة" سياسياً. أما "الغايات الخيّرة" فقد حددتـها أعلى المستويات، وفي وثائق في منتهى السرية. أتى الخطر الأكبر على المصالح الأمريكية من الأنظمة القومية، الـتي هـي صدى للضغوط الشعبية الهادفة لتحقيق تحسين فـوري في المسـتوى المنخفـض، لمعيشـة الجماهير، وكـذلك تنويـع الاقتصاد. "وتدخـل هـذه المطـالب في صراع، ليس مع حاجتنا لحماية مواردنا فحسب، بل أيضاً مع همنا في تشجيع قيـام مناخ ملائم للإستثمار الخاص، وضمان فوائد معقولة لمن يحملون رؤوس أموالهم إلى تلك البلاد"، (وثيقة مجلس الأمن القومي ٥٤٣٢ ، ١٨ آب ١٩٥٩).

وتبعاً لما قاله **ديك شيني**، وزير الدفاع، الذي يشاطر الرئيس **بـوش** أفكـاره، "فالولايات المتحدة بحاجة دائماً لأسطول قوي (وبشكل عام قوات تدخل من جميع الأنواع) لمواجهة الصراعات الخفية، وحماية المصالح الأمريكية في آسيا، وأمريكـا اللاتينية، على سبيل المثال".

ويتابع **شيني**: "ستصبح قوتنا العسكرية في المستقبل، عنصراً ضرورياً لتوازن القوى، ولكنها ستؤكد وجودها بطريقة مغايرة. من المحتمل جداً أن تواجه تعبئة قدراتنا العسكرية تحدياً لا من الاتحاد السوفييتي فحسب، بل من العالم الثالث أيضاً، وهذا يستدعي قدرات جديدة، وتوجهات محددة".

فيما يتعلق بالتطورات الحالية لسياسة الإستيطان في فلسطين، لم يكن هناك، ولو للحظة واحدة، أية فرجة صغيرة تبعث الأمل من خلال ما اتفق على تسميته بعملية السلام، وهو تعبير غامض لأنه لا يمكن تحقيق السلام إلاّ من خلال تطبيق كامل لقرارات الأمم المتحدة، وقد انتهكت هذه القرارات باستمرار من قبل إسرائيل، وبشكل خاص كل ما يتعلق بالضفة الغربية، وزرع المستوطنات، ووضع القدس.

وقال **نعوم شومسكي** في كتابه "إعاقة الديمقراطية": أنهت الولايات المتحدة وإسرائيل مساعيهما الدبلوماسية الخاصة لنزع فتيل الخطر الناجم عن إنجاز عملية سلام حقيقي. وكان تحالف الليكود وحزب العمل، قد اقترح عام ١٩٨٩ ما سمي بخطة **شامير– بيريز**. وكانت المبادئ الأساسية لهذه الخطة:

– لن يكون هناك دولة فلسطينية في قطاع غزة، وفي المنطقة الواقعة بين إسرائيل والأردن.

– لن تتفاوض إسرائيل مع منظمة التحرير الفلسطينية.

– لن يحدث أي تغيير في وضع "يهودا والسامرة" وغزة، خارج الخطوط التي رسمتها حكومة إسرائيل، التي ترفض حق تقرير المصير للفلسطينيين. ويعكس تعبير "لا دولة أخرى في فلسطين"، رأياً مشتركاً أمريكياً– إسرائيلياً من منطلق أن الدولة الفلسطينية قائمة فعلاً، وهي الأردن. وانطلاقاً من هذا الرأي، لن يكون هناك حق تقرير المصير، بعكس ما يعتقده الأردنيون والفلسطينيون والأوروبيون وبعض المضلّلين الآخرين.

وتأخذ هذه المبادئ الأساسية بالحسبان "اللاءات الأربعة" الواردة في برنامج حزب العمل وهي: لا عودة لحدود عام ١٩٦٧، لا لإلغاء الاستيطان، لا للتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية، لا للدولة الفلسطينية.

بعد كل هذا .. دعت الخطة لإجراء انتخابات حرة ديمقراطية في ظل الاحتلال العسكري الإسرائيلي، مع استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية.

أضفت الولايات المتحدة الشرعية على هذا المشروع. وقال **جيمس بيكر** إن "هدفنا دائماً أن نسير في ظل معاني مبادرة **شامير**، وليس لدينا أية خطة أخرى، ولا أي اقتراح آخر".

وفي عام ١٩٨٩، نشرت الخارجية الأمريكية "**خطة بيكر**"، التي اشترط فيها أن تتحاور إسرائيل مع مصر، ومع بعض الفلسطينيين المقبولين والمخوّلين للبحث في كيفية تحقيق خطة **شامير** ... ولا شيء آخر.

والحقيقة أن السياسة الأمريكية تدار عن طريق اللوبي الصهيوني القوي في الولايات المتحدة، وهو اللوبي الذي دعته **جريدة النيويورك تايمز** "اللوبي الأشد تأثيراً ... إنه قوة كبرى في السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط". وتقدر **النيويورك تايمز** أنه يستند إلى ما لايقل عن ٤٠-٤٥ سناتوراً، ومئتي نائب من أصل ٤٣٥.

ويمثل اليهود الأمريكيون الذين لا يتجاوزون ٢,٦% من السكان، ٢٠% من أصحاب الملايين، حسب مجلة فوربس، وكلهم مستعدون لمكافأة الأصوات التي تصب في صالح إسرائيل، وفق توجيهات لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية "**إيباك**". وقد أنفقت هذه اللجنة عام ١٩٨٧ أكثر من ٦,٩٠٠,٠٠٠ دولار **(وول ستريت جورنال ٢٤ حزيران ١٩٨٧)**.

في ظل هذا النفوذ، تتلقى إسرائيل أكثر من ثلاثة مليارات دولار سنوياً، باسم مساعدة اقتصادية وعسكرية، وهو ما يمثل ٧٠٠ دولار لكل إسرائيلي في العام.

مقابل ذلك تتلقى أفريقيا باستثناء مصر- مساعدة، يبلغ نصيب الفرد فيها ٢ دولار في السنة (**لوموند ديبلوماتيك**. آب ١٩٨٩) .

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي، أصبح الموضوع الرئيسي للسياسة الأمريكية، وضع اليد على البلدان النامية. وكانت دول الجنوب قد تلقت في الماضي ضربة نموذجية للتوقف عن محاولتها لاستخدام ثرواتها الوطنية لخدمة شعوبها، وذلك عندما أطيح بالرئيس مصدق، وأعيد الشاه إلى حكم إيران. وكذلك كان خطر القومية قد أصبح من المسلم به في وسائل الإعلام. وقد سمح نجاح الانقلاب العسكري المدعوم من المخابرات المركزية الأمريكية في الإطاحة بالنظام البرلماني لمصدق، الرئيس الإيراني القومي المحافظ، واستعادة سلطة الشاه، سمح لشركات البترول الأمريكية أن تستولي على ٤٠% من الحصة البريطانية من بترول إيران. ووصفت **النيويورك تايمز** بأنه خبر ممتاز، على الرغم من أنه كلف غالياً كل الأطراف المعنية "وبالضرورة الجانب الإيراني". وقالت إن على الجميع أن يتعلموا منه الكثير، فيما لو كانوا يستخلصون الدروس من الأحداث. وكان الدرس المطلوب تعلمه، كما أوردته **النيويورك تايمز** بدون غمغمة، وبكلمات تتصف بكامل الوضوح: من المستحسن للدول النامية التي تملك ثروات طبيعية هامة أن تتأمل هذا الحدث المثال . لو أنها اقتفت آثار هؤلاء الذين يتواجدون في ظهرانيها، ويبشرون بالهذيان القومي، فسيكلفها ذلك غالياً. وقد تحتاج هذه الدول إلى التجربة الإيرانية لردع أمثال مصدق من الذين يسعون للوصول إلى السلطة . وتضع هذه التجربة أوراقاً رابحة في أيدي القادة "المتنورين" الذين يواجهون الأمور بمنطق يتطلع إلى المستقبل البعيد، ويملكون فكرة واضحة عن " **أولوياتنا**".

وجرى تطبيق هذا الإطار في مناطق محددة. كان فريق العمل الذي رأسه **جورج كينان** عام ١٩٤٩، لتخطيط سياسة وزارة الخارجية قد رأى أن لـــدول جنـــوب شرق آسيا وظيفة جوهرية هي تزويد اليابان وأوروبا الغربية بالمواد الأولية، وفتـــح أسواقها لهما. وقاد هذا الأمر إلى التدخل الأمريكي في الهند الصينية. كان الهـــدف محاصرة الاستعمار الفرنسي أولاً ثم الحلول محله. وخشـــيت أمريكـــا أن يصبـــح استقلال فيتنام بمثابة "**فيروس**" قومي ينتشر في كل جنوب شرق أسيا.

وأشارت وثيقة صادرة عن المخابرات المركزية في ١٣ أيار ١٩٦٥ إلى أنـــه في أي مكان لا نتمكن فيه من السيطرة المباشرة على القـــوات العســـكرية وقـــوات البوليس، على غرار نيكاراغوا بعد **سيموزا أو باناما**، يصبح من الضروري الإطاحة بالحكومة وإقامة نظام أكثر مسايرة، وإحياء وتقوية "جيش شرعي"علـــى غـــرار الحرس الوطني في **نظام سيموزا**، الذي كـــان أكـــثر الأنظمـــة تفضيـــلاً لـــدى الولايات المتحدة.

وفي مجلة "**نيشن**"، في عدد ١حزيران ١٩٩٠، كتب **ميشيل كلير**، تحت عنوان: عسكرية الولايات المتحدة تواجه الجنوب، أن "الكليات العسكرية، تقوم بتغيـــير برامجها لتلائم الأهداف المرسومة. وهكذا أعلنت كلية حرب الأسطول أن دراســـة استراتيجيات الحـــرب يجب أن تشدد علـــى الحـــرب "المدينيـــة"، والإرهـــاب، والأزمات ضعيفة الشدة، كغزو **بناما** مثلاً. وتستدعي الأشكال الجديدة للصـــراع "المتوسط الشدة"، مع الأعداء الأقوياء في العالم الثالث، انتباهاً خاصاً، لو أخـــذت بعين الإعتبار الحاجة الحيوية لبسط سلطة معينة على أقاليم أخرى، ليبقى متاحـــاً الوصول إلى الأسواق والمواد الأولية في المناطق البعيدة".

نفس المسائل، طرحها رئيس أركان البحرية ا.م.جراي، فقد أعلن أن "نهاية الحرب الباردة ستعيد توجيه سياستنا الأمنية الخارجية، دون تغيير الأسس، وسيكون صراع الشمال والجنوب هو الحد الفاصل الحتمي".

قال غراي في مجلة الأسطول في أيار ١٩٩٠:

"يجب ضمان وصولنا إلى الأسواق الاقتصادية في العالم كله، دون عقبات، وكذلك إلى المصادر الضرورية لتأمين احتياجاتنا الصناعية. لذلك يتوجب علينا إيجاد قدرة موثوقة للتدخل المسلح، مع قوى غزو فعلية قادرة على تنفيذ طيف واسع من المهمات، بدءاً من الرد على العصيان في الحرب النفسية، مروراً بنشر قوات من كافة الأصناف. وعلينا أن نحترس أيضاً من التطور التكنولوجي السريع للسلاح الذي يمكن أن تصل إليه القوى الإقليمية الجديدة في العالم الثالث. إذن، علينا أن نطوّر قدرات عسكرية موجهة مستثمرين تطبيقات الإلكترونيات وعلم المورثات والبيولوجيا الحيوية تريد أمتنا أن تؤكد مصداقيتها خلال القرن المقبل".

ولاحظ المؤرخ **ريتشارد ايمومان**، أن "القوة والأمن الأمريكيين، اعتمدا على الوصول إلى أسواق العالم ومواده الأولية، وبشكل خاص العالم الثالث الذي توّجب السيطرة عليه بشكل دقيق".

ولقد تأكدت الإرادة السياسية للسيطرة على العالم، وبكثير من الوقاحة بعد تدمير العراق. أمامنا وثيقتان واضحتان جداً، صدرتا عن **البنتاغون**. كتبت الوثيقة الأولى بإشراف **بول ولفوفيتش**، وكتبت الثانية بإشراف **الأميرال جيريميا**، الرئيس المساعد للجنة رؤساء الأركان. وهذه أربع مقاطع من الوثيقتين:

- الولايات المتحدة، هي، وبشكل قاطع حامية النظام العالمي، وعليها أن تضع نفسها في وضع تستطيع من خلاله التحرك بشكل مستقل عندما لا تتوفر ظروف العمل الجماعي أو في حالة وجود أزمة ما تستدعي القيام بعمل فوري.

– يهدف التحرك إلى منــع قيــام نظــام أمني أوروبي مستقــل يكون قــادراً على زعزعة استقرار حلف الأطلسي .

– يجب استيعاب ألمانيا واليابان في نظام جماعي للأمن تقوده للولايات المتحــدة. العمل على قهر خصوم محتملين ، ما كان عليهم التطلع للعب دور أكبر.

ولتحقيق هذا الدور لابد لهذه القوة العظمى المنفردة أن تتمتع بقيادة خلاقــة، وقوة عسكرية كافية لإقناع أي أمة من الأمم، أو أي مجموعة من الأمم أن تقلــع عن تحدي تفوق الولايات المتحدة، وأن تحسب حساباً كافياً لمصالح الأمم الصناعية المتقدمة، بقصد إثنائها عن تحدي القيادة الأمريكية، أو وضع النظام الاقتصــادي أو السياسي موضع خلاف.

هذا التسلط، الذي بدأ بأكبر حملة عرقية، وهي إبادة هنود أمريكا، ثم اســتمر من خلال الرق والتمييز العنصري ضد السود، وحماية طغاة أمريكا اللاتينية الأكـثر دموية في العالم كله، ثم على امتداد العالم كله، من **موبوتــو** في إفريقيــا، حــتى **ماركوس** في الفليبين، وارتكاب المجازر مثل يوم القيامة في هيروشــيما، ومجــزرة العراق، وما ترتب على ذلك، من خلال التدخــل المباشــر، أو بواســطة قــادة الانقلابات العسكرية، من ضحايا إنسانية لم يعرف مثلها التاريخ كله.

وسنكتفي بذكر بعض الفصول المعاصرة: في فيتنام سقط أربعة ملايين قتيل، وفي **تيمور الشرقية** ٢٠٠ ألف، وكذلك ٢٠٠ ألف في أمريكا اللاتينية بواسطة "زبائن" أمريكا، و٢٠٠ ألف في لبنان دون أي رادع، بفضل استخدام حق الفيتو في مجلـس الأمن، وهناك مئات الألوف في الفليبين، و٢٠٠ ألف في أمريكا الوسطى.

إنــها أمثلة...ولكنها غيض من فيض.

حتى الصحفيين الأمريكيين الأكثر رزانة، خلطــوا في حساباتــــهم، عندمــا رسموا ميزاناً لهذه الجرائم، بين الدولار والأموات. نذكر منهم **هاج سيدني** الــذي

كتب رسالة إلى **رونالد ريغن** في **مجلة التايمز** حول نيكاراغوا: "تقترب نتائج أحداث نيكاراغوا، من تلك التي بحثت عنها الولايات المتحدة منذ وقت طويل، في مسعاها للدفاع عن الحرية. كانت الخسائر قليلة، إذ لم تتعدّ ٣٠٠ مليون دولار قدمت مساعدة إلى **الكونترا**، و١,٣ مليون في الحرب الاقتصادية. لنقارن هذه الخسائر مع خسائرنا في فيتنام: ٥٨٠٠٠ قتيل و١٥٠ مليار دولار من النفقات، وأمة غرقت في المرارة، والهزيمة القاسية".

وعن هذا المنحى الأخير الذي أصبح واضحاً منذ غزوات كوريا، والعراق والصومال، وأماكن أخرى، كتب **دين أتشيسون**، وزير الخارجية مبشراً ومنذراً: إذا كانت سياستنا الواقعية، قد أعطت عهوداً للحفاظ على تايوان، وإذا كان علينا أن نتدخل عسكرياً لحمايتها، فسيكون ذلك مستتراً تحت راية الأمم المتحدة، مع "النية المعلنة لدعم المطالب الشرعية للتايوانيين في حق تقرير المصير".

وكان تشكيل فرق الموت، ضد رجال الدين، لخنق كل إحتجاج من أية جهة جاء، اكثر فاعلية ومضاءً.

ففي تشرين الثاني ١٩٨٩، وصف الأب **إيغناسيو ايلاكوريا** رئيس جامعة **الجزويت**، الذي اغتيل فيما بعد، وصف السلفادور بأنها "الحقيقة الممزقة بجروح تكاد تكون مميتة". كان الأب **إيغناسيو** قريباً جداً من رئيس **الإساقفة روميرو** الذي كتب إلى الرئيس **كارتر** يشكو عبثاً من عدم إيقاف المساعدات للفئة الحاكمة. وأبلغ رئيس الأساقفة صديقه ايلاكوريا أن الباعث على رسالته، كان المفهوم الجديد "للحرب الخاصة"، الذي تضمن الوقوف بحزم وبشكل مطلق ضد كل محاولة لإنشاء تنظيم شعبي إلغاءً مطلقاً بدعوى الشيوعية والإرهاب.

وليست الحرب الخاصة، التي يسمونها أحياناً مقاومة العصيان، وأحياناً أخرى صراعاً ضعيف الشدة، أو أي تورية مشابهة من هذا النوع، ليست إلاّ إرهاباً دولياً، وهي السياسة الرسمية للولايات المتحدة منذ زمن طويل، إنها سلاح في ترسانة كبيرة تستخدم في مشاريع اجتماعية-سياسية، أوسع مدى.

وهكذا، في مارس ١٩٨٠، اغتيل **المونسينور روميرو**، رئيس أساقفة السلفادور بينما كان يرعى قداساً كنسياً. حدث هذا الاغتيال باسم الديمقراطية الأمريكية الهادفة لإسكات كل احتجاج، ولم يفاجئ هذا الاغتيال أحداً، بعد أن كتب رئيس الأساقفة **لكارتر** يدعوه لإيقاف مساعدته للفئة الحاكمة، مؤكداً له أن هذه المساعدات تستخدم لدعم الظلم وممارسة الضغوط على المنظمات الشعبية المناضلة في سبيل احترام حقوق الإنسان الأساسية.

كان رئيس الأساقفة قد وضع أصبعه على المشكلة التي يجب التغلب عليها، وهي مشكلة "التورية والتمويه" والبيانات الغامضة الهادفة لإخفاء حقيقة الأحداث.

كان مطلبه الحصول على ضمانات من الولايات المتحدة، أن لا تتدخل بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال أساليب مراوغة للضغط الاقتصادي أو الدبلوماسي، أو أي شكل آخر من الضغوط ، تعرض الشعب السلفادوري لمخاطر الفناء.

ووعدت الولايات المتحدة أنها ستعيد تقييم منح المساعدات للفئة الحاكمة إذا توفرت لها البراهين عن الاستخدام السيئ لها. وأعقب هذه الوعود، اغتيال رئيس الأساقفة، وسحقت قوى الأمن المنظمات الشعبية بشراسة وحشية منكرة، على غرار ما حدث في مذبحة **ريو سامبول**، التي وقعت في ظل صمت وسائل الإعلام المقهورة.

وجاء في مقالة **لأمريكاس واكش**، بمناسبة الذكرى العاشرة لاغتيال رئيس الأساقفة روميرو: "أوضح التقرير عن كتيبة **أتلاكاتل** استمرارية السياسة الأمريكية. فجنود هذه الكتيبة قد دُرّبوا على إطاعة أوامر رؤسائهم، الذين يكلفونهم بمهمة اغتيال رجال الدين، عمداً وبأعصاب باردة" واستعرضت المجلة الأعمال الدقيقة لهذه الوحدة المشكلة من "النخبة" التي دربتها الولايات المتحدة وجهزتها. وقد وصف بروفيسور يعمل في المدرسة الحربية الأمريكية "في **فورت بينينغ- جورجيا**،

هؤلاء الجنود بأنهم متوحشون بشكل خاص، إنه لأمر سيئ أن نعلمهم كيف يسجنون الناس، فكيف بالأحرى عندما يقطعون آذانهم". وقد شاركت هذه الوحدة، في كانون الأول ١٩٨١ في عملية قتل خلالها مئات من المدينة في حفل قتل صاخب رافقته عمليات اغتصاب وحرق. وقدر المكتب القانوني للكنيسة عدد الضحايا بأكثر من ألف قتيل. وتتابع هذا الأسلوب، فقصفت قرى، ومات مئات من المدنيين، معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ حصدهم الرصاص، أو أميتوا غرقاً.

هذا هو باختصار ما سمي بالحرب الخاصة في السلفادور، بدءاً من العملية العسكرية التي جرت على نطاق واسع في أيار ١٩٨٠، عندما ذبح ٦٠٠ مدني، ومُثّل بجثهم في **ريوسومبول**. وقد اشترك في هذه المذبحة الجيشان السلفادوري والهندوراسي. وكشفت الكنيسة هذه المجزرة ، وتابعها المحققون في انتهاكات حقوق الإنسان، وكتبت عنها الصحافة الأجنبية. أما وسائل الإعلام الأمريكية، فلم تتحدث عنها أبداً، لأنها شاركت عملياً في الحرب النفسية حسب الدور الذي رسم لها.

وأكدت لجنة المحامين في رسالة إلى وزير الدفاع ديك تشيني، في العشرين من نيسان، بأن قتلة **الجزويت** جرى تدريبهم من قبل القوات الخاصة الأمريكية، إلى ما قبل المجزرة بثلاثة أيام. وذهب الأب **جون كورتينا**، عميد كلية العلوم في جامعة الجزويت إلى أبعد من ذلك- إذ أكد أن الجنود الأمريكان الذين تخفوا بضعة أيام في فندق سان سلفادور، خلال الحدث الذي أثار ضجة كبرى، كانوا المدربين العسكريين الذين دبروا العملية. وقبل بضع سنوات وقعت مجازر أسوأ ارتكبتها وحدة **الأتلاكاتل**، بعد تدريب عسكري أمريكي.

بعد هذا الاستعراض لتاريخ الولايات المتحدة، منذ عمليات النهب الأولى، وعمليات إبادة السكان الأصليين- وانتهاءً بعمليات السنين الأخيرة، نجد من الضروري أن نضع كشف حساب لما اتفق على تسميته "**بالديمقراطية الأمريكية**"، لنبدد الأوهام والأكاذيب. حول طبيعة الحرية التي تمنحها أمريكا لنفسها عبر العالم كله، وكأنها الضامن لها أو الكفيل.

في البداية، ولننطلق من داخل البلاد نفسها- نجد أن ما يطبع الولايات المتحدة ه عدم المساواة المتزايد في توزيع الثروة، وينتج عن ذلك، عدم المساواة في ممارسة السلطة.

في عام ١٩٠٠ امتلك ٨/١ من العائلات الأمريكية ١٧% من الثروة الوطنية. وكان **جيمس تروسلو آدامز**، قد تحدث منذ بداية القرن العشرين، وتحت عنوان "عصر الديناصورات" عن السيطرة الوحشية للمجموعات المصرفية والصناعية الضخمة، واصفاً إياها بالعناكب الهائلة التي ظهرت في فيلم حديث، مشكّلةً نوعاً من الرمز المرعب للعالم الذي تطّور منذ تلك العصور.

ولكن اللامساواة لم تتوقف عن النمو: فحسب تقارير البنك الدولي، انخفضت حصة البلدان الفقيرة، والبلدان الأكثر فقراً من ثروات العالم من ٢٣% إلى ١٨% فقط، وذلك بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٨. كما سلط البنك الأضواء، عام ١٩٨٩أن انتقال الثروات من البلدان الآخذة في النمو إلى البلدان الصناعية قد بلغ مستوى جديداً، فتسديد القروض قد تجاوز ٤٢,٩ مليار دولار، بزيادة ٣ مليار دولار بالمقارنة مع عام ١٩٨٨ أما حصة البلدان الغنية من رؤوس الأموال فقد انخفضت إلى أدنى مستوى خلال السنوات العشر الماضية.

أبرز الصحفي **ديريك جاكسون** في صحيفة "**بوستون غلوب**" هذه الحقائق، ولفت الانتباه إلى أن **اليونيسيف** وضعت سويسرا في المرتبة الأولى لدخل الفرد،

قبل الولايات المتحدة التي جاء ترتيبها الثاني. ولكن الولايات المتحدة جاء ترتيبها في نسبة وفيات الأطفال في المرتبة الثانية والعشرين، بعد إيرلندا واسبانيا بينما كانت في المرتبة العاشرة عام ١٩٦٠. أما ما يتعلق بالأفارقة الأمريكان فقد تضاعفت نسبة الوفيات عملياً بالنسبة للمعدل الوطني. وفي بوسطن وفي حي روكسبري، المزدحم بالضرورة بالأقليات الأثنية، وصلت النسبة إلى ثلاثة أضعاف المعدل الوطني، وبذلك يصبح هذا الحي الذي ينتسب إلى الأمة الأغنى في العالم بعد سويسرا، في المرتبة ٤٢ فيما يتعلق بوفيات الأطفال.

وأشارت دراسة أعدت عقب أحد المؤتمرات ونشرت في مارس ١٩٨٩، إلى أن عائدات دولة ترتيبها الخامس بين الدول الأكثر حرماناً تناقصت ٦% ما بين عامي ١٩٧٩-١٩٨٧ وأما الدولة الأكثر غنى والتي يأتي ترتيبها الخامس بين الدول الغنية، فقد ازداد دخلها بنسبة ١١%. وتأخذ هذه الإحصائيات نسبة التضخم، وتتضمن المبالغ المرصودة للمساعدات الاجتماعية. أما العائدات الفردية في الدولة التي تحتل المرتبة الخامسة بين الدول الأكثر حرماناً فقد انخفضت ٩,٨% بينما ارتفعت هذه العائدات في الدولة التي تحتل المرتبة الخامسة بين الدول الأغنى، إلى ١٥ % .

ويعترف نفس التقرير بهذا "التمييز العنصري" الاقتصادي بقوله: إن الهوة التي تفصل الأمريكان الأغنياء عن الفقراء، اتسعت خلال عقد الثمانينات إلى درجة أن المليونين ونصف من الأغنياء سيتلقون وحدهم عام ١٩٩٠، نفس حجم الدخول التي يتلقاها مئة مليون من الفقراء الذين يقعون في أسفل السلم.

وفي عام ١٩٩٦، أشار السيد **جيمس جوستاف سبيث** "برنامج الأمم المتحدة للتنمية" في مقابلة مع جريدة **الموند**، إلى أن الفاصل بين البلدان الغنية والعالم الثالث يستمر في الاتساع. واستنكر **سبيث** اسطورتين: الأولى وتتحدث عن أن العالم

الثالث سيستفيد من النمو المتواصل، والثانية التي تتحدث عن القطاع الخاص كحل معجز لمشاكل التنمية.

أوضح السيد **سبيث**: هناك اسطورة أولى يجب التغلب عليها، تتعلـــق بالعـــالم النامي، وهي الزعم بأنه سينتقل من حسن إلي أحسن بفضل عولمة الاقتصاد في ظل قيادة الدول الخمس العملاقة. والحقيقة أن دخل الفرد الواحد في أكثر من مئة دولة هو اليوم أقل مما كان عليه قبل خمس سنوات. وبشكل أوضح فـــإن ١,٦ مليـــار إنسان يعيشون اليوم في مستوى أسوأ مما كانوا عليه في بداية الثمانينات. وخـــلال جيل ونصف اتسعت الـــهوة بين الدول الأكثر فقراً. ففي بداية الستينات كـــانت نسبة الفارق (١ إلى ٣٠) بين الدول الأكثر فقراً التي تشكل ٢٠% مـــن العـــالم، والدول الأكثر غنىً التي تشكل ٢٠% منه. أما اليوم فإن الفارق هـــو واحـــد إلى ستين، على الرغم من أن الثروة العالمية قد ارتفعت بشكل عام. ويقـــــع العـــالم الثالث ضحية اسطورة مؤذية أخرى وهي الاعتقاد بأن القطاع الخاص يتضمـــــن الترياق لكل العالم. وفيما عدا عولمة التبادل، لا ينتظر من الاستثمارات الخاصـــة أن تقود بشكل طبيعي إلى خلق "عالم متساوٍ". وليس هناك من صلة بين احتياجـــات بلدٍ ما والاستثمارات الأجنبية المباشرة داخل هذا البلد. وكلمـــات الخصخصـــة، وتحرير الاقتصاد، والتحلل من القوانين واللوائح ، وهي الكلمات السائدة في عـــالم الليبرالية في نـــهاية هذا القرن، هي التي ستسهل عمليات النمو، ولكنه نمو يصاحبه فقر كبير وعدم مساواة تزداد عمقاً، ومعدلات بطالة في حالة ارتفاع دائم.

وفي الجامعات، ذات المستوى الأرقى، يسود قانون السوق، ففيـــــها يكلـــف الطالب أسرته ما بين ١٠٠–١٥٠ ألف فرنك في السنة للحصول علـــى شـــهادة دراسية واحدة. أما ما يخص تعليم عامة الشعب، "فنظام التعليم الأمريكي يســـقط شظايا" كما ورد في التقرير الذي أعده اختصاصيون من جامعة كولومبيا (**مجلـــة الاقتصاد العالمي ١٩٩٠**). واعترف ٤٠% من الفتيان الأمريكان الذيـــن أمّـــوا المدارس مثلا أنـــهم لا يعرفون القراءة بشكل صحيح. إن ٢٣ مليون من اليـــافعين هم أميّون.

وفي موضوع الصحة، تعدّ الولايات المتحدة، فيما يتعلق بالعيادات والمستشفيات، ومراكز الأبحاث من أفضل الدول في العالم. لكن نظامها الصحي يوحي بالكارثة. فهي تعتبر في المرتبة الثانية والعشرين بين دول العالم في معدل وفيات الأطفال. أما حصة نفقات الصحة العامة، فهي أدنى نسبة بين كل بلدان الديمقراطيات الغربية.

ويؤدي عدم المساواة إلى الغش والفساد. وتقدر الأجهزة المالية الأمريكية أن ٢٠% من الضرائب الفيدرالية لم تسدد وقد بلغت عام ١٩٨٩ مئة مليار دولار. أما "**الغرغرينا**" فهي تنشط في قلب النظام نفسه فخلال عشر سنوات تمتد بين عامي ١٩٨٠-١٩٩٠ بلغ عدد القضاة الذين أدينوا بالتلاعب بالأموال العامة والفساد أعلى من عددهم في المئة وتسعين عاماً السابقة من تاريخ الولايات المتحدة.

ولأن مقاييس اختيار الشخص الأفضل، هي دائماً لصالح الأغنياء، فإنها تقود في النهاية إلى إعطائهم السلطة. وقد أكد **جون جاي** رئيس المؤتمر القاري والرئيس الأول للمحكمة العليا في الولايات المتحدة أن: "البلاد يجب أن تعطى لمن يملكها". لقد وضع النظام السياسي، شأنه في ذلك شأن النظام الاجتماعي، في خدمة مصالح الطبقة التي تحتكر الملكية.

أما السياسة التي يفترض أنها تنظم الدولة فقد دخلت في دوامة السوق، فكل وظيفة لها ثمنها. فقد احتاجت الحملة الإنتخابية لانتخاب أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب عام ١٩٨٨،إلى ميزانية دعائية بلغت٥٠ مليون دولار، وهو ما يزيد عشر مرات عما انفق في انتخابات ١٩٧١.

مثل هذه التناقضات بين الطبقة المتميزة المتجبّرة، وبين الطبقة المستعبدة، تولد عنفاً شاملاً لا ضابط له، مع انفجارات فردية في الأطراف، تعبّر عنها أمثلة كثيرة.

ففي نيويورك وحسب إحصاءات الشرطة، تقع في المتوسط عملية قتل كل أربع ساعات، وتقع عملية اغتصاب كل ثلاث ساعات. وهناك محاولة اعتداء كل ثلاثين ثانية. ومع ذلك فنيويورك تقع في المرتبة العاشرة بين المدن الأمريكية في معدل الجريمة. وفي عام ١٩٨٩ تم إحصاء ٢١ ألف عملية قتل في الولايات المتحدة، وضمت سجونها أكثر من مليون سجين، وثلاثة ملايين تحت المراقبة القضائية.

هذه هي تبعات اقتصاد السوق الوحشي، حيث تسيطر، كما كتب **هوبز**، عند فجر الرأسمالية، حالة "حرب يشنها الجميع ضد الجميع". إن منطق سوق بلا قيود، مع ما يحمله من تضارب في المصالح بين الأفراد والجماعات الذين لا يرون إلاّ مصالحهم الخاصة، هو في الحقيقة منطق الحرب.

إن الأزمة البنيوية في العالم الثالث هي، بشكل خاص عميقة في أمريكا اللاتينية. والتورط الكثيف للولايات المتحدة في أمريكا الوسطى منذ عام ١٩٧٩، إنما كان نتيجة استراتيجية تنمية مبنية على زراعة موجهة للتصدير. وأدت هذه الاستراتيجية إلى هجرة المجتمع الريفي، وإلى تبدلات عميقة في علاقة الفلاحين بالأرض، محطمة المجتمع التقليدي دون أن يحل محله تنظيم اجتماعي ثابت وقابل للاستمرار. ويعكس تحويل أمريكا اللاتينية إلى مجتمع مديني (في عام ١٩٦٠ كان يعيش ٤٩% من السكان في المدن، وارتفع الرقم عام ١٩٨٩ ليصبح ٧٠ %) بؤس التنمية الزراعية، ويفسر انتقال الفلاحين إلى المدن المزدحمة مشكلين سكاناً هامشيين. ونرى الحالة نفسها في العالم الثالث كله. ولم يتوقف عدم الاستقرار عن الاتساع منذ أعوام السبعينات التي اتصفت بالمديونية، وانخفاض مستويات تبادل السلع غير المرتبطة بالطاقة "تقرير البنك الأمريكي للتنمية".

في عام ١٩٨٨، دفعت دول العالم الثالث، المثقلة بالديون خمسين مليار دولار كفوائد، ومبالغ سداد. ويفوق هذا المبلغ قيمة القروض التي تسلمتها هذه الدول.

فهل يستطيع أحد بعد هذه الجرائم وأعمال القرصنة أن يتهم أولئك الذين يرفضون هذه الجرائم، بمعاداة أمريكا لمجرد معاداتها؟

نعم، بشرط الاعتراف أن معاداة أمريكا تبدأ برفض الخضوع لها.

والسياسة الأمريكية هذه، سياسة عامة يتبناها كل من الحزبين اللذين يتبادلان الحكم. والحقيقة أن الولايات المتحدة تقدم الصورة الأكثر وضوحاً لحكم الحزب الواحد. إنه حزب "الأعمال" بشقيه الذين يدعيان من خلال التلاعب بالمعاني: الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري.

يلعب الحزبان لعبة الحمار والفيل، ولا يملك أي منهما مشاريع انسانية، أو بالأحرى لا يملكان أي مشروع ما عدا مشروع تحقيق زيادة الاستهلاك والانتاج في بلدهم فقط، على حساب الجميع دون مواربة.

لقد بدأ تدمير العالم، في سبيل تأمين احتياجات الاقتصاد الأمريكي، بشكل طبيعي من أمريكا اللاتينية. وعلى كل أمة اليوم، وفي العالم كله، أن تعرف فيما إذا كانت ستصبح **بورتوريكو** جديدة، دون أي مشروع إنساني، إلاّ مشروع الولايات المتحدة والاستسلام لها، والخضوع لإرادتها.

ويظهر ذلك واضحاً من عملية التفكيك الاقتصادي والسياسي والثقافي، وحتى في أوروبا نفسها، حيث يطلب من إنكلترا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا ودول أخرى، وهي دول موقعة على **معاهدة مايستريخ** أن تصبح الركيزة الأوروبية لحلف الأطلسي إلى المدى الذي زودت فيه هذه الدول أمريكا بقوات مساندة لتدخلها العسكري: من العراق، إلى الصومال.

كل شيء في خدمة **الغات** (المنظمة العالمية للتجارة) والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، هذه المؤسسات التي تفرض على العالم الثالث التبعية السياسية وترهقه

مقابل ديونه. ولكن هذه المؤسسات، تقبل دون أدنى اعتراض الإملاءات التي تفرضها الدولة الأكثر مديونية في العالم، أي الولايات المتحدة.

فإلى متى سيقبل العالم هيمنة بلد تبلغ نسبة الجريمة فيه أعلى مستوى، والذي تقرر فيه المحكمة العليا (حزيران ١٩٨٩) جواز الحكم بالإعدام على الأطفال دون السادسة عشرة من العمر، وتنفيذ هذه الأحكام. ويطبق هذا القانون في ٢٤ ولاية، نفذ فيها منذ عام ١٩٧٢ أحكام الإعدام بـ ١٨٢ شخصاً بواسطة الكرسي الكهربائي أو الشنق أو غرف الغاز. وينتظر ٢٥٠٠ محكوم بالإعدام في زنزاناتهم تنفيذ الأحكام فيهم.

وما هو أسوأ من ذلك، في عصر تلعب فيه التقنية الإعلامية "وخاصة التلفزيون، والإلكترونيات والإعلام السريع" دوراً حاسماً في تكوين الرأي العام، وتصدير الثقافة الجاهزة التي تغزو العالم كله، مدمرة ثقافاته الخاصة، ومسلسلات دالاس والديناصورات، والمدمر، ويوم الاستقلال وصرعة مادونا، ورسوم روشنبرغ وكونينج، وأفلام الكرتون الأمريكية ومنافستها اليابانية التي لم يعد أبطالها "البلانش نيج" وإنما بوبي ودونالد و"الأحجار المتدحرجة" التي تغرق فينسيا بأطنان من الأحجار وبأقذار الشوارع، والزعيق، والرعاع، والدهماء، وموسيقى الروك بشدة ١٢٠ سيبل، ليفجر كل ذلك، وبلا حياء، شاشات التلفزيون والسينما والمدارس، ولتجعل شبابنا ينسون أعمال رابليه وسرفانتس وشكسبير.

أصبحت مطاعم ماكدونالد والكوكاكولا والنوادي الليلية وديزني لاند رموز اللامعنى، والنمطية في عالم كان قد أبدع الرمايانا ومسرح الند "دراما غنائية يابانية" وأصالة الرقص الإفريقي، أو الرقص الأمريكي الأصيل، وملحمة جلجامش وأشعار رامبو.

هل ستعني "الحداثة" النسيان والاحتقار والجهل والضلالة لحساب الأمية الثقافية، والثقافة الإخبارية والممكننة؟

وهل سيجعلنا كهان وحدانية السوق ووثنية المال نقبل أن يتحول "الأطفال الذهبيون" الذين سرعان ما يبهت لونهم في أمريكا إلى حراس انحطاط ؟

هذه الحالة من الروح لم تتشكل فقط من واقع أن هذا الكوكب واسع وغني، ولا من حقيقة أن أنهاراً من الذهب جرت إلى أمريكا عبر الأطلسي بفعل الحربين الأوروبيتين، بل لأن ذلك كله قد أوحى للطبقة الحاكمة الأمريكية بفكرة الفردية بلا حدود "كما كانت بلادها ذات يوم بلا حدود"، وكذلك من حقيقة أن الولايات المتحدة تعيش فوق مستوى طاقتها بفعل استغلال العالم كله كما جرى في الماضي، إذ لم يكفها آنذاك ذبح الهنود وطردهم. ويُتَرْجم هذا الواقع نفسه بحقيقة أن الولايات المتحدة، البلد الأغنى في العالم، هو البلد الأكثر مديونية، إذ يبلغ دينها العام ٣٠٠٠ مليار دولار، كما أنها مدينة بمبلغ مماثل من الديون الخاصة، أي ثلاثة أضعاف ديون العالم الثالث كله.

وليس أقل دلالة على انحطاط الروح، من التقليد الذي يرجع إلى أيام مطاردة الهنود، وهو امتلاك الأسلحة الفردية الخاصة، وحتى الأوتوماتيكية منها، والتي يبلغ عددها، عدد سكان الولايات المتحدة.

وهذه الحالة نفسها نجدها لدى الشباب: وحشية العلاقات الإنسانية التي تظهر من خلال عدد الشباب الذين يقتتلون فيما بينهم مستخدمين الأسلحة النارية. وقد تحدث التقرير الأخير "لصندوق الدفاع عن الأطفال"، وهو منظمة رئيسية لحماية الطفولة في الولايات المتحدة، عن تصاعد الخط البياني لوفيات الأطفال بسبب استخدام الأسلحة النارية. وذكر أن هذا الخط يرتفع باستمرار لدى الأطفال والمراهقين. وقد قتل بين عامي ١٩٧٩-١٩٩١ خمسون ألف أمريكي تقل

أعمارهم عن ١٩ سنة (٩٠٠٠ منهم أقل من ١٤ سنة) بالرصاص والحوادث والجرائم المختلفة. وارتفع خلال نفس الفترة معدل المعتقلين المتهمين بالقتل أو محاولة الانتحار، من الذين تقل أعمارهم عن ١٩ عاماً، ليصبح ٩٣% وهم في غالبيتهم من الشباب الذين قتلوا أو جرحوا شباناً آخرين مثلهم.

وتشير الإحصائيات أن القتل يأتي في المرتبة الثالثة، في أسباب موت المراهقين بعد الحوادث (التي لا يستخدم فيها السلاح) والسرطان.

ويقسم "تمييز اقتصادي" حقيقي أمريكا إلى قسمين. ففي هذه البلاد التي لا يأكل فيها طفل من أصل كل ثمانية حتى حدّ الشبع، يستمر ارتفاع معدل وفيات الأطفال، في الأحياء الأشد فقراً، متجاوزاً معدلات بلدان في العالم الثالث مثل سيريلنكا وتشيلي وجامايكا وباناما.

وفي ظلال الكابيتول، نواجه أحياءً تقضمها كل أشكال الشرور المدينية: العنف، والجنوح، وآباء في سن المراهقة، والبؤس، وتدني مستوى المؤسسات التعليمية. الجميع فريسة الخمر ومختلف أنواع المخدرات القوية. وتملك واشنطن بالتأكيد أكبر ميزانية للمساعدة الصحية بين البلدان الأخرى، إلا أن النظام الصحي يدلنا أن الولادات المبكرة متكررة بشكل خاص، بما فيها الإجهاض بعد بداية الشهر الأول من الحمل، وهو موعد بدء المساعدة الاجتماعية التي تقدمها الدولة. وبعد الخمسة عشر يوماً التالية، يواجه المرء نموذجاً آخر من المشاكل، إذ ليس هناك ما يكفي من النقود وبالتالي، فليس هناك ما يؤكل. وقد جرى اقتحام القبو الذي يستخدم كقيادة عامة لـ "مشروع الأطفال الأصحاء" (مجلة "التضامن الجديد" ١٢ اكتوبر ١٩٩٤).

ومارس العنف المستوطن في هذه البلاد تخريبه، حتى لأوقات الفراغ عند الشباب.

في عام ١٩٧٢، أسس الدكتور **ريلمان** مع أصدقاء له في منظمة عيادات آشبيري المجانية، مؤسسة باسم **"الروك ميد"**، أي طب الروك، وهي مؤسسة طبية أعطت لنفسها واجب العناية الميدانية، بالجرحى الذين يصابون أثناء حفلات الروك. وكتب الدكتور **ريلمان**، وهو طبيب من كاليفورنيا الوصف التالي لنشاطه: "جعل فريق لارسن، مدرجات ستاد ملعب كرة السلة في الجامعة الحكومية تهتز، كانت أصوات أوتار الغيتارات تهدر كأنها ضربات تخبط الأرض التي غطاها موج هادر من الشباب، ينضح منهم العرق، ويرمي بعضهم نفسه فوق البعض الأخر". وفي إحدى الغرف الخلفية كان الدكتور **ريلمان**، وقد ارتدى قفازيه الطبيين، يصنف الحوادث: "هذا هو شاب في الحادية والعشرين، عاري الجذع، وقد ظهرت آثار حديثة لعضات متعددة في الجمجمة. كانت ذراعه مكشوفه وعظم يده اليسرى مكسوراً. وهذا شاب آخر، منتصب القامة ويرتدي القميص الخاص بالإصلاحية الفدرالية، وقد أصيبت عينه اليسرى بجرح دامٍ".

ويقدم الدكتور **داف**، نفسه لزبائنه الجدد على أنه طبيب روك، واختصاصي بإسعاف الذين يتلقون ضربات مؤذية، أو تشويهات أثناء حفلات الروك التي تجرى كل مساء. أما الأنوف المكسورة والكدمات، وإصابات الالتواء والخلع، فهي مشاهد عادية في هذه الأمسيات. وأما الجروح، والكسور الخطيرة، فليست نادرة.

وفي أوروبا، لا يسبب هذا النوع من الموسيقى عموماً، هذا الطوفان من العنف. ومع ذلك، فعندما أقيمت الحفلة الأولى لموسيقى الروك في ودستوك، وعند إقامة العرض الأخير **لفرقة بينك فلويد** في ساحة **سانت مارك** في فينيسيا، تحول المشهد صباح اليوم التالي، إلى مشهد مدينة قصفت بحاويات القمامة.

لن ننسى للحظة واحدة "أمريكا الأخرى"، أمريكا **امرسون وثورو، وجون براون، ولينكولن**، أمريكا التي ثارت ضد الرق. ولكن "أمريكا الأخرى" هذه لم

تستطع أن تفرض رؤيتها. **فثورو** انسحب من هذا العالم بعد أن كتب "والدن أو الحياة في الغابة"، انسحب كي يستمد من الطبيعة اتصالاً مباشراً مع الله كما قال صديقه **إمرسون**. ولن ننسى انه عاد إلى المدينة، ليكتب هناك كتابه "العصيان المدني"، الذي قال عنه **غاندي** انه استوحاه. لقد تحول كل هؤلاء إلى هامشيين أو ثوار: **ثورو** التجأ في البداية إلى أعماق الغابة، وعندما عاد إلى المدينة رفض أن يدفع الضريبة المتوجبة عليه، لأنه "فقد وطنه". أما **إيمرسون** فقد استمد حكمته من **الباجاتادجيتا**، على نهر **الغانج**، وليس من نهر **الباتوماك** الذي يخترق واشنطن. أما **لينكولن** فقد اغتيل من قبل "المؤسسة أو النظام".

ولن ننسى السلالة السوداء العظيمة التي أبرزت لنا وجوها رائعة بدئاً من **دوبوا** إلى **مارتن لوثر كينج**، هذا الوجه الجميل الكامن في أعماق أمريكا والذي تألق، ابتداء من القرن العشرين مع انبعاث حي **هارلم**. لن ننسى الشهود الكبار من السينمائيين مثل **فورد** الذي أخرج **"عناقيد الغضب"**. ولا ذاك الذي تجرأ أن يفكك آليات مؤامرة اغتيال **كينيدي**، ولا المخرج الذي أعاد تركيب مذبحة **"الونددني"** التي سحق فيها الجيش الأمريكي مقاومة قبائل **"سيو"**.

لكن ما يبرز اليوم ليطغى على جزر المقاومة البطولية هذه، هو أفلام العنف والرعب، بعدما حولت أفلام "الغرب الأمريكي" مئة عام من الإبادة العنصرية إلى ملحمة بطولية.

ولن نستطيع أن نقول شيئاً عن فلسفة الولايات المتحدة، حيث خنق النظام صرخة الرجال، بالوضعية والبراجماتية، منحياً جانباً مشكلة الإيمان، وغايات الحياة.

ولن ننسى إنجاز الراقصين الأمريكيين، انطلاقاً من **تيدشون وروث سانت دينيس**، إلى **مارتا غراهام**، الذين جددوا هذا الفن وجعلوه يقول ما قاله **شكسبير**،

كلٌّ في لغته. لكن **هوليود** فضلت أن تروج **لفرد استر، وجنجر روجوز**، لتمحو آثار هؤلاء العباقرة.

لنتذكر أخيراً أولئك الكتاب "الملعونين"، بدءاً من **إدغار ألن بو**، الذي وجد نفسه مضطراً للهروب من عالم لا يحتمل العيش فيه إلى "فراديس مصطنعة"، وإلى أشعار مضيئة كالجواهر السوداء في ليل بهيم، أو أولئك الذين عكسوا بمهارة صدى العالم "الحقيقي" مع روايات **توماس وولف**، أو من خلال زعزعة أسس حياة تحولت إلى مصيدة من "الضجة والغضب"، بحروبها وتمييزها العنصري كما صورها **وليم فولكنر**.

لن ننسى أبداً شيئاً مما حمله وانتزعه منا هذا الزحف الحاشد نحو الذهب الذي نشر الخراب والدمار في أرجاء الأرض وحنايا الإنسان.

إن شعباً بلا ماضٍ، لا يستطيع أن يعطي إلا فناً بلا جذور. وحدها المجتمعات المتجذرة تستطيع أن تعطي فناً حقيقياً. فخارج الفن الهندي الأمريكي، الذي تحولت أعماله الخلاقة المبدعة إلى سبائك ذهب، إذ أذابها الغزاة الذين لا يقدرون من هذه الروائع إلا وزن الذهب الذي تحويه. إنه فن **المايا، والأنكا والازتك**، أو ذلك الفن الأقدم الذي ترك لحسن الحظ شواهد من الفن المعماري الحجري، والتماثيل، نقول خارج هذا الفن، نجد أن الإبداعات الأمريكية الوحيدة هي تلك التي حملت طابع الثقافات الأصلية:

ازدهار فن "**البلو**" ثم الجاز عن طريق زنوج **لويزيانا**. وازدهار "**هارلم**" في بداية القرن الحالي بشعرائه، تلك المجموعة الأكثر حداثة من الفنانين الإيطاليين الذين تجمعوا حول **فولينجتي**، في سان فرانسيسكو.

خارج هذه المحاولات البطولية، التي يمكن أن نورد منها أمثلة متعددة أخـــرى، أرادت القوة الاقتصادية الأمريكية المتطلعة لتحقيق تفوق ثقافي يعطيها هالة وتبريراً، أن "تتفرد" بالنسبة لأوروبا، عن طريق الرفض والقطيعة.

وهي قطيعة أعطت عنها أوروبا في الماضي مثالاً، عندما أفلست قيمها الخاصـة. فقد نشأت حركات التجديد الأوروبي الكبرى في الثقافة الأوروبية، نشأت دومـــاً من التكامل مع الماضي والتفوق عليه.

وليس هناك "انفصال" يمكن أن يتحـــول إلى تجديد حقيقي دون تمثل المـــاضي. أما الذين يحاولون، عبر عمليات الابتزاز والإرهاب الفكري أن يجعلوننـــا نقبـــل، وعلى الأقل، عن طريق التجار والطبقة المترفة، أسوأ الضلال الذي يزعمـــون انــه "الحداثة"، عليهم أن يتذكروا مصير رفض البورجوازية وسخريتها في القرن المـاضي من تجديد الإنطباعيين وأن لا ينسوا أن كل محاولات التجديد الكبرى، قد عرفـــت في البداية نفس الحكم: البؤس. في هذا البؤس نفسه سقط **رامبرانت** بعد أن امتنـــع عن مداهنة **الفلاماند** الأغنياء، وغرق **إل غريكو**، قرناً كاملاً في لجة النسيان لأنـــه رفض أن يأخذ مكانه بين الرسامين المتملقين لنبلاء إسبانيا، وكان قد أنجز معظـــم أعماله في معتزله في **توليدو**. أما **مونيه**، فقد وقف في وجهـــه نقاد المؤسسة الذيـن دقوا ناقوس الخطر، وقد أذاقوا الفنان المجدد الأمرّين. هذا هو **جول كلارتي** يتحدث في كتابه "**الفنان**"، عن هذا الطراز الوضيع الذي لا أعرف من أين التقط. أما ابنـــة **تيوفيل غوتييه** فتحدثت في كتابـــها "**الاستراحة**" عن هذا الغوريلا الأنثى، وتبعها **ادموند آبو** في كتابه "**يوميات صغيرة**" صائحاً: رحمة الله على السيد **مانيه**.. فقـــد لقيت لوحاته ما تستحق من السخرية.

لقد نسوا أيضاً نسخ لوحة "**فينوس دوربين**" **لتيتيان** التي نسخها **مانيـــه** عـــام ١٨٥٦، والتي علقت في **قصر الأوفيس** في **فلورنسا**، قبل أن يحول عـــام ١٩٦٣

الربّة إلى مومس بلغة جديدة من الأولمب الخاص به، مما أثار غضب الإمبراطورة أو جيني.

لقد نسوا **فان غوخ**، وما أداه لأساتذة **الفلاماند**، عندما رسم لوحة "**آكلوا البطاطا**"، ناقلاً الرسم من السماء إلى الأرض، ومكتشفاً بعد ذلك- في **باريس**- اللون القادر أن يتحدث عن الألم، تحف به ألوان الشمس.

أما المجدد الأكبر بين التكعيبين الذي نسي اسمه بسبب حياته القصيرة بالنسبة لمعاصريه الذين عاشوا بعده، مثل **براك** و**بيكاسو**، ونعني به **جوان جري**، الرائد الحقيقي للمدرسة التكعيبية التي أثرت في كل ما تلاها من مدارس فنية. فقد قال: تستند قيمة الفنان إلى كمية الماضي الذي يحمله بين جناحيه.

لقد رسم **ماتيس** تحت تأثير **الجوس**، أما **بيكاسو** فقد كان بسهولة **بوسان** جديد. أما **رنوار** فقد درس جيداً لوحة "**الفطور على العشب**"، قبل أن يرسمها معارضاً بها لوحة "**احتفال الحقل**"، **لجيورجياني**، مسجلاً ولادة الرسم الجديد.

وقبل أن يصبح **ماتيس**، و**ماركيه**، مكتشفين أصيلين، تعلما مهنتهما في مرسم **جوستاف مورو** الذي لم يكن أقل حذلقة في رسومه **لفيكتور هوغو** من **بونا** في لوحاته للوزراء أو **بوجرو** في لوحاته عن لهو الحوريات. أما الرسام **بوفيه**، فقد اختصر تقييم سوق الفن بكلمات: "إن الجهالة في الرسم أمر واقع: فبقدر ما تكون جاهلاً بقدر ما تتقدم".

إذن، لا ضرورة لأن يتعلم المرء، كيف يصور، أو يرسم. المهم هو أن يدهش عبر خدعة جديدة (هكذا كانت اللوحات "الجاهزة" **لمارسيل دوشامب**). وكما يحدث لمواد التنظيف في محلات السوبر ماركت، فالمهم هو الجدّة بأي ثمن، لأن المعايير مالية بحتة، ولا دخل للجمالية فيها.

إن المعيار الوحيد هو مخالفة المألوف، الذي يستطيع أن يجذب تفاخر الزبائن المؤقت، ويحضّر استراتيجية التبذير للدخول إلى "سوق الفن"، استراتيجية عبّر عنها أحد التجار بقوله: يجب علينا أن نقدم للأمريكي- وبكل الوسائل-، فكرة شيخوخة العمل الفني. ويجب أن يتعلم جامعوا اللوحات، وضع اللوحات القديمة في حاويات القمامة، شأنها في ذلك، شأن السيارات والثلاجات القديمة، عندما يحل محلّها لوحات وسيارات وثلاجات من طراز أحدث.

لا يحدث مثل هذا الموقف، إلاّ عندما تنهار قيم الماضي، كما حدث في الحرب ١٩١٤-١٩١٨، هذه الفترة الشاذة الدامية من بين كل الحقب، والتي دفعت بالغزاة والمغزوين، ثلاثين عاماً إلى الوراء، وبذرت بذور كل الأنظمة الفاشية. ومن قبيل السخرية بالصروح التذكارية لتخليد أموات الحرب، قام **السيرياليون** بتدشين مبولة عامة في قلب باريس، وقام **مالفيتش** في الطرف الأقصى الثاني من أوروبا بعرض لوحة "مربع أبيض على أرضية بيضاء"، لكي يرمز إلى انتحار الحضارة والفن الذي يزعم انه يعبر عنها.

وعندما أعلنت الحرب كتب فلامينك، معبراً عن انهيار العالم، وأخلاقه ودينه وفنه: عندما انهيت خدمتي العسكرية، أعلنت ثورتي ضد القناعات قصيرة النظر لمجتمع خاضع لقوانين أنانية وضيقة. وقد دفعتني الحاجة للتعبير عن هذه الثورة إلى الكتابة والرسم. كانت أقل صدمة كافية لأن تفجر هذه المشاعر.

لقد فتح الرسم لي متنفساً، وحالة من الثبات، وبدونه، أي لولا هذه الموهبة، لساءت حالي. إن ما لم أستطع أن أفعله في الحياة- كأن أفجر قنبلة مثلاً مما كان سيقودني إلى حبل المشنقة- حاولت أن أحققه عن طريق الفن، فن الرسم. ورضيت حينها عن إرادتي في تدمير قناعات قد شاخت، و"أن أعصي" كي أخلق عالماً آخر. هكذا كانَ الغضب الصافي وكانت حركة "الوحشيين".

وبعد سنوات عدة، وبزعم أنه يدفع هذه المغـــامرة- حسب تعبيره-إلى أقصاها لم يحتفظ جاكسون بولــوك إلاّ بالمظهــر التقني لهذا التجديد، ولمّا لم يكن لديــه شيء يقوله عبر هذه اللغة الجديدة، فقد أكدّ أنه "يعطي الصدفـــة مكانـــاً بـــارزاً وأساسياً"، فيمكن للمرء مثلاً أن ينقط من عبوات دهان مثقوبـــة فـــوق قمـــاش مفروش على الأرض حتى ينتج لنا لوحة.

تم حصار السوق بـــهذا الإنتاج، وتحدث النقاد بزهو عن مدرسة جديدة هـــي مدرسة "**الإنطباعية التجريدية**"، وعن التقنية الجديدة في "التنقيط". وقد وصلـــت أثمان هذه السطوح الجعدة إلى أرقام غير معقولة.

وكي نعطي فكرة عن دور الفن في لعبة "الثقافة الحالية" التي خلقـــها البنـــك العالمي، والذي اجتذب كل قطاعات الحياة الاجتماعية، نورد المثال الـــذي أورده **دومسك** في كتابه "**فنالون بلا فن**" : في عام ١٩٩١، وفي صالة الفـــن العـــالمي الشهيرة "**كريستي**"، عرضت للبيع لوحة للرسام **كونينج**، الذي يعتبر مع **بولـــوك وماذرول** الممثلين الأكثر اتباعاً لهذه المدرسة "الإنطباعيـــة التجريديـــة"، بســـعر ٤٤،٨٦٨,٠٠٠ فرنك، وفي نفس الوقت عرضت اللوحات التاليـــة بالأســـعار المقابلة لها:

لوحة لرافاييل ٨,٦٨٨,٠٠٠ فرنك.

لوحة لتيتيان ٥,٧٢٥,٢٠٠ فرنك.

لوحة لإل غريكو ١٢،١٠٦،٩٢٠ فرنك.

لوحة لاتور ٤،٩٩٥،٠٠٠ فرنك.

وعرضت **لوحتان لفيرونيز، الأولى بسعر ٦،٠٥٠،٠٠٠ والثانيـــة بســـعر ٥،٤٧٦،٠٠٠ فرنك**. كما عرضت **لوحتان لبوسان الأولى بـــ ١,٥٤٠,٠٠٠**

والثانية بسعر ١،٣٢٠،٠٠٠ فرنك. كما وقعت عملية مالية أكثر وضوحاً، لتكرس "انتصار الفن الأمريكي"، (وهو عنوان كتاب **لساندلو** ١٩٩٠)، عندما نجح **روشنبرغ** مدفوعاً برغبته في إخضاع السوق الأوروبية لسوق نيويورك بالتعاون مع التاجر **ليوكاستيللي** ومن خلال خطط خاصة بمثل هذا النوع من العمليات، أن يحصل على جائزة **بينالي فينيسيا** عام ١٩٦٤.

ويستحق فن **البوب "البوب آرت"** الذي راج في حينه أن يختصر : ففي عام ١٩١٧،أرسل الرسام الفرنسي **مارسيل دوشامب** إلى جمعية "الفنانين المستقلين"، مغسلة (وفي الحقيقة مبولة)، كجواب على لا معقولية العالم . فكل شيء لا معنى له، وفي المقدمة: الفن .

وكان هذا الموقف أساس الحركة **الدادائية** عام ١٩١٩، التي تبرز خواء وبطلان المجتمع. وكرّر **دوشامب** احتجاجه بعجلة دراجة وضعت فوق تابوريه مع حمالة صحون، ومشط صدئ.

وقد أعطى رد الفعل هذا ضد لا معقولية الحرب والعالم، بالتضافر مع **روشنبرغ** ووكيله التجاري المتجول **ليوكاستيللي**، وتحلل المجتمع الأمريكي المزدهر اقتصادياً، إلى ولادة الفن "الجاهز"و"**ألبوب آرت**". أما الجدة التي استخدمت، بعد سبعين عاماً من التأخر، فلم تكن إلاّ "خدعة بهلوانية" للإعلان عن بداية حقبة، وليجعلا منها "مدرسة" و"أسلوبا".

وقد ألصق **روشنبرغ** على قطعة من القماش عصفوراً ملفوفاً بالقش بصحبة ماعز، بدعوى العودة إلى الواقعية العارية.

لم يكن هذا التصدير لتفكّك الفن، كما هو تفكك المجتمع الأمريكي، إلى أوروبا يشكل فقط جهداً رئيسياً لتحويل السينما من فن إلى صناعة، بل قدم نمطاً من الحياة، يبدأ بعنصرية "الغرب الأمريكي"، حيث نجد أن "**الهندي الطيب**"، هو

الهندي الميت، أو المتعاون مع الغزاة، وينتهي بأفلام الرعب التي تُصوّر وفق تقنية مصطنعة "للمؤثرات الخاصة"، التي تعتبر من خصائص **هوليود**، ثم أفلام العنف مع مئات الطلقات النارية في الساعة الواحدة، ليترجم ذلك كله تحلل شعب، وحضارة، وفن.

وكانت إحدى تبعات هذا الدنس الثقافي القادم من الولايات المتحدة، طليعة الانحطاط، أن رُفِع هذا التخريب الهمجي للفن إلى مستوى "الفنون الجميلة". وهكذا كان حال أعمدة **بورن** في القصر الملكي، وتغليف "الجسر التاسع" الذي نفذه **كريستو**.

ففي ١٣ أيلول ١٩٨٢، بدأ تغليف الجسر بـ ٤٣٠٠٠ متر من الكتان غير القابل للاحتراق وبـ ١١٠٠٠ متر من الحبال. إنه عمل ذهبي.. إنه أمر متميز. وكما قال الكاتب **فيركور**، "كأنك تذهب إلى أثينا كي تستمتع **بمبنى البانتيون** فتجده مغلفاً". ولن تكلف هذه المهزلة دافعي الضريبة الباريسيين إلا ١٩ مليون فرنك.

وقد خسر **كريستو**، ضيق النظرة، نقطة امام **بورين**، الذي نجح في نهب ما قيمته ٢٢ مليون فرنك من أجل معرض لأجزاء من أعمدة مخططة في ساحة الشرف في القصر الملكي.

سواء جاء هذا الأمر من اليسار أو اليمين فإنه يتابع منطق معاداة الثقافة بثبات: تشويه باريس تحت التأثير المشترك لوباءِ المنطق الأمريكي، وأرباح المضاربات في المشاريع المثقلة بالأعمال.

مارس الفن دوماً، وظيفة كبرى داخل الحضارات، وهو ملتصق بشكل حميمي بالحقيقة والواقع، ولكنه يلعب فيها دوراً محركاً، مثل دور الإيمان عندما يكون أصيلاً.

ويقدم الفن للإنسان صورته نفسه، أو صورة العالم، اللتين لا تستطيع رؤيته العادية أن تلتقطهما.

وكي لا نورد إلا مثالاً واحداً من الأمثلة الشهيرة، ونعني بذلك الأكثر"توسطاً" بين النكرات، سنكتفي بالإشارة إلى مثال **آندي فارول**، باعتباره نموذجياً. فقد استخدم في تقنيات النشر، طريقة الطبع على الخشب، مغيراً ألوان الحبر كي يضاعف لوحات **البورتريه–روبوت لمارلين مونرو**.

نحن هنا أمام نقيض الفن، لا شئ يحمل الحقيقي الذي في داخله، بل العكس، يلصق بواسطة أدنى مستوى من ميكانيكية الإعلان التكراري، حيث يكون الإنسان فيه غائباً. إنه يحمل نفس العنوان مثل **"الكوكاكولا"و "ماك دونالد"**.

وقلة من النقاد تجرأوا على قول: "إن الملك عارٍ".

عندما رعى مركز **بوبورج** (مركز **جورج بومبيدو** في باريس) **معرضاً استعادياً**، قيل إنه جذب ٨٠٠ ألف زائر، وهو رقم يقترب من الأرقام القياسية التي سجلها زوار مخازن **"برينتامب"** في فترة عيد الميلاد.

وبالمقابل، يتكلم النقد الذي يتناول فن الخواء هذا، والذي تدعوه المجلات المختصة **"بالفن المقزم"**، يتكلم عن العمل الفني أقل مما يتكلم عن أهداف الفنان، الذي يمنحونه الألقاب الأكثر فخامة: **الفورتيسيزم، الأورفيزم، جماعة كوبرا، رسم تجريدي... إلخ**، بينما كان ما عرض علينا مجموعة من أعقاب الزجاجات، أو كُبّة امتزج فيها الصوف بالخيوط وسمّوها سجادة.

لا شيء في هذا القرن يهدف إلى الإيقاظ، إنما إلى التخدير، كما يجري في حفلة موسيقية تعزف ألحانها بقوة ١٣٠ **ديسبل** (بينما تصبح الأذن فيزيولوجيا صماء انطلاقاً من سماع صوت شدته ٩٠ **ديسبل**). ودون التطرق لمسألة القيمة

الموسيقية، فإن سوناتا لشوبان تعزف بمثل قوة الصوت هذه سينتج عنها نفس الخدر في الوجدان والروح النقدية، وخاصة إذا ما أضيف إليها المؤثرات الضوئية المنسقة التي تغمر الصالة لزيادة التأثير المخدر.

وتعاني الهندسة المعمارية نفس الوضع اللاإنساني، بدلاً من أن تكون إغناءً لحياة المجتمع، الذي يعيش في عالم يرفع فيه "البونكس" عبارة "لا مستقبل"، مكتوبة على قمصانهم. ففي الشارع نفسه "شارع بوبورج" الذي تنتصب في أفقه كنيسة نوتردام، تبرز أنابيب ملونة توحي وكأن المرء يشاهد مصنعاً لمعالجة النفايات.

هذا الوسواس، وسواس التجديد من أجل التجديد، يقود في كل الأصقاع، إلى إلغاء فكرة التجديد من حضارة الإنسان.

إن حداثة البوب آرت، و"الموجة الجديدة"، و"الرواية الجديدة"، كلها زائلة، شأنها في ذلك شأن انتشارها الفوري ساعة ولادتها. ويحمل التجديد في كل هذه الميادين قاسماً مشتركاً، مع الاقتصاد المسيطر.وقد وضع أحد الخبراء مسألة التجديد هذه على الشكل التالي: إن ما هو ضروري إفراغ المسألة الفلسفية من الغائية. (ميشيل ألبرت– الرأسمالية ضد الرأسمالية).

هكذا ولد ما دعاه جيل ليبوفسكي بـ "فن الخواء".

لكن هذه الجريمة ليست جريمة الشعوب إنها جريمة المؤسسات والقادة ، فليس هناك إطلاقاً شعب سيئ، إنما هناك شعوب مخدرة.

فالشعب الألماني الذي قدم هذا العدد الهائل من المبدعين العباقرة في مجالي الثقافة والإيمان، فأغنوا حياتنا، هو نفسه الذي حُشِرَ خمسة أعوام داخل تعاويذ الموت.

تميل **الديماغوجيا**، التي تتحدث عن "الشعب المختار"، لجعل الأمريكيين ينسـون ماضيهم، من أجل متابعة استخدامهم، عن طريق "**الفاليوم**" الجمـاعي المتمثـل بالتلفزيون والسينما والصحافة، في مغامرات جديدة لمجموعة "الصناعة– العسكر"، التي تتعاظم قوتـها وغناها على حساب البؤس، وعن طريق الهيمنـة العسـكرية والاقتصادية على العالم.

إن نفاق سادة القارة يجسد استمرارا مأساوياً منـذ أن كتـب **كريسـتوف كولومبوس** إلى ملك إسبانيا: "إن الذهب هو أثمن الممتلكات طرّاً، ومن يمتلكـه يمتلك كل شئ يحتاجه في هذا العالم، وكذلك هو وسـيلة لإنقـاذ الأرواح مـن المطهر". إنـها استمرارية تمتد حتى زمن **رونالد ريغن**.

ادعى **رونالد ريغن** أن ازدهار الولايات المتحدة وقوتـها، برهـان علـى أن الأمريكيين "أمة باركها الله". وقد تجرأ رجل دين إسباني فأعتبر هذا الكلام تجديفاً، لأن غنى وقوة الولايات المتحدة، لم يأتيا من مباركة الإله، بل من استغلال العـالم، والعالم الثالث بشكل خاص، عن طريق التبادل غير المتساوي، والاستيراد القـهري للمنتجات الأمريكية، وغزو الرساميل بالمليارات، وانخفاض الأجور، ومن خـلال المكاسب الربوية "للقروض".

هذا هو ميزان خمسة قرون من الاستعمار ، وخمسين عاماً من **بريتـون دودز** ومعه "مصرفه الدولي"، وصندوق النقد الدولي، ثم منظمة التجارة العالمية. إن علامة "الصليب" ما انفكت ترسم على مقابض السـيوف ، وكأنـها وثـن مـن الذهب والموت.

هذا من ذاك، ولا ينتج إلاّ من ذلك.

الهوامش

- **توكفيل (١٨٠٥- ١٨٥٩)**، كاتب وسياسي فرنسي، درس في الولايات المتحدة نظام العقوبات فيها، وعاد إلى فرنسا بكتاب سياسي هام بعنوان "الديمقراطية الأمريكية". عمل وزيراً للخارجية الفرنسية ونشر عام ١٨٥٦ كتاباً بعنوان "النظام القديم والثورة".

- **جاء في الاصحاح الأول لسفر يوشع:**

"وكان بعد موت موسى أن الرب كلّم يشُوع بن نون خادم موسى. موسى عبدي قد مات. فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب التي أنا معطيها لكم، أي لبني إسرائيل، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم، لكم أعطيته كما كلمت موسى، من البرية، ولبنان هذا، إلى النهر الكبير، نهر الفرات، جميع أرض الحثيين، وإلى البحر الكبير. نحو مغرب الشمس يكون تخمكم... قال **يوشع**: بهذا تعلمون أن الله الحي في وسطكم، وطرداً يطرد من أمامكم الكنعانيين والحثيين والحوّيين والغرزيين والجرجاسيين والأموريين واليبوسيين".

البيوريتانية Puritantaiasm، أو الطهرية، جماعة بروتستانية نشأت في **انكلترا ونيوانجلند** في القرنين السادس عشر والسابع عشر. طالبت بتبسيط طقوس العبادة، اتصفت بالتزمت الشديد.

- **كوكلكس كلان** : اسم يطلق على منظمتين إرهابيتين في الولايات المتحدة. نشأت الأولى عام ١٨٦٦، في الجنوب الأمريكي عقب الحرب الأهلية، ونشأت الثانية في القرن العشرين متخذة لنشاطها مناطق جغرافية أوسع. هدفت المنظمة الأولى للدفاع عن سيادة الرجل الأبيض وقامت بأعمال إرهابية، بقصد إخافة السود من ممارسة حقوقهم المدنية والانتخابية، عن طريق الضرب والتعذيب وإشعال الحرائق، وأعمال الشنق بدون محاكمة، وكان من أهدافها حماية المرأة البيضاء من رجس الرجال السود. واتخذ قادة المنظمة الإرهابية أسماء خرافية مثل: الامبراطورية الخفية، ساحر الامبراطورية الأعظم، والتنين الأعظم، والجبار الأعظم.

تأسست المنظمة الثانية عام ١٩١٥ في **جورجيا الأمريكية** باسم **فرسان الكوكلكس كلان**. كانت عضويتها متاحة لكل أمريكي أبيض بروتستانتي. لقيت الأزمة تأييداً واسعاً مع الأزمة الاقتصادية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وازدادت المنظمة تزمتاً وتعصباً للرجل الأبيض. وقامت بأعمال إرهابية، فمارست الخطف والتهجير، والجلد، وإشعال الحرائق،

والتشويه الجسدي وبتر الأعضاء، والقتل. بلغ عدد أعضاء المنظمة عام ١٩٢٤ أكثر من ستة ملايين شخص.

وازدهرت المنظمة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، رغم صدور تشريعات تحد من نشاطها، وقد عمدت للإفلات من هذه التشريعات إلى اتخاذ أسماء مختلفة، وقيادات جديدة، وتاكتيكات جديدة.

– **مارتن لوثر كينج** (١٩٢٩–١٩٦٨)، قس أمريكي أسود، كان يعمل في سبيل توحيد السود في **أمريكا** واستخلاص حقوقهم. اغتيل عام ١٩٦٨، وحاز على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤.

– **سيمون بوليفار(١٧٨٣–١٨٣٠)**، أحد أبطال الحرية في **أمريكا الجنوبية**. حرّر **فنزويلا وغرانادا الجديدة** وأعلن استقلالهما عن الاتحاد الإسباني، ووحدهما مع **الاكوادور** مشكلاً "جمهورية كولومبيا الكبرى"، حاول أن ينشئ اتحاداً بين دول أمريكا اللاتينية.

– **نعوم شومسكي**: ولد عام ١٩٢٨ لغوي أمريكي، من كتبه: الإيديولوجيا والسلطة، وردع الديمقراطية.

– **بنيامين فرانكلين (١٧٠٦–١٧٩٠)**، أحد مؤسسي الاستقلال الأمريكي، وعضو بارز في الحركة الماسونية الفرنسية، له إنجازات علمية وصناعية وخاصة في ميدان الكهرباء.

– **جورج واشنطن (١٧٣٢–١٧٩٩)**، أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية. خدم في الجيش الانكليزي في حرب السبع سنوات ضد فرنسا، ثم قاد الجيوش الأمريكية ضد انكلترا.

ايروكواز: شعوب هندية كانت تسكن في جنوب شرق بحيرات إبرية، وأونتاريو، شكلت فيما بينها اتحاداً كونفيدرالياً باسم الأمم الخمسة. قاتلوا الفرنسيين حتى عام ١٧٠١.

توماس جفرسون (١٧٤٣–١٨٢٦)، الرئيس الثالث للولايات المتحدة، يعتبر الواضع الرئيسي لوثيقة إعلان الاستقلال.

– **جون كينزي آدامز (١٧٦٧–١٨٤٨)**، الرئيس السادس للولايات المتحدة (١٨٢٥–١٨٢٩).

– **جيمس مونرو (١٨١٧–١٨٢٥)**، رئيس الولايات المتحدة واضع ما اشتهر باسم مبدأ مونرو. يقضي هذا المبدأ بمنع أوروبا من التدخل في شؤون القارة الأمريكية، ومنع إسبانيا من العودة، معتبراً عودة الإسبان إلى القارة بمثابة تهديد لسلامة وأمن الولايات المتحدة.

– **حرب الأفيون (١٨٤٠–١٨٤٢)**، انفجرت بين الصين وبريطانيا، بعدما منعت الحكومة الصينية شركة الهند الشرقية من توريد الأفيون إلى الصين. وانتهت الحرب **بمعاهدة نانكين** ١٩٤٢ التي أمنّت لبريطانيا امتيازات كبيرة منها فتح خمسة موانئ **وجزيرة هونغ كونغ** أمام السفن البريطانية، والسماح بقدوم البعثات التبشيرية إلى الصين.

– **المحميات:** مساحات من الأرض ، استثنيت من الاستيطان الأبيض ، ليسكنها الهنود الأمريكيون وكانت هذه المحميات تنشأ بعد عمليات الغزو. يزود الهنود في هذه المحميات بمساكن ومساحات محدودة من الأرض لزراعتها، ويوضع سكانها تحت مراقبة الحكومة. ابتدئ بتطبيق هذا النظام منذ بداية الفترة الاستعمارية في أمريكا . واعتبرت هذه الإجراءات عام ١٧٨٦ سياسة وطنية. يدير المحميات إدارة الشؤون الهندية. وهي جزء من وزارة الداخلية . وفي عام ١٩٢٤ أصدر الكونغرس قراراً باعتبار الهنود الذين يولدون داخل الولايات المتحدة أمريكيين.

– **بيرل هاربر:** ميناء أمريكي في جزر هاواي، وقد تعرض فيه الاسطول الأمريكي في المحيط الهادي إلى غارة يابانية مفاجئة، في ٧ كانون الأول ١٩٤١. وقد أعطى تدمير الاسطول، الرئيس الأمريكي الحجة للتدخل في الحرب العالمية الثانية.

ستالينغراد: مدينة روسية اشتهرت بصمودها البطولي في وجه قوات **هتلر** (الجيش السادس)، وانتصارها بعد معارك ضارية بدءاً من عام ١٩٤٢. ويعتبر انتصار **ستالينغراد** عام ١٩٤٣ (شباط)، نقطة تحول في مجرى الحرب على الجبهة الروسية.

الحركة الفاشية الايطاليه: حركة سياسية سادت إيطاليا ما بين عامي ١٩٢٢ــ ١٩٤٣ **بقيادة موسوليني** (١٨٨٣ ــ ١٩٤٥) الذي هزمت قواته في الحرب العالمية الثانية.

غزو الحبشة (١٩٣٥ ــ ١٩٣٦)، شكل المستعمر الايطالي من الحبشه وارتيريا والصومال، ما عرف باسم أفريقيا الشرقية الايطالية. في عام ١٩٤١، دخلت القوات المشتركة الانجلو ــ فرنسية الحبشة وأعادت هيلا سيلاسي إلى السلطة.

– **المارشال بادوغليو(١٨٧١ ــ ١٩٥٦)**، حاكم ليبيا في ظل الاستعمار الايطالي (١٩٢٨)، ونائب الملك في أثيوبيا (١٩٣٨)، ورئيس الحكومة الايطالية بعد سقوط **موسوليني**. فاوض الحلفاء وعقد معهم هدنة عام ١٩٤٣.

- **الجنرال بيتان (١٨٥٦ ــ ١٩٥١)**، عسكري فرنسي ارتبط اسمه بانتصارات عديدة في الحرب العالمية الأولى. عين رئيساً للحكومة عام ١٩٤٠، وهي الحكومة المعروفة باسم حكومة فيشي. حكم عليه بالإعدام عام ١٩٤٥، واستبدل بالنفي المؤبد.

- **الأميرال دارلان** (١٨٨١ ــ ١٩٤٢)، أميرال فرنسي تعاون مع الجنرال بيتان. وخلفه في منصبه. عين في شمال أفريقيا بعد إنزال ١٩٤٢. اغتيل في الجزائر.

- **الدمورو (١٩١٦ــ ١٩٧٨)**، رئيس الحزب الديمقراطي المسيحي في ايطاليا ووزيراً للخارجية. ورئيساً للحكومة الايطالية مرتين، اغتيل عام ١٩٧٨ من قبل رجال المافيا الايطالية.

- **فرانكلين روزفلت (١٨٨٢ ــ ١٩٤٥)**، رئيس الولايات المتحدة (١٩٣٦ــ ١٩٤٤)، عمل على اشتراك الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية (١٩٤١)، وضع خطة اقتصادية جديدة لتنشيط الاقتصاد الأمريكي.

- **مؤتمر كازابلانكا:** ١٩٤٣ أو مؤتمر الدار البيضاء، عقد بين **روزفلت وتشرشل.**

- **مؤتمر يالطا** ٤-١١شباط ١٩٤٥على البحر الأسود. حضر المؤتمر كل من **تشرشل وروزفلت وستالين** لتنظيم أوروبا بعد الهزيمة الألمانية المرتقبة وحل مشاكل ما بعد الحرب، وتحديد منطقة نفوذ الإتحاد السوفيتي في أوروبا.

- **وارن هاردينج (١٨٦٥ ــ ١٩٢٣)**، سياسي أمريكي من الحزب الجمهوري، أصبح رئيساً للولايات المتحدة (١٩٢١ــ ١٩٢٣)، عرف بمناصرته لسياسة العزلة والحماية.

- **هنري ديفيد ثورو (١٨١٧-١٨٦٢)**: كاتب أمريكي تأثر بإمرسون والتراث الهندوسي والمثاليين الألمان. كتب نثراً متأثراً بشدة بلغة العامة. أشهر كتبه **"والدن أو الحياة في العناية"**.

- **جورج مارشال (١٨٨٠-١٩٥٩)**: جنرال أمريكي، أصبح وزيراً للخارجية في عهد ترومان، أعطى اسمه للخطة الأمريكية، لإعادة بناء الاقتصاد الأوروبي الغربي.

- **جيمس ترسلو آدامز (١٨٧٨-١٩٤٩)**، مؤرخ أمريكي، من أهم كتبه مسيرة الديمقراطية.

- **روشنبرغ**: رسام أمريكي ولد عام ١٩٢٥ جمع بين الانطباعية والتجريدية وفن البوب، مستخدماً النفايات والتصوير الفوتوغرافي، والتكنولوجيا.

- **كونينج** ولد عام ١٩٠٤ من أبرز رسامي المدرسة التعبيرية في أمريكا.

– **رالف إمرسون (١٨٠٣–١٨٨٢)** فيلسوف أمريكي مؤسس مذهب التعالي في أمريكا من كتبه "**ملامح الشخصية البريطانية**".

– **جون براون (١٨٠٠–١٨٥٩)**، زعيم أمريكي، أعدم شنقاً بسبب دعوته السود لحمل السلاح ضد الاضطهاد الأبيض، وإلغاء الرق.

– **باجافا دجيتا:**

– **نهر الجانج:** نهر ينبع من **جبال الهملايا** ويصب في **خليج البنغال** وفي هذا النهر المقدس يغتسل الحجاج الهنود.

– **نهر بوتوماك:** نهر يمر بواشنطن ويصب في **خليج شيزابك** ٦٤٠كم.

دوبوا (١٨٦٩–١٩٦٣)، عالم اجتماع وسياسي أمريكي، ممن حملوا لواء الدفاع عن الزنوج في الولايات المتحدة. أسس حركة التضامن مع أفريقيا.

– **موريس فلامينك (١٨٧٦–١٩٥٨)**، رسام فرنسي من رواد المدرسة الوحشية.

– **جاكسون بولوك (١٩١٢–١٩٥٦)**، رسام أمريكي يعتبر أحد زعماء المدرسة التعبيرية التجريدية.

تيتيان (١٤٨٨–١٥٧٦)، رسام إيطالي. تأثر باستاذه **جيورجيوني**. ترك أثراً كبيراً على الفن الأوروبي.

– **فيرونيز (١٥٢٨–١٥٨٥)**، رسام إيطالي من أبرز رسامي مدرسة فينيسيا. اشتهرت رسومه بالحركة وغنى الألوان المشرقة.

تيد شون (١٨٩٥–١٩٥٨)، فنان أمريكي مجدّد اهتم برقص الرجال، وأسس مع زوجته أسلوباً متميزاً في الرقص.

–**روث سانت دينيس:** راقصة أمريكية مجددة في بداية القرن العشرين كانت تؤمن بالمصادر الروحية للرقص. وقد تأثرت بالرقص الديني في الشرق. تزوجت من تيد شون .

– **مارتاغراهام:** راقصة باليه أمريكيه. إحدى رائدات الرقص الحديث في الولايات المتحدة.

– **فريد استر:** ولد عام ١٨٩٩ راقص أمريكي ، اشتهر في الخمسينات عمل في السينما والتلفزيون.

– **جننجر روجرز:** موسيقي أمريكي اشتهر في أواسط القرن بمسرحياته الكوميدية الغنائية، نقل عدد منها إلى السينما.

- **ادغار آلن يو (١٨٠٩-١٨٤٩)** ، شاعر وكاتب أمريكي يعتبر من أشهر كتاب القصة القصيرة.

- **توماس وولف (١٩٠٠-١٩٣٨)**، كاتب رواية ومؤلف للسيرة الذاتية.

- **وليم فولكنر (١٨٩٧-١٩٦٢)**، كاتب أمريكي اهتم بالتحليل النفسي والرمزية. استخدم الجنوب الأمريكي ميداناً لرواياته. حائز على جائزة نوبل.

- **رامبرانت (١٦٠٦-١٦٦٩)**، رسام هولندي يعتبر واحداً من أساتذة الفن الكبار في العالم.

- **إل جريكو (١٥٤٨-١٦١٤)**، رسام إسباني في أعماله نبرة صوفية واتقاد روحي.

- **ادوارد مانيه (١٨٣٢-١٨٨٣)** رسام فرنسي يعتبر أحد رواد المدرسة الانطباعية.

- **ثيوفيل جوتييه (١٨١١-١٨٧٢)**: شاعر وروائي فرنسي، يعتبر من أركان المدرسة البرناسية.

- **ادموند آيو About (١٨٢٨-١٨٨٥)**، عالم آثار وكاتب فرنسي له عدد من الروايات. لقي نجاحاً كبيراً في زمانه.

- **الامبراطورة أوجيني**: امبراطورية فرنسا (١٨٥٣-١٨٧٠) زوجة نابوليون الثالث.

- **فان غوخ (١٨٥٣-١٨٩٠)**، رسام هولندي يعتبر من أعظم الرسامين في كل العصور.

- **جورج براك (١٨٨٢-١٩٦٣)**، رسام فرنسي أسس مع بيكاسو المدرسة التكعيبية، اشتهر برسوم الطبيعة.

- **بابلو بيكاسو (١٨٨١-١٩٧١)**، رسام ونحات إسباني، يعتبر أغزر فناني القرن العشرين إنتاجاً وأكثرهم إبداعاً.

- **جوان غري (١٨٨٧-١٩٢٧)**، رسام إسباني عاش في باريس منذ عام ١٩٠٦، التزم المدرسة التكعيبية منذ عام ١٩١١، ويعتبر من روادها.

- **جان انجرس (١٧٨٠-١٨٦٧)**، رسام فرنسي يعتبر أحد زعماء المدرسة الكلاسيكية الفرنسية.

- **نيكولاس بوسان (١٥٩٤-١٦٦٥)**، رسام فرنسي تعكس معظم أعماله تأثير تيتيان، عني بتصوير الموضوعات الدينية والرمزية.

- **رنوار (١٨٤١-١٩١٩)**: رسام فرنسي، يعتبر أحد أبرز ممثلي المدرسة الانطباعية.

- **ماتيس (١٨٦٩-١٩٥٤)**: رسام فرنسي من المدرسة الوحشية يعتبر من ألمع رسامي في القرن العشرين تنتشر لوحاته في متاحف العالم.
- **ماركيه (١٨٧٥-١٩٤٧)** رسام فرنسي من المدرسة الوحشية.
- **مورو (١٨٢٦-١٨٩٨)**، رسام فرنسي **أستاذ ماتيس وماركيه**.
- **ليون بونا (١٨٣٣-١٩٢٢)** رسام فرنسي اشتهر بلوحات البورتريه.
- **برنارد بونيه** ولد عام ١٩٢٨ رسام فرنسي معاصر.
- **مارسيل دوشامب (١٨٨٧-١٩٦٨)** رسام فرنسي أحد مؤسسي المدرسة الدادائية والمدرسة السوريالية.
- **مالفيتش (١٨٧٨-١٩٣٥)**، رسام فرنسي أوجد شكلاً من التجريدية عرف باسم (السوبرماتزم)، بلغ أوجه في لوحته "مربع أبيض على أرضية بيضاء" (متحف الفن الحديث في نيويورك).
- **الانكا**: تصور السينما الأمريكية الهنود الأمريكيين وكأنهم مجموعات بدائية مبعثرة في أرجاء القارة بغية تبرير عمليات الإبادة. لذلك نورد فيما يلي لمحة موجزة عن إحدى الشعوب الهندية الأمريكية وهو شعب الأنكا: قبائل هندية في جنوب أمريكا، يعود تاريخها إلى ١٠٠٠ عام قبل الميلاد، حيث كانوا يقطنون البيرو، وقد أسست في أواسط الألف الثاني بعد الميلاد امبراطورية، ووصلت أوجها خلال حكم **هويانا كاباك (١٤٨٧-١٥٢٥)**. حيث وصلت إلى ما يعرف اليوم بالإكوادور وفي الجنوب التشيلي، كما امتدت من المحيط الهادئ إلى منابع الأمازون ونهر الباراغواي، وبلغ عدد سكان هذه الامبراطورية ٦-٨ مليون نسمة. غزاها الاسبان بقيادة المغامر الإسباني في **فرانسسكيو بيزارو** عام ١٥٣٢ الذي أعدم الامبراطور عام ١٥٣٣ غدراً، وعين ابنه خلفاً له.

وكانت سياسة بيزارو وخلفاؤه الاسبان قاسية جداً وتميزت بالاضطهاد.

بلغ الانكا مستوى حضارياً لم تبلغه أية أمة هندية في الأمريكيتين. كانت مملكة الأنكا دمقراطية في الحكم، اشتراكية في التنظيم الاجتماعي تعتمد على الزراعة، يحكمها الانكا نصف السماوي، تساعده الأسرة المالكة ثم الطيف الإرستقراطي، ثم الإدارات الامبراطورية ويليها صغار النبلاء، ثم الحرفيون والمزارعون، وكانت

الامبراطورية مقسمة إدارياً إلى أربعة أقاليم، وقسمت الأقاليم إلى وحدات متدرجة في الصغر، كان أصغرها الأيلو وهي تسبق العشيرة- العائلة. وكانت تربية الايولى تجري تحت رقابة رسمية صارمة، وكان خبراء الحكومة هم الذين يشرفون بدقة على اختيار الزراعات والمحاصيل، ويعلّمون المزارعين وسائل بناء المصاطب الحجرية والمدرجات الجبلية والري وتصريف المياه والتسميد. وكان القمح والبطاطا من أهم المحاصيل. وكانت الحكومة تحتفظ بجزء من المحاصيل المجففة، للتصرف بها عند الحاجة.وكانت حيوانات الحمل لديهم **اللاما والالباكاس**، كما ربوا الكلاب والبط والخنازير. وكانت صناعاتهم الرئيسية السيراميك، والنسيج، والأدوات المعدنية والأسلحة.

ولم يكن لديهم خيلاً، ولا عربات، ولم يكن لهم لغة مكتوبة، ولكن السلطات كانت قادرة أن تبقى على صلة واطلاع بكل ما يجري في أرجاء المملكة بفضل اتصالات سريعة، ربما عبر شبكة عظيمة من الطرق المرصوفة بالحجر تصل كل أجزاء المملكة. وكان هناك عداؤون ممتهنون يعملون بين محطات متتابعة، حيث كان بالإمكان أن يقطع البريد ١٥٠ كيلومتراً يومياً. وقد صنعوا قواربهم من خشب متين، فأمنوا بذلك نقلاً سريعاً. وقد أدّى كل ذلك إلى سيطرة قوية من العاصمة باتجاه لأطراف. وكانت الحكومة أحياناً تبدل أماكن سكنى العشائر لأسباب سياسية أو اقتصادية. وكانت المعطيات الاجتماعية والإحصائيات الضرورية تحفظ على ألواح "الكيبو" وهي ألواح منسوجة من الأسلاك.

ترك الانكا معابد ضخمة، وقصوراً، وحصوناً، ومرافق عامة. فقد بنوا الأبنية الحجرية الضخمة بأقل ما يمكن من الأدوات الهندسية، ومن أشهر أوابدهم معبد الشمس في كوزو. وهناك انجازات هندسية أخرى تلفت الأنظار منها بناء الجسور المعلقة القوية التي يتجاوز طول بعضها إلى مئتي متر، وكذلك القنوات والترع لأغراض السقاية.

أما ديانة الأنكا فقد صيغت بعناية. وهم يؤمنون بإله يدعونه الغيراكوشا، وتعني السيد، وهو خالق كل المخلوقات الحية. وكان إلى جانبه آلهة أخرى، كالشمس والقمر والبحر والنجوم. وكانت احتفالات الأنكا وطقوسها الدينية واسعة كما كانت تقدم للآلهة اضحيات بشرية:

وتضم حضارة الأنكا تراثاً غنياً من الفولكلور والموسيقى، اللذين لم يبق منهما الاّ القليل.

المدرسة العسكرية في نورث بيننغ: تقوم المدرسة العسكرية في نورث بيننج جيورجيا بتدريب الضباط ورجال الشرطة في بلدان أمريكا اللاتينية المتحالفة مع الولايات المتحدة. وتهدف هذه المدرسة إلى تدريب الضباط والشرطة على استخدام وسائل القمع. وقد اعترفت وزارة الدفاع الأمريكية بأن الكتب الدراسية المقررة في هذه المدرسة، مازالت حتى بين عامي ١٩٨٢ – ١٩٩١، توصي باستخدام التعذيب، والإعدامات بدون محاكمة، والشانتاج، وبشكل أكثر عمومية، استخدام كل أساليب العنف بغية الحصول على المعلومات من المعارضين وأعضاء الميليشيا السياسية، أو العاملين في صفوف حرب الغوار.

ووفقاً للسلطات العسكرية، فقد أجرى تعديل على مناهج المدرسة منذ عام ١٩٩٢ وبشكل سري. وكان على الرأي العام الأمريكي أن ينتظر حتى عام ١٩٩٦، ليعرف حقيقة المناهج وحقيقة هذه المدرسة، وذلك بعد تحقيق أجراه الكونغرس عن دور المخابرات المركزية الأمريكية في غواتيمالا.

ولقد قامت هذه المدرسة منذ تأسيسها عام ١٩٤٦، بتدريب ٦٠ ألف طالب من اثني عشر بلداً. وكان مقر المدرسة في البداية في باناما ثم نقلت عام ١٩٨٤ إلى نورث بيننج. وقد بلغت المدرسة ذروة مجدها في أعوام الستينات، حيث كانت الولايات المتحدة منغمسة بعمق في دعم الأنظمة المعادية للشيوعية في أمريكا اللاتينية، حيث واجهت مقاومة أحزاب سياسية أو ميليشيات مسلحة فجّرت حروب الغوار. وقد أصبح عدد من هؤلاء الضباط بعد أن أصبحوا جلادين مشهورين، رؤساء دول، من بينهم نورييغا الجنرال البانامي، وقد شكلوا طبقتهم الخاصة، باعتبارهم تلقوا تعليمهم في منع العصيان والقدرة على انتزاع المعلومات من المتهمين.

وتتألف الكتب التعليمية المجرمة هذه، والتي أصبحت معروفة بفضل البنتاغون والصحافة الأمريكية من سبعة كتب، مكتوبة باللغة الاسبانية.

بعض فصول هذه الكتب تحمل العناوين التالية:

معالجة مصادر المعلومات، التجسس المضاد، الإرهاب وحرب العصابات في المدن. في هذه الفصول، يجري تنبيه الطلبة المتدربين على أن التعاون مع مخبر محتمل، سوف يصبح أسهل بكثير فيما لو جرى احتجاز والديه أو أقربائه، واعتقاله، وتعذيبه، و اقتلاع الخوف من قلبه، و إغداق المكافآت عليه في سبيل القضاء على عدو، وتهديده بالسجن والإعدام، والتظاهر بتنفيذ ذلك، أو استخدام ما يسمى سيروم الحقيقة. كل هذه الإجراءات قد تؤدي إلى نفس

النتيجة. ويجب أن لا يتردد الضابط الذي يعالج هذا الأمر في تقديم الهدايا، مقابل المعلومات التي يقدمها المتعامل، والتي تقود إلى اعتقال أو أسر أو موت أعضاء حرب الغوار. الذيــــن تطلــق عليهم الحكومات دائماً اسم المجرمين (غارودي).

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الرابع

الفصل الرابع

استعمار أوروبا والعوالم الثلاثة

إيران، لبنان، الصومال، فلسطين، والبوسنة. وبالأمس باناما، جرانادا، ونيكاراغوا، وغداً إيران وليبيا وكوبا. كل ذلك يحدث بعد انهيار الاتحاد السوفييتي الذي غيّر علاقات القوى التي تأسست منذ أن سحق هتلر، فخلقت عالماً ثنائي القطبين.

هل هناك خيط يقودنا لفهم عصرنا، نعني رابطة داخلية تربط بين كل المشاكل العالمية، التي تستدعي التدخل العسكري، وتعميق دور الصندوق الدولي، والبنك الدولي، وأوروبا في ظل **مايستريخ**، واستعادة أوروبا الشرقية للنظام الرأسمالي، والأصولية الإسلامية والمسيحية واليهودية؟

وبعكس ما تفعله وسائل الإعلام، وخاصة التلفزيون، التي تخدر الرأي العام، عن طريق تقديم ألوان مختلفة من النكبات، وسلسلة من الأعمال المحضرة سلفاً "والمعدّلة" من مكان إلى آخر، من **تيمور إلى مقاديشو، ومن سيراجيفو إلى بغداد**، علينا كي نكتشف معنى ذلك أن نضعه في المسار التاريخي للقرون الخمسة الماضية، قرون الهيمنة المتنامية للغرب على العالم كله.

بعد أقل من ثلاثة قرون من غزو أمريكا ونهب ذهبها، الذي أعطى لتصنيع أوروبا اندفاعاً لا سابق له، ابتدأت المغامرة التي أصبحت اليوم القوة الأعظم في العالم : الولايات المتحدة.

ورأينا سابقاً كيف أن تاريخ الولايات المتحدة قد تميز بعمليتين أساسيتين: مذابح الهنود للاستيلاء على أرضهم، واسترقاق العبيد لتشغيلهم في المزارع والمناجم.

وتقاسمت الدول الأوروبية بقية العالم بأساليب متشابهة. امتدت حصة بريطانيا من الهند حتى أفريقيا الشرقية والشرق الأوسط، وكانت حصة فرنسا من أفريقيا إلى الهند الصينية، ومن المغرب حتى المحيط، وبلجيكا الكونغو، واستولى القياصرة على سيبيريا، واحتلت هولندا أندونيسيا.

وبعد حربين عالميتين، أعيد توزيع الأوراق من جديد، بهدف اقتسام العالم بين أولئك الذين شكلوا امبراطوريات، وأولئك الذين طمعوا فيها . وفقدت أوروبا الدامية، حيث نزف المنتصرون والمهزومون على حدٍ سواء، هيمنتها لصالح الولايات المتحدة. فقد كانت الحربان العالميتان مصدر غنى لها، وجعلاها سيدة العالم من الناحية الاقتصادية، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ومن ناحية سياسية وعسكرية منذ انهيار النظام السوفيتي عام ١٩٩٠.

وما "النظام العالمي الجديد"، الذي حلم به القادة الأمريكيون إلاّ اسم آخر لسيطرة الولايات المتحدة على العالم.

وأصبح "حق التدخل" هو الاسم الجديد للاستعمار.

أما وقد تخلصت الولايات المتحدة من ثقل الاتحاد السوفيتيّ الذي أرخص ثمنه القادة السوفيت، وأكملت عملهم "الدوليات"، فقد أصبحت الأمم المتحدة التي تشكلت من الولايات المتحدة ، ومن مدينيها وزبائنها مركزاً لتسجيل الإرادات الأمريكية لتخدمها في مسألة تغطيتها قانونياً. وأصبحت الآلة العسكرية العملاقة التي تكونت في فترة المواجهة بين الشرق والغرب، جاهزةً لتنفيذ مهمات أخرى.

و لم تعد أوروبا، قادرة أن تكون منافساً، وإنما تابعاً. وقالت **معاهدة مايستريخ** بوضوح، وفي ثلاثة مواقع من نصوصها، إنه يتطلب أن نجعل منها "الركيزة الأوروبية لحلف الأطلسي":

ففي الخطة العسكرية، ستلعب أوروبا من الآن فصاعداً دوراً مكملاً: من العراق إلى الصومال. وفي الخطة السياسية، تستسلم لنفس الأوامر : فسياسة السوق الزراعية (PAC)، ستقبل أمام احتياجات منظمة التجارة العالمية، مثلما قبلت فرنسا في وضع ١٥% من أراضيها متروكة دون زرع، بهدف فتح السوق العالمية أمام زارعي الحبوب الأمريكيين الكبار.

وفي الخطة الصناعية، نستذكر ما تحدثت عنه **جريدة الموند في** ٢٢ كانون الأول ١٩٩٢ عن "القلق من الفحم الأوروبي". ففي عام ١٩٥٥، وبعد توقيع **معاهدة** روما المنظمة لأوروبا، تم إحصاء ٢ مليون عامل يعملون في مناجم المجموعة الأوروبية، وهبط عدد هؤلاء العمّال عام توقيع **معاهدة مايستريخ** إلى ٢٥٠ ألف عامل فقط. أما عن كمية الإنتاج، فقد أنتجت الدول الإثنتا عشر قبل ثلاثين عاماً ٤٠٠ مليون طن، أما إنتاج عام ١٩٩٢ فقد بلغ ١٨٠ مليون طن فقط. وتعتبر فرنسا الضحية الأساسية لنقص الإنتاج، حيث هبط إنتاجها من ٢٨ مليون طن عام ١٩٧٣ إلى ١٢ مليون طن عام ١٩٩١. وهبط الإنتاج البريطاني ٥٠ %، والألماني ٤٠ %. كل ذلك لمصلحة المستوردين الأمريكان والدائرين في ملكهم، من كولمبيا إلى فنزويلا، وحتى إلى أندونيسيا.

وفي مجال المعلوماتية، تُرفض منظمات شركة بول التي اتفق على تزويد الطائرات العسكرية الأمريكية بها، بعد أن رفض العقد المتعلق بها بناء على توجيهات الإدارة الأمريكية. وكي تستطيع شركة آ ب.أم، وهي الشركة الأولى في العالم بين شركات المعلوماتية، أن تنافس في سوق يسيطر عليها اليابانيون، بحثت لنفسها في أوروبا عن دورٍ ثانٍ، لتحل محل المجموعة الألمانية **سيمنز** التي أقلعت عن تنفيذ هذا العقد.

وفي ميدان صناعة الطيران، تآمرت **شركة لوكهيد** مع وزراء **يلتسين** المعتمدين من صندوق التنمية الدولي، للحصول على تقنية الصاروخ **بروتون** المعد لإطلاق الأقمار الصناعية، من الاتحاد السوفييتي السابق، وتعهدوا بتحويل الأمر إلى مسألة تجارية، في محاولة ليحل محل الصاروخ الأوروبي آريان.

أما ما يتعلق بصناعة الصلب، فقد قررت الولايات المتحدة عام ١٩٩٣ أن ترفع رسوم الاستيراد من تسعة عشر بلداً، سبعة منهم أوروبيون. وهذه الحقوق الجمركية الإضافية التي فرضتها لنفسها الولايات المتحدة هدفت إلى منع العاملين الأوروبيين في ميدان الصلب من بيع الفولاذ في الولايات المتحدة. كانت الولايات المتحدة منفذاً لـ ٢ مليون طن أي ما يعادل إنتاج **اللورين** بكامله، هذا الإنتاج المهدد بالموت بسبب الإجراء الأمريكي.

وقد أعلنت جنرال **موتورز وفورد وكريزلر** إجراءاً عدوانياً مشابهاً في صناعة السيارات، وهذه الحماية الصناعية "الأمريكية أولاً" تشير إلى المدى الذي تقوم به منظمة التجارة العالمية في حماية السوق الأمريكية، وفتح أسواق العالم كله للمنتجات الأمريكية.

وفي الخطة الثقافية، استسلمت أوروبا لغزو الفيلم الأمريكي، والتلفزيون. فمن أصل ٢٥٠ ألف ساعة بث في أوروبا، تنتج مجموعة الدول الاثنتي عشرة، ٢٥ ألف ساعة فقط. أما حصة سوق السينما الفرنسية في الولايات المتحدة فلا تتجاوز ٥%،بينما حصة سوق الفيلم الأمريكي في فرنسا٦٠ %. وتصبح نسبة العائدات ١٢٠ مقابل واحد فقط، بغية اقتلاع دماغ شعب عن طريق رشقات "الماحق" أو **جيمس بوند** الذي اخترعته هوليود، وحصاد دولارات مسلسل **دالاس**.

أدخلت هذه التبعية الأوروبية، السياسية والمادية والأخلاقية، العالم في مرحلة جديدة من الاستعمار. لقد وضعت قوة الشرق وأوروبا خارج اللعبة، أو أنها

أذّلت. وأصبح الميدان حراً لظهور استعمار من نوع جديد، استعمار لا يشبه أشكال الاستعمار الأوروبي المنافس، والمقهور من الآن فصاعداً، إنما استعمار مركّز وشامل على المستوى العالمي تحت الهيمنة الأمريكية. إن ميزان قرون خمسة مضت على الاستعمار ، هو ميزان مأساوي، ففي عام ١٩٩٣، أصبح أربعة أخماس المصادر الطبيعية في كوكبنا تحت سيطرة واستهلاك خمس سكان العالم.

وتتابع اللامساواة اتساعها، "فبرنامج الأمم المتحدة للتنمية"، يؤكد أن الفارق بين بلدان الشمال الأكثر غنى، وبلدان الجنوب الأكثر فقراً قد تضاعف. وهبط الناتج القومي الإفريقي، بالنسبة للناتج العالمي من ١,٩% إلى ١,٢% .

هذا هو ما يدعوه جورج بوش "النظام العالمي الجديد"، إنه التوسع وتعزيز للعلاقات الاستعمارية بين دولة مستعمرة، أصبحت من الآن فصاعداً منفردة، وبين بقية العالم. وتعني العلاقات الاستعمارية بهذا الشكل: تبعية عسكرية وسياسية وجمركية من طرف واحد لتكون في مصلحة المسيطر فقط.

هذا هو الهدف الذي أعلنه القادة الأمريكان مراراً وتكراراً، وخاصة خلال السنوات القليلة الماضية "أي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي": إنه التأكيد على سيطرة الولايات المتحدة على العالم.

ولكن ما هي الوسائل التي استخدمت لتحقيق هذا الهدف؟

إنها وسائل متعددة: هناك أولاً الأساليب السابقة التي اختبرت في أمريكا اللاتينية منذ زمن طويل، وعلى الأخص بعد الحرب العالمية الثانية، منذ "التحالف من أجل التقدم" الذي أعلنه **كيندي**، حتى مبادرة "**بوش**" من أجل سوق متفردة من ألآسكا وحتى أرض النار.

وآلية العمل بسيطة: فهناك اتفاقيات للإستثمار، والقروض، والهبات، مع دول أمريكا اللاتينية بشكل خاص، والهدف المعلن مساعدتها في عملية "التصنيع"، أما

الهدف الحقيقي فهو السماح للشركات متعددة الجنسيات لتنمية أرباحها من خلال أعمالها في تلك البلاد، التي تتوفر فيها اليد العاملة الرخيصة، كما تقوم حكوماتها بالإنفاق على البنى التحتية. وفي نفس الوقت، تتمتع المواد الأولية القادمة من تلك البلاد بانخفاض أسعارها، جاعلة بذلك التبادل غير المتساوي يزداد اتساعاً، أكثر فأكثر.

في عام ١٩٥٤، كان يكفي الفرد البرازيلي أن يبيع ١٤ كيساً من البن لشراء سيارة جيب من الولايات المتحدة، وفي عام ١٩٦٢ أصبح عليه أن يبيع ٣٩ كيس مقابل السيارة المذكورة.

كان مواطن **جامايكا** يشتري الجرار الأمريكي، عام ١٩٦٤ بـ ٦٨٠ طناً من السكر، وصار الرقم عام ١٩٦٨، ٣٥٠٠ طن. لقد تابعت البلدان الفقيرة مساعدتها المالية للدول الغنية.

وتتجاوز فوائد القروض، القروض الأصلية ببضعة مرات. ويبلغ عائد كل دولار، دولارين أو ثلاثة تذهب إلى جيوب الدائن. وغالباً ما تساوي فوائد القروض قيمة الصادرات، محققة بذلك "التنمية الممكنة"، إذ ليس هناك، بهذا المنوال، بلد "على طريق التنمية"، كما يسمونه نفاقاً، وإنما بلاد محكوم عليها ببؤس متنامٍ، من خلال تبعية متنامية.

وتشكل "المساعدات المزعومة" لبلدان العالم الثالث، أحد العوامل الأكثر تأثيراً لفرض التبعية والتقهقر. إن "المساعدة " المعلنة والمتعددة الأشكال، ٠,٧% من إجمالي الناتج القومي للدولة المانحة. ورغم تواضع هذا الرقم، فإن نصفه هو الذي يمنح فعلاً.

ويشكل "تصنيع" بلدان العالم الثالث، ونقل التكنولوجيا، وسيلة أخرى للهيمنة وزيادة منافع الدول الغنية.

والمثال النموذجي هو مثال "المعجزة البرازيلية" في التنمية الصناعية، و"التدخل البيئي" للبلدان الغنية في غابات الأمازون.

أما الميزان فهو كما يلي: إن هذه البلاد الأغنى بمواردها الطبيعية هي الأكثر فقراً. إن تراكم الثروة لدى قطب واحد يمثل أقلية، يقابله حقيقة إن ١٣٠ مليون نسمة من أصل ١٥٠ مليون، يرتعون بالفقر، ونصف هؤلاء يعيشون في بؤس مطلق.

إن "التدخل البيئي"، وهو الاسم الجديد للنهب والسلب الاستعماريين أوضح ما يكون في غابات الأمازون. لقد دمرت مجموعة السعة، أي البلدان السبعة الأكثر تصنيعاً، والأساتذة الفعليين "للإنسانية"، وبشكل خاص شركات **جوديير، وصلب نيبور، وفولكسفاجن**، وغيرها، دمرت ملايين الهكتارات من الغابات، **وأغرقت** مئات الألوف من الهكتارات الأخرى من أجل بناء سدود هيدروليكية، **كاستثمار** منهجي للكتلة البيئية، من خلال التعامل مع الغابات، لتسمح بإنتاج ٥ مليار برميل نفط في العام "وهو ما يزيد عن إنتاج العربية السعودية".

ويوجد لدى الشركات متعددة الجنسيات أهداف أخرى، نراها من خلال استثمارهم، و"نقلهم للتكنولوجيا"، مسألة الإخلال بالتوازن البيئي في إحدى أهم "رئات" العالم: فتحت زعم "المشاريع المشتركة"، أي إشراك الاستثمارات الوطنية، تفرض هذه الشركات تقنيتها. فقد أقامت، مثلاً، سداً عملاقاً في مدينة توكوري، بعد أن محت مئات آلاف الهكتارات من الغابات، كي تزود بالطاقة الضرورية، مصانع معالجة البوكسيت، وهي عملية ملوثة للبيئة إلى حد لا يشجع على إنشاء مثل هذه الصناعة في الولايات المتحدة،وخاصة أن الحصول على الطاقة من البرازيل، بسعر ١٦١ دولار للطن الواحد من البترول، في الوقت الذي يباع فيه في أسواق أمريكيا الشمالية بـ٢٨١ دولار.

هذا هو منطق النهّابين في كل الأصقاع، ففي البرازيل تسيطر الشركات متعددة الجنسيات على ٨٥% من إنتاج الكاكاو و ٩٠% من إنتاج القهوة و ٦٠% من إنتاج السكر و٩٠% من إنتاج القطن والأخشاب.

وتسيطر الشركات الأجنبية على ٨٠% من إنتاج البوكسيت و٨٠% من الأحجار الكريمة و١٠٠% من إنتاج الكوارتز الممتاز، الضروري لصناعة الإلكترونيات.

لقد تم خلق نموذج للتنمية في كل ميادين الاقتصاد: السيارات، الإلكترونيات، البتروكيماويات...إلخ، بالتعاون مع قباطنة الصناعة المحلية، تكون فيه مراكز القيادة خارج البلاد، مشكلة بذلك تبعية اقتصادية شاملة.

هذه التبعية الاقتصادية، وهذه الصيغة المنحرفة للنمو المفروضة على شعب بأكمله، تستدعي بالضرورة تبعية سياسية مباشرة أو غير مباشرة لضمان تسديد القروض.

"تكرس البرازيل ٤٠% من عائدات التصدير لتسديد فوائد القروض. أما الأرجنتين فتدفع ٥٠% من هذه العائدات".

ولكن الخطوة الأكثر ضمانة، هي إقامة دكتاتورية عسكرية. فأمريكا تمارس سلطتها الإستعمارية أولاً عبر الشركات متعددة الجنسيات. فعندما تأكد خطر ظهور سلطة اشتراكية في التشيلي، اقترحت مذكرة لـ لمنظمة التجارة العالمية استخدام الضغوط الاقتصادية لإسقاط النظام فيها.

ولا يستبعد هذا الأسلوب التدخل العسكري المباشر للجيش الأمريكي، كما حدث في **غواتيمالا** عام ١٩٥٤ من أجل إنقاذ مصالح شركة الفواكه المتحدة، وفي كوبا عندما نظم **كينيدي** عام ١٩٦١ إنزال **خليج الخنازير** مع أنصار الديكتاتور

السابق **باتيستا، وفي غويانا** البريطانية عام ١٩٦٤، وفي الدومينكان عام ١٩٦٥، ثم ما حدث منذ وقت قريب في جرانادا وباناما.

وما هو اكثر فاعلية، تسهيل قيام ديكتاتورية عسكرية في كل بلد باسم العقيدة الأمريكية في "الأمن القومي"، ضد الشيوعية في زمن قوة الاتحاد السوفييتي. لقد استطاعوا أن يجعلوا الشعوب تؤمن، أن ارتباطها بالولايات المتحدة سيحمي "الديمقراطية" و "الاستقلال الوطني"، وهكذا استطاع الجنرالات أن يحكموا البرازيل منذ **كاستلوبرانكو** عام ١٩٦٤، وحتى **جيزيل**.

وفي ظل هذه الأنظمة، ومن خلال لعبة تجمع بين التصنيع الذي تنفذه الشركات متعددة الجنسيات الأمريكية، وبين التسليح الذي يسمح بممارسة الضغط والإرهاب على الشعوب، لم يتوقف الدين عن الإزدياد. فقد ارتفعت الديون بين عامي ١٩٧٢-١٩٨٢، من ١٢ مليار دولار إلى ٦٠ مليار دولار، أي تضاعف خمس مرات في عشر سنين.

وحده الدكتاتور العسكري، يستطيع أن يستنزف دم الشعب حتى **الإنهاك**.

بلغت قروض الأرجنتين ٥٤ مليار دولار، منها ١٠ مليارات في ظل نظام الجنرالات.

وبلغ سداد الديون، وشراء الأسلحة قبل رئاسة **آلان جارسيا** ٥٠% من ميزانية البلاد.

أما رقم الديون في التشيلي أثناء حكم **بينوشيه** فكان ١٥٠٠ دولار لكل مواطن. ولكن **بينوشيه** يحتفظ بسجل آخر أيضاً، فقد حقق أوسع وأشمل حرية لاقتصاد السوق بما فيها سوق العملات، من خلال نظام خصخصة مهيأً بذلك شروطاً مثالية شاملة للشركات متعددة الجنسيات لتتسلط على اقتصاد البلاد. واستطاع أن يحقق ذلك بضمانة "الديمقراطية الأمريكية" العظيمة.

بفضل هؤلاء الطغاة العسكريين، أصبح اقتصاد أمريكا اللاتينية ذا اتجاه واحد، تحيط به تبعية سياسية بسبب قوة الضغط السياسي على السلطات، الذي يتمثل أحياناً كثيرة برفض الإقراض، أو العزوف عن الاستثمار.

وتابعت الولايات المتحدة، بعد ذلك هدفها في تحقيق حرية السوق، بوسائل أخرى، غير استخدام الطغاة العسكريين.

لقد أصبح مقبولاً، وصول حكام منتخبين إلى السلطة، مع استبدال الإرهاب الحكومي بالفساد. وهكذا شهدنا ارتقاء قادة منتخبين كراسي الحكم مثل **كولور** في البرازيل، ومنعم في الأرجنتين. وبعد استبدال الجنرالات الخونة، طلب إلى الحكام الجدد مهمة واحدة هي أن يقوموا بتسديد القروض وفوائدها التي عقدها الطغاة العسكريون ونسيان جرائمهم.

واستطاعت سيطرة صندوق النقد الذولي أن تتجذر بدون مخاطر في هذه البلاد التي قيدتها الديون، وأصبح اقتصادها في أيدي مؤسسات أجنبية.

ويستطيع صندوق النقد لدولي أن يفرض دون عواقب نظام " تنمية أكثر ملائمة للمتروبول العالمي"، ليس على العالم الثالث فقط، بل عل العالم كله: ويتمثل هذا التوجه بتنمية زراعات احادية، ومنتجات أحادية، والتراجع عن الزراعات الحيوية والحرف الوطنية التي تؤمن للمواطنين قوت يومهم، وتتحقق بذلك التبعية، والاستغلال المتزايد لليد العاملة، وتفاقم الديون، بسبب تضخم الاستيراد.

والنتيجة الاجمالية، نتيجة قاطعة: فمنذ بداية الثمانينات، انخفض دخل الفرد في أمريكا اللاتينية ١٥% وفي أفريقيا ٢٠% .

ويحمل نظام الهيمنة هذا اسماً شائعاً هو "خطة التصحيح البنيوي" وبموجبها لا تمنح القروض والمساعدات إلاّ في ظل شروط سياسية قاسية. وعندما تطبق برامج

صندوق النقد الدولي بحرفيتها في بلد ما، تتمتع حكومته حينئذ بالمعاملة المتميزة من جانب الولايات المتحدة واتباعها الأوروبيين.

وتتألف برامج "التصحيح البنيوي"غالباً من العناصر التالية: تخفيض العملة "بغرض تشجيع التصدير، وإعاقة الاستيراد"، وتخفيض "تنيني" في الإنفاق العام، وبشكل خاص في الميدان الاجتماعي، أي في اعتمادات التعليم والصحة والإسكان، وإلغاء دعم المواد الاستهلاكية بما فيها المواد الغذائية، وخصخصة مؤسسات القطاع العام، أو زيادة رسومها "الكهرباء، الماء، النقل"، وإلغاء السيطرة على الأسعار، و"تنظيم الاحتياجات"، وبالتالي خفض الاستهلاك، يدعم ذلك تجميد سقوف الرواتب، والحد من القروض للمواطنين، وزيادة الودائع ومعدلات الفائدة، وكل ذلك بهدف تخفيض آثار التضخم.

تسبب سياسة "التصحيح" هذه انتفاضات ضد تصاعد أسعار الرغيف: كما حدث في المغرب عامي ١٩٨١و ١٩٨٤، وفي **كاراكاس** عام ١٩٨٥، وفي الجزائر في تشرين ١٩٨٨، وفي الأردن عام ١٩٩٦.

وبسبب ازدراء اقتصاديات القوت، وبشكل خاص الزراعات الحيوية للسكان، وأفضلية الزراعات المهيأة للتصدير، وهي المصدر الوحيد للقطع الأجنبي الموجّه لتسديد القروض بالدولار، تنتج الدول التي تتلقى المساعدات، الكثير مما لا تستهلكه، وتستهلك الكثير مما لا تنتجه.

وهكذا يقوم صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي بتدمير نصف الكرة الجنوبي من الأرجنتين وحتى تنزانيا، ومن باكستان حتى الفليبين. وابتدئ الآن بتطبيق هذه السياسية على بلدان أوروبا الشرقية، بغية تكوين هيمنة سوق عالمية متجانسة، وحدانية حقيقية للسوق، مؤسسة على وثنية المال. وقد وضع القادة الأمريكيون، موضع التنفيذ، أساليب مختلفة حسب القارات والأنظمة السياسية المختلفة.

يستطيع المرء في إفريقيا مثلاً، أن يحصي ثلاثة بدائل رئيسية:

عندما زار الرئيس السنغالي **عبدو ضيوف**، الولايات المتحدة في ١٠ أيلول ١٩٩٦، أعلن **هيرمان كوهن**، مساعد وزير الخارجية للشؤون الإفريقية، أن مدة الثلاثين عاماً التي حددتها منظمة الوحدة الإفريقية لتكامل الاقتصاد الإفريقي، فترة طويلة جداً. وقال "نحن نفكر أن إزالة الحواجز التجارية الإفريقية يجب أن يتحقق بسرعة. ولأن الرئيس **عبدو ضيوف** أبدى تفهماً لوجهة نظرنا هذه، فإن الرئيس **الأمريكي** قرر إلغاء ٤٢ مليون دولار من ديون السنغال".

في الجزائر، وضعت المسألة بشكل آخر: كان رد الفعل على سياسة صندوق النقد الدولي، والذي ظهر لأول مرة في انتفاضة الجزائر في تشرين الأول ١٩٨٨، قد وجد تعبيره في حركة الأغلبية الإسلامية التي تعارض بصراحة "وحدانية السوق". وقد طرحت الجبهة الإسلامية للإنقاذ مسألة طيبة، هي المسألة الأولى في عصرنا: رفض وحدانية السوق،رفض الليبرالية التي تختلق أسباب "العزل" وتطبق التبعية على أربعة أخماس العالم، وضياع كل معاني الحياة. إنه سباق يجري لمصلحة قادة البؤس، وضد العدد الوافر من البشر.

ولأن الحلول التي أعلنت عنها الجبهة الإسلامية للإنقاذ لا تشكل مشروعاً حقيقياً، أي بديلا صادقاً لانحطاط الغرب وهو أن يرفض مبدأ النظام الذي يزعم لنفسه حق الهيمنة على العالم، معتبراً إياه تجسيداً للشر. ويجب أن لا ينبع هذا الرفض من دواعٍ اقتصادية فحسب "فالجزائر مدينة بـ١٢ مليار دولار وتدفع ٥ مليار سنوياً فوائد هذه القروض" وإنما لسبب آخر كبير، سياسي، وحتى ديني، بمعنى أن يضع موضع التساؤل غايات المجتمع المؤسس على اقتصاد السوق.

إن ممارسة حفاري قبور العالم للطقوس السرية لوحدانية السوق، تستدعي حرباً حقيقية ضد ديانة، تُتهم بخدمة الشيطان، كل من يعارضها: وقد حولوا كل

معارض لوثنيتهم وهيمنتهم ، مهما كانت مصالحه أو أخطاؤه أو جرائمه، إلى **هتلر** جديد، سواءً كان أصولياً، عراقياً، صربياً او **ساندينستياً** ، أو معارضاً من البـيرو. لقد تقبل الديمقراطيون الأصفياء في واشنطن أو باريس بارتياح **طرفة برتولد برخت** التي أصبحت شهيرة في الجزائر:

لقد صوت الشعب ضد الحكومة. والحل الأكثر بساطة هو "حلّ " الشـعب. ونستطيع استخلاص البديل الثالث من أحداث الصومال، وقد أخذ هذا البديل اسماً يغمرنا بالأحلام: "حق التدخل الإنساني". لنتصور شعباً إفريقياً يدّعي لنفسه حـق التدخل الإنساني للتدخل ضد التمييز العرقي تجاه الزنوج والهنـود في الولايـات المتحدة بعد الانفجارات الشعبية في لوس أنجلوس". وهذا الحق قابل للتطبيـق، إذا اعتمدنا المعايير التي استخدمت في الصومال، في نصف بلدان القارة الإفريقية.

يتصف هذا التدخل بأنه انتقـائي. وقد أوضـح الرئيس بوش هـذه النقطـة بجلاء في آخر خطاب له في الأكاديمية العسكرية في **وست بونت** قـائلاً: " ليـس علينا أن نتحرك، عبر كل حالة من العنف الإجرامي.. إذ لا يجـب أن تتعـارض مثاليات أمة ما مع مصالحها".

يكشف هذا التمييز الرئيسي بين "المثال" و "المصلحة"، لماذا اختلق هذا الحـق بالنسبة للصومال. هناك على الأقل ثلاثة أسباب:

– أهمية القرن الأفريقي في المراقبة القريبة للخليج.

– أعمال التنقيب عن البترول الذي تقوم به أربع شركات أمريكية ضخمـة، إذ يتطلب استمرار التنقيب، وجود سلطة مستقرة وقوية.

– وأخيراً ، وعلى الأخص، إقامة سلطة من الدمى، تقبل جهاراً املاءات أمريكـا عبر صندوق النقد الدولي.

ومن الطريف أن المحاولة الخجولة لعدد من السياسيين الفرنسيين الذين يعتقدون أن أفريقيا ما زالت من ممتلكات فرنسا، لإدارة المفاوضات بين المرشحين المحتملين لرئاسة الصومال، قد استبعدت بنقفة إصبع أمريكية.

هذا هو نموذج التدخل الإنساني، ذو الدوافع الواضحة للمصالح الأمريكية. ويمكن شرح هذه الإنتقائية بأمثلة عديدة: كان ضرورياً، نشر أسطول جوي لحماية الأكراد في العراق، أما أكراد تركيا الذين يمثلون ثلاثة أرباع الأكراد، فليس لهم أي حق بهذا التدخل الإنساني. وكذلك الفلسطينيون وشعب هايتي الذي سقط تحت إرهاب عصابات **تونتون ماكوتس**، أو شعب السلفادور الذي أُسْلِمَ بوحشية إلى "كتائب الموت".

وتختفي أشكال التدخل الاستعماري الجيد وراء أسماء مختلفة، غير الدفاع عن الحق الدولي والديمقراطية. ومجزرة الخليج هي المثال الأكثر جلاءً. فالدفاع عن الكويت كان دفاعاً عن "الحق" و "الديمقراطية". والحق هو حق الأقوى.

والآن وقد أعيد بناء "الديمقراطية" في الكويت، وهي ديمقراطية تشبه بقوة ديكتاتوريات أمريكا اللاتينية. فقد أعطت عودة الأسرة الحاكمة، بعد الضغوط التي مورست على الفلسطينيين وطردهم، الفرصة لولادة صورة كاريكاتورية للديمقراطية.

يملك حق التصويت في الكويت ١١% فقط من السكان، وتنتمي الغالبية العظمى في هذا البرلمان، إلى المعارضة، أما الوزراء فينتمون إلى الأسرة الحاكمة. وتستوجب نتائج فساد النظام استخلاص العبر.

يقول رئيس البرلمان الكويتي أن مسؤولية الفضائح المجلجلة، تقع على عاتق الوزراء الذين تعاقبوا على وزارة المالية منذ عام ١٩٨٦.

لقد اختفت المليارات من الدولارات من خزائن الكويت خلال فترة حرب الخليج في فضيحة شركة نفط الكويت، حيث اختلس ما بين ٧٠ و ٩٠٠ مليون دولار، وفي فضيحة شركة **نوراس** الشركة الرئيسية التابعة لمكتب الاستثمار الكويتي وهو جزء من الجهاز الحكومي، كشف عن ضياع ٤ مليار دولار، عقب سرقة كبرى للودائع في إسبانيا، أما فرنسا فقد شهدت إفلاس البنك الكويتي– الفرنسي في باريس.

وكانت آخر هدية قدمت لبوش مكافأة على ما فعله في الكويت، صفقة دبابات **إبوامز MIA2**، بقيمة ملياري دولار، في الوقت الذي كان يموت فيه طفل عراقي كل أربع ساعات بسبب الحظر.

أما ما ألقي على العراق خلال الحرب، فكان أكبر من قنبلة **هيروشيما** بثماني مرات، وقد أباد حسب أدنى الإحصائيات التي أعلنها الصليب الأحمر الدولي ٢١٠ آلاف ضحية.

هذا هو معيار الدفاع عن "الحق الدولي"، الذي يحمل معنى وحيد الطرف، إنه حق لم يعرف الرحمة عندما "ألحقت" الكويت، ولكنه ينسى إلحاق القدس، والقدس مدينة مقدسة، ولكن مدينة الكويت مقدسة ألف مرة أكثر من القدس، ما دامت تقع وسط حقول النفط.

كان التدمير الكثيف هو الأسلوب الذي استخدم ضد العراق، أما الهدف فكان إعطاء "مثال" يقنع العالم الثالث بأكمله، وخاصة إيران وليبيا، الهدفين الأقربين باعتبارهما يملكان مصادر نفط، وما زالا خارج السيطرة الأمريكية حتى الآن.

وطبقت الولايات المتحدة أسلوباً آخر، أقل كلفة، ولكنه كافٍ لإضرام نار الخلافات بين القوميات، والمجابهات المزعومة بين الأثنيات والديانات.

و"القومية" اختراع أوروبي، ولا حاجة بنا لاستذكار تاريخ تشكلها في أوروبا وخاصة منذ معاهدة **وستفال** عام ١٦٤٨. لقد قرعت هذه المعاهدة أجراس موت المسيحية التي كانت توحد أوروبا، فتأسست القوميات على أساس اقتصاد السوق، وهو اقتصاد تحمية دولة وجيش.

كانت هذه نقطة الفراق، التي استدعت قيام الوحدات القديمة، مثل فرنسا، **فالملك تشاركز** الخامس "نهاية القرن ١٤" أصدر أمراً ملكياً، قرر فيه أن كل الممتلكات في المملكة تعود للملك وحده، وله وحده الحق أن ينظم كل الأسواق والمعارض، ويضع تحت حمايته سلامة الذاهبين، والمقيمين، والعائدين.

هَدَفَ هذا القرار إلى التغلب على كل المصالح الإقليمية للإقطاع. وسيصبح إنجاز هذه "الوحدة القومية" مهمة الثورة الفرنسية، وعبر عن هذه المهمة، الخطاب التأسيسي **للافاييت**، في عيد الاتحاد في ١٤ تموز ١٧٩٠، إذ أقسم على الحفاظ على الدستور، وضمانة الوحدة السياسية لفرنسا، ولكنه أيضاً ضمن "سلامة الأشخاص والممتلكات، والانتقال الحر للبضائع".

ومن بين الوحدات القومية التي تشكلت في مرحلة متأخرة، بدءاً من القرن التاسع عشر، الوحدة الألمانية التي بدأت عملية التوحيد فيها، بإنشاء الوحدة الجمركية "**زولفرين** ١٨٣٣"، كما فعلت إيطاليا في عهد كافور.

وتأكدت هذه الوحدة، في القرن التاسع عشر، العصر الذهبي للبورجوازية التجارية والصناعية التي أنهت صراعها مع آخر الامتيازات الإقطاعية، والتي سيتركز صراعها الجديد ضد المنافسين الخارجيين. لذلك كان عليها أن تبحث عن تبرير أيديولوجي لهذا الصراع.

وادعت كل أمة ملكيتها للتراث الديني المسيحي:

ففي فرنسا، انطلق شعار "أكمل الله عمله بالفرنسيين". وفي ألمانيا كانت عبارة "الله معنا" نشيداً تغنى به القوميون الألمان.

ولكن تراجع النفوذ الديني، دعا إلى إيجاد أسس أخرى للقومية، فكانت الحدود الجغرافية الطبيعية بديلاً عن "أرض الميعاد"، أو "الجيل الموحى إليه" كما قال باريه، وتبعتها البيولوجيا أي النظرية العرقية.

لقد استثمروا نظريات **جوبينو وشامبرلين**، وبعد ذلك الأساطير التاريخية التي تميل لخلق اقتناع بأن "الأمة" قد وجدت قبل آلاف السنين. وقد وضعت "الأرشيفات" الأسطورية للشعوب لخدمة هذه الفكرة: في ألمانيا جنباً إلى جنب مع "الأوابد الألمانية التاريخية" (**بيرزت ١٨٢٤**)، أما في فرنسا فكان كتاب **جيزو** "وثائق أصلية عن التاريخ الفرنسي" (١٨٣٣)، وفي بريطانيا ظهرت سلسلة "**رولز**" حول أصول إنكلترا (١٨٣٨).

وحدّد كل مستعمر، مع ابتداء الغزو الاستعماري في كل القارات، "أرض صيد" خاصة به، تحولت فيما بعد إلى "أمة". ولنضرب مثلاً على ذلك:

إن الحدود القائمة لبلدان أمريكا اللاتينية تتصل إلى حد بعيد بالخطوط التي رسمها نواب الملك والحكام العاملون المنتدبون من إسبانيا والبرتغال. أما الحدود القائمة لبلدان إفريقيا فقد جرى تحديدها من قبل المستعمرين الأوروبيين الذين مزقوا أفريقيا بموجب معاهدة برلين ١٨٨٥.

وقد جرى تقطيع هذه القارة حسب علاقات القوة بين الاستعماريين، انطلاقاً من مبدأ يقول: إن من يمتلك الشاطئ يمتلك كل البلاد وراءه، والواقعة ضمن خطوط عمودية مع الشاطئ.

وأدت تجزئة الإمبراطورية العثمانية على أيدي غزاة الحرب العالمية الأولى، إلى رسم حدود البلاد العربية في الشرقين الأدنى والأوسط، حسب أطماع الدولتين

المتنافستين، فرنسا وإنكلترا، اللتين توصلتا إلى تسوية بموجب اتفاقية **سايكس-بيكو ١٩١٧**.

ويستطيع المرء أن يضاعف الأمثلة لعملية تصدير القومية وأيديولوجيتها في العالم أجمع مع بدء الاستعمار الأوروبي. وبدأ الصدام بين الأمم المحررة مع انحسار الاستعمار. كان الانتصار الذي حققه الاستعمار بعد موته، استخدام القوميات الواحدة ضد الأخرى. كانت جامعة الدول العربية حلماً إنكليزياً قديماً لفصل العرب، أثناء تفكك الإمبراطورية العثمانية، عن الإمامة الإسلامية، في الوقت الذي كانت فيه أيديولوجيا القومية التركية من صنع أوروبي هو **فامبيري**.

أما في المخطط السياسي فالتاريخ يعمر بألف مثال، وسيسمح هذا المخطط لنا أن نشهد بعد فترة طويلة، إثارة الصراع بين العرب والإيرانيين، وتجهيز العراق عسكرياً بغية إضعاف إيران، بانتظار تدميره.

ومع انهيار الاتحاد السوفيتي تواصل البلدان تفككها بالأسلوب الذي يناسب الخصوم. ويكتمل المخطط بإثارة الحروب الداخلية في البلدان المحيطة: بين المسلمين والقوميين في طاجاكستان، بين الأرمن والأذربيجان، وبالمجازر التي ارتكبت ضد الروس في أفخازيا والشيشان.

والمثال النموذجي، هو مثال يوغوسلافيا القديمة. لم تعرف شعوب يوغوسلافيا المختلفة في لغاتها ودياناتها وتاريخها وبناها الاقتصادية، وعلى مدى نصف قرن، اضطهاداً ولا مصادمات كبرى. لقد انفجرت القوميات مع عودة فوضى اقتصاد السوق التي أثارت في القسم الأغنى من البلاد، هو **سلوفينيا** إرادة الانفصال عن الجمهوريات الأخرى الأكثر فقراً في الاتحاد اليوغوسلافي. وكانت الخطة إثارة القوى البعيدة عن المركز. وقد اعترفت ألمانيا بموجب سياستها التقليدية في الأدرياتيك، ومن جانب واحد باستقلال سلوفينيا، والبوسنة، وكرواتيا، وهي الممر

المؤدي إلى البحر الأبيض المتوسط. وقبلت الولايات المتحدة فوراً الموقف الألماني، باعتبار أن ألمانيا هي الشريك الأكبر للولايات المتحدة في أوروبا، وكذلك تركيا التي وجدت أنها فرصة لتضع قدمها مجدداً في **البلقان**، التي خضعت سابقاً للامبراطورية العثمانية.

وسمح خضوع تركيا لحلف شمال الأطلسي، سمح لها أن تضع نفسها في موقف المدافع عن المسلمين في البوسنة **وكوسوفو**، دون أن تضطر لمجابهة سادة الأطلسي، وكذلك أضاف الفاتيكان دعمه لكاثوليك كرواتيا.

مال الأوروبيون- وفرنسا خاصة- الذين استشعروا منذ البداية خطر انفجار يوغوسلافيا، لحماية الوحدة اليوغوسلافية، والتراص قبالة الموقفين الأمريكي والألماني، واتهموا الصرب الذين جهدوا لحماية الوحدة، بالعدوان والانفصالية. وأخذت وسائل الإعلام على عاتقها مهمة تصويرهم وحدهم بالشياطين في هذه الصراعات التي لم تقتصر الوحشية فيها على طرف واحد.

وهكذا ابتدأت المجازر، لأن الأمريكيين والأوروبيين، لم يأخذوا بالحسبان التعقيد في العلاقات بين الشعوب. فباسم حق تقرير المصير "وهو حق لم يول أي اهتمام للأقليات الموجودة في الدول المستحدثة التي اعترفوا باستقلالها"، لم يعد لأي من هذه الشعوب همٌّ إلاّ الدفاع عن نفسها. أما مسؤولية دول الغرب في هذه الفوضى الدامية فهي مسؤولية مطلقة، فقد جعلوا المشكلة عصية على الحل بمصطلح الحق، ومميتة بمصطلح القوة.

ولن نورد إلا مثالاً واحداً: يضم البوسنيون ٤٤% من المسلمين و ٣٠% من الصرب و١٨% من الكروات. فالصرب يخشون عودة "جمهورية إسلامية" أعلن عنها القائد البوسني **عزت بيجوفتش**، والآخرون يخشون هيمنة صربية تدعمها بلغراد، ويثيرون مواجهات صعبة ودامية بين الكروات والمسلمين، وبين الصرب

والكروات، وبين المسلمين والصرب، مع ما تحمله هذه الصراعات من وحشية تصفية الحسابات بين شعوب امتزجت ببعضها، وتشابكت فيما بينها.

أصبح أي تدخل عسكري ضمن هذه الظروف، صعبا جدا بل مشكوكا في جدواه، شأنه في ذلك شأن مباحثات السلام، فلكي يصبح ممكنا- مثلا- أن تقوم "القبعات الزرق" "جنود الأمم المتحدة" بحماية ضحايا هذا الوضع الفوضوي توجب عليهم أن يقصفوا (انطلاقا من حاملات الطائرات المرابطة في **الآدرياتيك**)، البوسنة بالصواريخ، لتقتل الصرب والمسلمين والكروات على حد سواء.

أما ما يتعلق بمباحثات جنيف، فقد تعطلت منذ بدايتها، بسبب الخطأ الأساسي للغرب، وهو اعترافه بالدول الجديدة دون أن يطلب منها ضمانات لحماية الأقليات فيها. ولهذا بات، كل طرف من الأطراف يبحث عنها اليوم لحسابه الخاص: فقد أراد **عزت بيجوفيتش** دولة بوسنية موحدة، لأن شعبه سيتحول في ظل إطار فيدرالي إلى أقلية، في حالة تحالف الصرب والكروات. وبالعكس، فقد تمسك الصربيون والكروات بالحل الفيدرالي الذي سيعطي الأولين ضمانات ضد البلغار في حال جرى تأسيس جمهورية إسلامية منفصلة، سيعطي الآخرين ضمانات ضد زغرب، يضاف إلى ذلك الخلافات حول رسم الحدود، لأن التشابك بين الشعوب يستبعد التقسيم العرقي. وهكذا تراجعت المشكلة لتصبح تقسيما كميا، أي استنادا إلى مرحلة علاقات القوى، كما كانت دائما مشكلة ترسيم الحدود عبر التاريخ.

وهكذا، تقودنا المصالح العمياء للقوى الغربية الكبرى، إلى مشاكل القرن الماضي، المسماة بالمسألة الشرقية، فقد ازدادت هذه المشكلة عمقا بسبب مخاطر عدم الاستقرار في أوروبا والشرق الأدنى في وقت واحد.

لقد حاولنا الوصول إلى الخيط الأساسي الذي يسمح لنا الربط بين المشاكل الدولية الأساسية في نهاية هذا القرن، على الرغم من تنوع مظاهرها: إنه الهيمنة العالمية للولايات المتحدة، ووحدانية السوق التي تريد أن تفرضها على العالم كله.

ولتحقيق ذلك سوف تتابع الولايات المتحدة:

– الدعوة لحرية إقتصاد السوق، حرية بلا حدود، باعتبارها المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية.

– الدعوة للتقدم المتواصل في مجال تنمية القدرة العمياء، للسيطرة التقنية والعلمية على الطبيعة والإنسان.

– الدعوة لمتابعة تطوير الازدياد الأعمى للإنتاج والاستهلاك.

لن تكون هناك حرية وديمقراطية إلاّ إذا شاركت كل الأطراف باتخاذ القرارات التي تحدد مصائرها.

لن يكون هناك تقدم إلاّ إذ حل محل هذا الغاب من التزاحم وإرادات القوة، والنمو الكمي والتنافس على الأرباح بين الأفراد والجماعات والأمم، مجتمع حقيقي، نعني به، مجتمعاً، يمتلك كل فرد فيه ضميراً يشعره أنه مسؤول عن مصير جميع الآخرين. وهذا ما لا توفره الفردية.

ليس هناك من تطور إلاّ للإنسان. وبعكس نظام يوّلد تراكم الثروة لدى قطب واحد في المجتمع، وتراكم الفقر المادي والثقافي لدى الغالبية، فإن مجتمعاً متطوراً فعلاً، هو المجتمع الذي يخلق شروطاً اقتصادية، وسياسية، ثقافية، وروحية، تمكن كل فرد من أفراده، من التهيؤ للإنطلاق، وفق فرص متساوية، بغرض تنمية كل الإمكانيات الخلاقة التي يحملها بين جنبيه.

الهوامش

- **ادولف تيير** (١٧٩٧-١٨٧٧) مؤرخ ورجل دولة فرنسي، له كتاب "تـــاريخ الثورة"، وساهم في تأسيس ملكية تموز. كان محرضاً على ردود الفعل المحافظـــة في ظل الجمهورية الثانية ومعارضاً لسياسة القوميين. عقد معاهدة فرانكفورت مــــع البروسيين، وسحق الكومونة.

- **أرض النار**: مجموعة من الجزر في أمريكا الجنوبية (قبالة الأرجنين وتشـــيلي) يفصلها عن القارة مضيق ماجلان.

- **شارل الخامس** (**١٣٣٨-١٣٨٠**)، توج ملكاً على فرنسا عام ١٣٦٤.

- **لافاييت** (**١٧٥٧-١٨٣٤**)، سياسي فرنسي، كان رئيساً للحرس الوطـــني مرتين، وأحد مؤسسي ملكية تموز. حاول التوفيق بين الملكية والثورة.

- **كافور** (**١٨١٠-١٦٤١**)، رئيس الحكومة الإيطالية عام ١٨٥٢. وضـــع برنامجاً لإصلاح الدولة، ونشر الفكر الوحدوي في إيطاليا.

- بارّره (١٧٥٥-١٨٧٩)، روائي فرنسي، ساهم في إسقاط روبسبيير، وأصبح عضواً في مجلس المديرين.

- **جوبينو** (**١٨١٦-١٨٨٢**)، صاحب كتاب مقالة "حول عـــدم تســاوي الأعراق"، الذي ترك أثراً كبيراً على المنظرين العنصريين الألمان.

- **جوزيف شامبرلين** (**١٨٣٦-١٩١٤**)، سياسي انكليزي من مشجعي الحركة الاستعمارية.

- **فرانسوا جيزو** (**١٧٨٧-١٨٧٤**)، مؤرخ فرنسي، أصبح رئيساً للـــوزراء (١٨٤٧-١٨٤٨).

- **آرثر شامبرلين** (**١٨٦٩-١٩٤٠**)، سياسي بريطاني عين رئيساً للـوزراء (١٩٣٧-١٩٤٠) اتبع سياسة تـهدئة إزاء **هتلر وموسوليني**.

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الخامس

الفصل الخامس

التجارب الخائبة للاشتراكية

توجب مرور قرنين كاملين، على الثورة الفرنسية، ليصبح شائعاً ما دعاه ماركس في منتصف القرن الماضي: تهتك الرأسمالية، ولتحقق الوعي في مسألة العودة إلى شريعة الغاب، المؤسسة عبر الأيديولوجيا والممارسة العملية لحرية السوق، وهما العاملان اللذان قادا العالم اليوم للإنقسام إلى قسمين: الشمال والجنوب، مع كل نتائج النمط الغربي للتنمية الذي كلف العالم الثالث من الموتى كل يومين، ما يعادل ضحايا **هيروشيما**. أما التباعد بين الشمال والجنوب فما زال يتعاظم يوماً بعد يوم.

و لم يتوقف تنامي انقسام مشابه، حتى داخل البلدان الغنية، بين الذين يملكون، والذين لا يملكون، مع تصاعد لا يرحم لمعدلات البطالة، والتسريح، وعدم المساواة.. وما زال التفاوت بين هذين الطرفين يتعاظم يوماً بعد يوم.

والواقع أن ثلث العاملين في العالم البالغ عددهم ٢٨٠٠ مليون، عاطلون، عن العمل، وقد انخفض الإنتاج في بلدان العالم الثالث بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩٣، بنسبة ١٠%.

وحدث الأمر نفسه في مجموعة دول أوروبا الشرقية، بعد عودة الرأسمالية إليها: فقد انخفضت دخول ٧٣% من الأسر البلغارية إلى أقل من الحد الأدنى للأجور، بينما كان عام ١٩٩٠، ٤٢% فقط، ووصل ٥٠% من الأسر البولونية إلى مستوى الفقر عام ١٩٩٢، مقابل ٤٠% عام ١٩٩١. وحدث الأمر نفسه في الاتحاد السوفيتي السابق، حيث يعيش ٤٠ مليون إنسان عند عتبة الفقر "عام ١٩٩١".

وفي البلدان شبه الصحراوية بلغ معدل البطالة ٥١%، وهو ضعف ما كان عليه في أعوام الخمسينات.

وفي أمريكا اللاتينية، ارتفعت البطالة في القطاعات المدنية من ١٣,٤% إلى ١٨,٦%.

وهكذا نجد أن ٣٥٠ شخصاً فقط يتمتعون بدخل يعادل دخول ٢,٥ مليار إنسان في العالم.

كانت الثورة الفرنسية قد أحلت محل تراتبية الدم، تراتبية المال، إذ اهتمت بموجب **قانون شابلير** ١٧حزيران١٧٩١ بحل المنظمة العمالية، وكانت قبل ذلك قد جردت الطبقات الاجتماعية المحرومة، والمحتمل أن تعارض التراتبية الجديدة، من أسلحتها.

ودام منع التنظيم العمالي قرناً كاملاً، إلى أن سمح بتأسيس النقابات عام ١٨٨٧. وقد أشار **بابوف** (١٧٦٠ – ١٧٩٧) إلى تخوم هذه الثورة التي أسست علاقات جديدة قائمة على مبدأ الدفاع عن الملكية الفردية، وحرية هذه الملكية في النمو على حساب غير المالكين. وكتب **بابوف** في العدد ٣٤ من "منبر الشعب" يقول: أي شيء هي الثورة الفرنسية؟ إنها حرب ناشبة بين النبلاء والعامة، بين الأغنياء والفقراء.

أمام هذه التراتبية الاقتصادية للنظام **الترميدوري**، تحدث العدد ٣٥ من "منبر الشعب"، وفي باب "بيانات الفقراء"، عن القانون البربري الذي يفرضه رأس المال.

وقد انتحر **بابوف**، قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام في **فاندوم** في ٢٨ أيار ١٧٩٨.

ودعم نابليون من خلال الدكتاتورية، النظام الذي تأسس باسم الحرية. وقد كتب أحد وزراءه، ويدعى **شامبيني** والذي يعتبر نموذجاً لارستقراطية المال الجديدة، كتب رسالة إلى **الكونت وانتراج**، وهو قانوني بقي مخلصاً للنظام القديم: "يلزمنا ملك يكون ملكاً حقاً، لأنني مالك" ٢١ آب ١٨٠١.

وفي الحقيقة، فقد وضع **نابليون** بأسلوب أكثر ما يكون وضوحاً ونمطية، القانون الذي عرف باسمه عام ١٨٠٤، والذي كرّس مبادئ الملكية، وحرية العمل، اللتين سادتا منذ عام ١٧٨٩. وأدرك **لوي بلان** ١٨١٢-١٨٨٢ هذه الفكرة، فأشار إليها في كتابه **"تاريخ السنوات العشر"** بقوله: أطل **نابليون** على الجمعية التأسيسية، فانحاز إلى الطغيان المختبئ في ثنايا مبدأ "دعه يعمل"، وفي كلمة واحدة لقد حصّن كل ما يخدم اليوم، هيمنة **"البرجوازية"**.

وفي الواقع أعطى **نابليون** أول مثال لهذه الحقيقة، التي طبقت بعد ذلك ابتداء من **لويس فيليب**، إلى عهد **نابليون** الثالث، بل وحتى حكم **بينوشيه**، تشير إلى أن الحرية الاقتصادية أبعد ما تكون عن الامتزاج بحرية الإنسان، وهي تتفق بشكل جيد مع نظام سياسي ديكتاتوري، مثلما تنسجم مع "ديمقراطية"، تموّه ديكتاتورية المال.

ويمكن لهذا النظام أن يجد مبرراته في الدين والإلحاد على حد سواء. وكان **نابليون**، في هذه الحالة مبشراً أيضاً. ودلل **روديرو** في "يومياته" عن هذه الثقة لدى **نابليون**:

"لا يمكن للمجتمع أن يوجد دون التفاوت في الثروة، ولا يمكن لهذا التفاوت أن يوجد بدون الدين. فعندما يموت إنسان جوعاً إلى جانب إنسان آخر يتقيأ من التخمة، لا يمكن قبول هذا الأمر إلاّ بوجود سلطة تقول له: يريد الله الأمر على

هذه الشاكلة. ولا بد في هذا العالم من وجود فقراء وعبيد. أما في الآخرة فستكون القسمة على شكل آخر" وهذا ما جعل هذا الكافر يحرم من تتويج البابا له.

إنها نفس اللغة التي استعملها **شاتوبريان** حين عودة الملكية: "إنها دولة سياسية، يملك أفراد فيها الألوف، بينما يموت آخرون جوعاً، أيمكن لهذه الدولة أن تستمر عندما لا يكون هناك دين يولّد الآمال خارج هذا العالم، كي يفسر معنى التضحية؟ "مذكرات بعد الموت".

وقال **لويس فييّو** في وسط القرن التاسع عشر:

عندما لا يؤمن المرء بالله، فلن يؤمن بالملكية حتى يكون مالكاً، "وبهذا المعنى يجب فهم مقولة ماركس: الدين أفيون الشعوب".

ولدت الاشتراكية أولاً من الثورة على لاإنسانية نظام الحرية الاقتصادية. وقد وعى مسيحيون، رفضوا الاستسلام للتواطؤ، هذه اللاإنسانية في النظام، وصاغ الأب **لا كوردير**، مثلاً، المبدأ ذاته المتعلق بلاإنسانية الإنسان بقوله: "بين القوي والضعيف، الحرية هي التي تقوم بالاضطهاد والقانون هو الذي يحرر".

وقد ولدت الاشتراكية من خلال البحث عن هذا القانون الذي يسمح للإنسان أن يصبح إنساناً.

فشلت محاولات بناء الاشتراكية، حتى الآن ثلاث مرات. إذ لم تكن عام ١٨٤٨ إلاّ انتفاضة، فكان بالإمكان اخمادها في ثلاثة أيام. و لم تعش **كومونة** باريس عام ١٨٧١ أكثر من ثلاثة شهور أيضاً، فتم سحقها بقوات مشتركة **لبسمارك وتيير**. فقد طوّق جيش **بسمارك باريز**، وأعاد **تيير** أسراه في سيدان بعد خيانة **بازين**، وطلب من قائد الجيوش **البروسية** أن يسمح للجيش المحاصر في سيدا بالخروج استعداداً لصد عصيان محتمل في باريس.

وولد الأمل من جديد في الاتحاد السوفييتي بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ ليتداعى بعد سبعين عاماً. وقد عاشت الثورة حالة من الحصار منذ ولادتها، بإرادة **كليمانصو وتشرشل** اللذين كانا البادئين باختراع فكرة "الأسلاك الشائكة" والتي تولد عنها فيما بعد "سور برلين" كجواب عليها.

لم يتوقف الحصار الاقتصادي، منذ أن بذلت الحكومات الأوروبية الرأسمالية الدعم لقادة الثورة المضادة عام ١٩١٨ مثل **دنيكين ورانجل**، إلى قيام الحرب الباردة ضد امبراطورية الشر، إلى حرب النجوم التي أطلقها **ريغان**، إلاّ لمدة أربع سنوات فقط،

فقد رأت هذه الحكومات أن **هتلر** يشكل أفضل "سد" ضد **البلشفية**، فرحبت بصعوده إلى السلطة وزودته بالفولاذ والمال، والتنازلات اللازمة "**معاهدة ميونيخ ١٩٣٨**" للسماح له القيام بهذه المهمة.

ولكن **هتلر**، وبعد أن أصبح جاهزاً لتنفيذ هذه المهمة، تنبه لخطر أن يصبح أسيراً بين فكي كماشة، الغرب من جانب، والشرق من جانب آخر، فقام باحتلال فرنسا، وقصف بريطانيا. عندها أدرك الأوروبيون أن الاتحاد السوفييتي هو منجاتهم الوحيدة فتحالفوا معه.

عانى الاتحاد السوفييتي كثيراً من الغزو والاحتلال الكثيف من قبل ثلثي الجيش الألماني. ثم قام بتحرير أوروبا بدءاً من ستالينغراد وحتى برلين، محطماً الجيش الألماني، بعد أن دفع في هذه الحرب الضريبة الأثقل: بطولات وتضحيات (١٧ مليون قتيل). بعد ذلك ضاقت الحلقة حوله، بدءاً من الخطاب الذي ألقاه **تشرشل** في فولتون عام ١٩٤٦ مدشناً الحملة الجديدة.

لم يكن انهيار الاتحاد السوفييتي بسبب هزيمة عسكرية، إنما بسبب انفجار سياسي واقتصادي، وليس بسبب أنه اتبع عقيدة ماركس، بل لأنه خانها.

كان **ماركس** قد عثر من خلال **كومونة** باريس، على صيغة للنظام الاشتراكي.وكانت **كومونة** باريس قد تميزت على المستوى الاقتصادي، بإدارة العمال أنفسهم للمشاريع التي هجرها مالكوها الرأسماليون الذين انضموا لثورة فرساي المضادة بقيادة **تيير**. وقد دعى **لينين** في مقالة له في البرافدا، هذا الأسلوب من الإدارة بالنظام التعاوني، وسيدعى فيما بعد، أي في عام ١٩٦٨ "بالتسيير الذاتي".

أما على الصعيد السياسي فلم يتوقف **ماركس**، منذ تأسيسه الأممية الأولى ١٨٦٤ عن رفض كامل لمبدأ الحزب الواحد. لقد أدرك أهمية أن يتوحد كل أولئك الذين وافقوا على تحطيم النظام الرأسمالي مهما كانت أيديولوجياتهم. وعندما أشاد **بكومونة** باريس — كصيغة للنظام الاشتراكي- كانت اللجنة المركزية للكومونة تضم ٦٠ عضواً **برودونياً**، وأقلية من البلانكيين، وماركسي واحد.

على الصعيد القومي، تأسست **الكومونة** على أساس فدرالي، وفق لامركزية عريضة جداً رغم أن هذه اللامركزية لم تستطع أن تتحقق على أرض الواقع لأن باريس كانت معزولة عن بقية فرنسا "من قبل جيوش بروسيا وفرساي" أما **كومونة مزسيليا** التي زالت سريعاً مع **كريميو**، فقد تأسست دون أدنى تدخل من **كومونة** باريس.

وتكوّن النظام السوفييتي مخالفاً لهذا المبدأ: مركزية بموجب تخطيط يستبعد كل إدارة ذاتية، أو نظام تعاوني حقيقي، واستعاض عنهما بالقهر الذي غالباً ما كان دامياً، ابتداءً من إدارة مركزية، وحزب واحد أقصى كل مبادرة من القواعد، وفرض في كل الميادين، من الاقتصاد حتى الدين والفن، عقائدية خانقة وقاتلة.

وهكذا تحوّل "الاتحاد" وبشكل مطلق إلى اتحاد شكلي بسبب المؤسستين السابقتي الذكر: المركزية والحزب الواحد.

ما هي جذور هذا الانحراف؟

لنتذكر أولاً الأسباب الخارجية:

التدخل الخارجي منذ البدء، ومشاكل بناء الاشتراكية، ومشاكل التخلف في بلد تسوده رأسمالية متخلفة عن مثيلتها في أوروبا الغربية، وحصار البلدان الرأسمالية، ومقاطعتهم، وتدخلهم الذي أعاق الاتحاد السوفيتي في محاولته أن يجتاز بخطوات حثيثة مراحل التطور الصناعي والتي اجتازتها بلدان الغرب الأوروبي منذ فترة طويلة، والخسارة الإنسانية والمادية في الحرب ضد **هتلر**، حيث تحمل الاتحاد السوفيتي النصيب الأكبر من أثقال الحرب، والتنافس الملزم في سباق التسلح المنهك المفروض من الولايات المتحدة وأتباعها خلال الحرب الباردة. ولكننا لا نستطيع أن نخفف من أهمية العوامل الداخلية.

في البداية: لابد من دراسة حرفية وشاملة **لماركس** الذي قيل أنه فرض على بلد متخلف نمطاً من التنمية، بموجب قوانين استنبطها **ماركس** من وضع تاريخي مختلف تماماً.

١- وضع ماركس قوانين التنمية المثلى، للرأسمالية الأكثر تقدماً في زمانه، وهي الرأسمالية الإنكليزية، مؤسساً علاقة جبرية بين الاستثمارات الموجهة لإنتاج أدوات الإنتاج، وبين الاستثمارات المكرسة لإنتاج المواد الاستهلاكية. نظرية وحيدة للنمو، عاشت على مدى قرن كامل.

لقد حوّلت المبادئ الدوغماتية القاطعة، القانون الوصفي لتطور الرأسمالية الإنكليزية في القرن ١٩ إلى قانون معياري لتطور الرأسمالية الروسية في القرن العشرين. كان ذلك خطأ قاتلاً منع بدءاً من ذلك الحين، من التفكير بالاشتراكية انطلاقاً من غاباتها، وجعل من التفضيل المطلق للصناعة الثقيلة عقيدة قاطعة،

معيداً بذلك إنتاج لاإنسانية التصنيع الوحشي التي بدأت في القرن التاسع عشر في إنكلترا وفرنسا.

بدت الأسبقية المطلقة للتنمية الصناعية في ظروف التخلف الاقتصادي عام ١٩١٧، ومن ثم إعادة بناء ما خربته الحرب الثانية، وكأنها ضرورة تاريخية لمواجهة حصار القوى الرأسمالية.

لم يتضح هذا الدمار الإنساني إلاّ بعد الإقلاع الصناعي (١٩٣٧ والعمليات الكبرى)، ولكنها حجبت بالضرورة خلال الحرب، بسبب المواجهة، و لم تقع الانتفاضات الأولى في ألمانيا وهنغاريا ومن ثم تشيكوسلوفاكيا، إلاّ بعد إعادة البناء.

٢- تضمن التحريف الثاني الخلط بين بناء الاشتراكية وبناء الدولة. لقد سخر ماركس من أولئك الذي عرّفوا الاشتراكية بأنها التأميم وقال: بهذا المعنى يصبح بسمارك أعظم اشتراكي في أوروبا لأنه أمم البريد.

وعرّف **لينين** في مقالته الأخيرة في "**البرافدا**" عن الحركة التعاونية، البناء الاشتراكي وكأنه إيجاد شبكة من التسيير الذاتي التعاوني. وقال: في الريف، يمكن للفلاحين أن يستخدموا ممراً لعشر أو عشرين سنة، ويصبح واقعاً على أساس الخبرات الناجحة دون أن يدخل في وعي الفلاحين قيمة النظام. وعندما ادعى **ستالين** أنه حوّل الزراعة إلى النظام التعاوني في بضعة شهور، وبطريق سلطوي، فقد وجّه إلى الزراعة ضربة لم تشف منها حتى اليوم.

وقد قاد تحويل وسائل الإنتاج في بلد رأسمالي متخلف إلى الوضعية الاشتراكية، إلى تحقيق التصنيع، ليس بدءاً من التسيير الذاتي التعاوني، ولكن من "لأعلى"، ونقصد بذلك، عن طريق الدولة والمركزية. وبدلاً من أن تكون

وأما "الخطة" فبدلاً من أن تكون وسيلة لأنسنة الاقتصاد، وتوجيه الإنتاج لتلبية الحاجات الإنسانية، وليس للربح فقط، فقد تحولت لتصبح مؤسسة تراتبية،

ذات أسلوب شبه عسكري، دون إشراك القواعد أو الفنيين. أما **البيروقراطيون** وأعضاء الجهاز الحزبي، فقد احتفظوا لأنفسهم بكل السلطات واتخذوا قرارات باسم العمال الذين لم تجر استشارتهم، أو استشيروا شكلياً فقط، دون أن يؤثر ذلك على التوجيهات المركزية. هذا المفهوم عن دور الدولة، يتناقض جذرياً مع مفهوم **ماركس**.

٣- يتضمن التحريف الرئيسي الثالث، خلط التخطيط، الذي لم يكن له دور أكثر من التوجيه، مع أسلوب الإدارة من "أعلى" والذي يقرر الاستثمارات، الأسعار، أنماط الإنتاج، والتوزيع التجاري، وحصر السلطات بأيدي **بيروقراطية** مركزية، وأجهزة محلية معينة من قبلها.

قادت هذه الانحرافات الثلاثة الاقتصاد إلى الفوضى، والحرية إلى الزنزانة. ولكن ما هو أسوأ في تطور هذه الاشتراكية هو استعارتها للمسلمات الأساسية للرأسمالية، أي اعتقاد الغرب بوجود نموذج واحد وحيد للتطور، يمتزج مع النمو الكمي تسانده تقنية الغرب وعلومه.

ليست **الماركسية**، هي التي ماتت مع الاتحاد السوفييتي بل صورتها الكاريكاتورية المأساوية.

و لم يكن استشراف **ماركس** للمستقبل، في يوم من الأيام أوضح منه الآن.

وبالمقابل، لم يتأكد بطلان استشراف **آدم سميث** لهذا المستقبل و "لحريته الاقتصادية" في يوم أكثر منه الآن.

كانت "المقدمة الكبرى" **لآدم سميث:** "لو أن كل فرد تبع مصلحته الفردية، لكان الرفاه العام مؤكداً".

لقد تم دحض هذه النظريـة عبر قرنين من استقطاب أيدٍ قليلة للثروة، بينمـا كان نصيب الأغلبية المتزايدة من البشر:

البؤس والبطالة والتسريح، ليس فقط في بلدان الاستعمار القديم، ولكن في بلدان المستعمرين أنفسهم، المستعمرين القدامى والجدد.

أما "المقدمة الكبرى" لماركس فكانت ان الرأسمالية تخلق الـثروة (ولا يقـدم ماركس هنا الكثير من المديح لهذا الإنجاز) ولكنها تخلق البـؤس أيضـاً، بسـبب التفاوت الذي تولّده بالضرورة.

ويتصف الميزان المأساوي للنصر المؤقت الذي تحرزه الليبرالية بصفتين:

- هناك عالم منقسم، يكلف أربعة أخماس العالم، كل يومين خسـارة تعـادل ضحايا **هيروشيما**.

- هناك عالم منقسم، حيث لا يتوقف في البلدان الغربية ازدياد عدد العاطلين عن العمل والمطرودين واليائسين.

من معه الحق؟ آدم سميث أم كارل ماركس؟

لقد أصدر التاريخ حكمه في ذلك: إن ما يطبع القرن العشرين، هـو فشـل الليبرالية الاقتصادية وليس الاشتراكية.

أما القرن الحادي والعشرين، فلن يتواصل بخير إلا إذا هجر بشكل جذري مقولة **آدم سميث**، وإلاّ إذا عرف أن يبدع صيغة جديدة للاشتراكية (مهما كان الاسـم الذي يعطيه لهـا)، ليخرج من وحشية ما قبل التاريخ، حيث كان الإنسان ذئبـاً للإنسان، كي يدخل في تاريخ له وجه إنساني مقدس.

اشتراكية كهذه تدعو لخلق الوحدة "السيمفونية" للعالم انطلاقاً من مبدأ التبادل الخلاق بين كل الثقافات، لا يمكن أن تكون نتاج حضارة واحدة هي الحضارة الغربية.

يذكرنا **لينين**– وهو محق في ذلك– أن فكر **ماركس** قد تغذى من ثلاثة مصادر:

– الفلسفة الألمانية.

– الاقتصاد السياسي الإنكليزي.

– الاشتراكية الفرنسية.

وكان **ماركس** نفسه يعي أن المسار التاريخي الذي رسمه (الشيوعية البدائية – العبودية –الإقطاع – الرأسمالية ومن ثم الاشتراكية والشيوعية) لا يمكن تطبيقه عند الاقتضاء إلاّ على حضارات البحر الأبيض المتوسط. وتوجب لهذا أن تؤخذ بالحسبان الخصائص الجرمانية.

و لم يتوقف **ماركس** عن نقد القراءات الدوغماتية (ونسميها نحن الأصولية) لأعماله. فقد هبّ مثلاً لينتقذ تفسيراً كهذا لكتاباته قدمه صحفي روسي يدعى **ميخايلوفسكي**، فكتب إلى رئيس تحرير المجلة عام ١٨٧٧: "لقد أحس ناقدي أنه ملزم بتحويل النبذة التاريخية حول تشكل الرأسمالية في أوروبا الغربية إلى نظرية تاريخية فلسفية للمسيرة العامة يمكن فرضها على مصير كل شعب كائنة ما تكون ظروفه التاريخية– أو أينما وجد هذا الشعب– بحيث أنه يستطيع أن يصل فيما بعد إلى الشكل الاقتصادي الذي سيضمن لنا من خلال التوسع الكبير لقد رأت العمل الاجتماعي الإنتاجية، سيضمن تحقيق التطور الأكثر كمالاً للإنسان. إنني أطلب منه المعذرة، إنه يمنحني شرفاً كبيراً، وكثيراً من الخجل".

وقال في رسالة وجهها بتاريخ ٨ آذار ١٨٨١ إلى **فيرازاسوليتش**، أنه لا يعترف بأولئك **الماركسيين** الروس الذين لا يأخذون بالحسبان التطور التاريخي الخاص لبلادهم، وخاصة وجود المجتمعات الريفية التي تستطيع أن تخلق لنفسها- ربما- اشتراكية لا تنبع من تناقضات رأسمالية متطورة جداً، كرأسمالية إنكلترا. وذكر بأن مشروعه إنما كان وبشكل صريح وواضح لبلاد أوروبا الغربية حصراً.

وتحدث مراراً، وبشكل خاص في مقدمته لكتاب "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"، عن خصوصية نمط الإنتاج الآسيوي الذي ابتدأه بدراسة عن المجتمع الهندي. وقد نبذ المنظرون الروس هذا الاتجاه رسمياً باعتباره توجهاً **لاماركسياً**، من خلال المناقشات التي جرت في تفليس ولينغراد في عامي ١٩٣٠و ١٩٣١.

في حين أن **ماركس** قد مهد لدراسة أنماط الإنتاج ما قبل الرأسمالي، وأنماط الملكية في كتابه "مبادئ نقد الاقتصاد السياسي" ١٨٥٧-١٨٥٨، منطلقاً من المعلومات القليلة جداً أيام **ماركس** عن الحضارات غير الغربية.

مهما كان الرأي الذي نكونه عن استقراء **ماوتسي تونغ** لهذه الفرضيات مستبدلاً بشكل ضمني أو صريح، المصادر الغربية الثلاث التي استقى **ماركس** منها أفكاره. فقد استعاض بديالكتيك "ناو"، عن الفلسفة الألمانية، والأخلاقية الكونفوشية بدلاً من "حرية التجارة" عند **آدم سميث**، وبالثورات الفلاحية الصينية، بدلاً من الاشتراكية الفرنسية. لا نستطيع أن نعتبر ذلك معادياً **للماركسية** بل كمحاولة لعدم اعتبار الماركسية كفلسفة للتاريخ شبيهة بتلك التي عند هيغل الذي لم يعالج في تاريخه عن الفلسفة أي جزء من الفكر غير الغربي، بل بدأ مباشرة بدراسة الفكر الإغريقي.

من الضروري اليوم أن نجري من جديد نقاشاً جوهرياً للثقافة والحضارة الغربيتين، ومسلماتهما ودورهما في تدمير الثقافات الأخرى، انطلاقاً من الفكرة

الشريرة "للشعب المختار" (الذي يرفض الآخر، بل وحتى يلغيه). لقد حاصر الغرب نفسه بإنكاره الآخر أو تدميره الأشكال الأخرى للإنسانية. إن انحطاطه النهائي سيضع موضع الفناء حتى مستقبل الإنسان.

لقد اكتمل زمن الحوار الثقافي الذاتي عند الغرب، وانتهى زمن انشقاقه عن الآخرين، وسيطرته.

واليوم، جاء زمن الحوار بين الحضارات، إذا شاء الإنسان أن يتخطى دون أن يموت، العتبة الثالثة من تاريخه.

كانت العتبة الأولى ولادة الإنسان مع الأداة، وكانت العتبة الثانية ولادة الحضارة مع الزراعة، وأما الثالثة، فهي معالجة الذرة في قلب المادة ومعالجة الجينات في قلب الحياة.

يملك الإنسان الآن القدرة على إلغاء كل الإنجازات السابقة، ولديه القدرة التقنية لمعالجة الجينات، وكذلك إعادة الإنسان إلى حياة الحيوان التي كانها قبل اكتشاف الأدوات. لديه القدرة التقنية في معالجة الذرة للقضاء على كل أثر للحياة على الأرض.

أما أحلام السيطرة التي راودت مخيلة **ديكارت وفاوست** فهي تقود إلى عالم مجلل بالعار، واستنفاذ المصادر الطبيعية.

أما دوغماتية **آدم سميث** فقادت إلى تحويل الإنسان إلى إنسان آلي **"روبوت"** فارغ، وإلى خداع العقول والقلوب.

أما الحضارات الأخرى، حضارات آسيا والهنود الأمريكيين، وأفريقيا وحضارة الإسلام، فقد عرفت وعاشت روابط أخرى مع الطبيعة والإنسان والإله.

والمشاكل المطروحة على مستوى الأرض كلها، تتطلب إجابات على مستوى الأرض أيضاً.

ولن نستطيع حل هذه المشاكل إلا إذا نجحنا بإعادة الملامح الإنسانية التي مزقتها أربعة قرون من الاستعمار والهيمنة الغربية. لن نستطيع حلّها إلاّ إذا نجحنا في تطوير حوار حضارات حقيقي بين كل ثقافات العالم.

والهدف الرئيسي لحوار الحضارات هذا، هو المساهمة في تحقيق الوعي (ليس بين عدد قليل من المختصين أو المشتغلين بالفلسفة، إنما بين الجماهير الشعبية الواسعة)، بالمشكلات العالمية الراهنة والتي نتج أهمها من السيطرة الغربية المطلقة ومنذ زمن طويل، والوعي بأن حلها لا يمكن أن يتم إلاّ بالحوار مع الحضارات غير الغربية، من أجل إنجاز وإحياء علاقات جديدة بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والإله.

هكذا فقط، نستطيع أن نبدأ استشراف ثقافة كونية، مؤسسين وحدة إنسانية حقيقية، ليس بالخلاّط الكهربائي، ولكن وفق مفهوم التخلي عن فكرة الهيمنة الثقافية، من أجل التناغم الثقافي الشامل.

الهوامش

- **بابوف (١٧٦٠-١٧٩٧)**، ثوري فرنسي أعدم بسبب تآمره على حكومة المديرين. تقترب أفكاره من الشيوعية من خلال اقتراحه تأسيس نظام تعاوني للأرض.

- **شامبيني.**

- **شاتوبريان (١٧٦٨-١٨٤٨)**، كاتب فرنسي شهير تأثر بأفكار الثورة، وشارك في حرب الاستقلال الأمريكية.

- **لويس فيليب (١٧٧٣-١٨٥٠)**، ملك فرنسا (١٨٣٠-١٨٤٨)، تخلى عن العرش إثر ثورة ١٩٤٨.

- **نابوليون الثالث (١٨٠٨-١٨٧٣)**، أصبح امبراطور فرنسا بين عامي (١٨٥٢-١٨٧٠)، ومارس سلطة مطلقة بين عامي (١٨٥٢-١٨٦٠). حارب بسمارك وأسره الألمان عام ١٨٧٠.

- **لويس فايو (١٨١٣-١٨٨٣)**، كاتب وصحفي فرنسي، رئيس جريدة يونيفرس التي جعل منها لواءً للتعصب الكاثوليكي.

- **مشيل بازين (١٨١١-١٨٨٨)**، مارشال فرنسا، أسر في معركة ميتز، ثم حكم عليه بالإعدام عام ١٨٧٣.فرّ من فرنسا والتجأ إلى مدريد.

- **جورج كليمنصو (١٨٤١-١٨٢٩)**، سياسي فرنسي أصبح رئيساً للوزراء مرتين. قاد فرنسا إلى النصر في الحرب العالمية الأولى.

- **أنطون دنيكين (١٨٧٢-١٩٤٧)**، أحد قادة روسيا البيضاء، حارب الثورة البلشفية وخاصة في أوكرانيا (١٩١٩).

-البارون رانجل (١٨٧٩-١٩٢٨)، جنرال روسي خلف دينيكلين في قيـــادة جيش الروس البيض (١٩٢٠). حارب الجيش الأحمر في أو كرانيا وكريميو.

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل السادس

الفصل السادس

أحلام الغرب وأكاذيبه

إنه الطريق العريض لتتخلص الشعوب التي خضعت طويلاً للغرب، من قوانين تنمية خارجية وغريبة عن ثقافتها الخاصة، ومفروضة من الاستعمار.

وليس المطلوب أن ننكر إسهام الغرب، إنما المطلوب أن نعطيه مكانه الصحيح، كل مكانه، ولكن لا شيء أكثر من مكانه، وبشكل خاص أن يسخّر بشكل خاص قوة العلم والتقنية لخدمة غايات إنسانية.

وهكذا فقد نستطيع أن نتواصل وبشكل إنساني، الملحمة الإنسانية التي بدأت قبل ثلاثة ملايين عام.

وقد كتب رجل فضاء، وطأت قدماه تراب القمر، عند عودته إلى الأرض: "بدت الأرض من هنا جميلة ومضيئة.. بدت موحدة وهادئة".

للمرة الأولى لمحتُ عين بشرية الأرض في كليّتها، دون حدود تقسمها، سابحة في فضاء لا نهاية لآفاقه.

أننجح في التشبث بها في الوقت المناسب؟ في وحدة تاريخها؟

منذ فجر الحضارات الأولى، منذ عمليات التوهج الأولى في الفكر والحب، إلى أملنا الحاضر ومشروعنا للوحدة الإنسانية؟

يمكن لنا منذ الآن كي نغيّر جذرياً العلاقات الاجتماعية:

– أن نخلق نمواً جديداً، غير النمو الذي يسحق البشر، وحرياتهم، نمواً لا يقود بعد الآن إلى مزاعم "توازن الرعب"، التهديد الرئيسي لأمن الشعوب وسلامها.

المطلوب نمو نوعي لا كمي، يشبه حلم الأم بنمو طفلها، أو حلم كل منا، فيما يتعلق بالذين نحبهم. المطلوب نمو بالمعنى الذي قصد إليه القديس **غوريغوري دونيس** عندما قال: "الله هو الاكتشاف الأبدي للنماء الأبدي".

- أن نفتح أبواب أوروبا للعالم، للعالم الثالث بشكل خاص، مع الإصغاء للحضارات الأخرى، لأن المشكلات التي تنتج عن النمط الغربي للتنمية، أصبحت مشكلات العالم كله، ولن تحل إلا بالاهتمام بثقافات وحكمة شعوب العالم الثالث. إنه أحد الشروط الجوهرية لقيام سلام حقيقي لا يشوبه ظلم أو سيطرة.

- أن نجري تبديلاً جوهرياً في علوم التربية والتعليم، وتسخيرها لتكييف الإنسان لا لحاجات النظام القائم، بل لبناء المستقبل، ويجب من أجل ذلك تعليم الطفل أن العالم ليس حقيقة مكتملة وقبلية، ومتصلبة، ولكنه عمل علينا نحن صياغته.

نعتقد أن الواجب الأول للمثقفين، هو إزاحة القناع عن اللغة الكاذبة للكراسات المدرسية، ووسائل الإعلام التي تخدم الغرب، كي يحقق سيادته بواسطة أيديولوجيات خداعة تحت اسم "الحداثة".

ليس هناك مسلمة واحدة من هذه المسلمات التي يزعم أنها عصرية إلاّ كاذبة، وفي المقدمة منها مسلمات الديمقراطية، والدفاع عن حقوق الإنسان، والحرية .

كانت الديمقراطية دائماً، خدعة الأقلية التي تملك العبيد والثروات.

وما يسمونه "الديمقراطية الأثينية" في زمن **بيركلس**، ويقدمونها لنا مثالاً يحتذى، "مثل ديمقراطية المرسيدس"، كانت في حقيقة الأمر حكومة تمثل عشرين ألف مواطن حر، مقابل مئة ألف عبد محرومين من كل حق. كان المطلوب تراتبية مبنية على الاستعباد، عمدت على أنها ديمقراطية.

إنـــها ديمقراطية الأسياد، ولا ديمقراطية للآخرين.

نادى إعلان "استقلال الولايات المتحدة" بالمساواة في حقوق كل البشر، وبعـد هذا الإعلان المهيب، حافظت الولايات المتحدة ولمدة قرن كامل على الرق. أمـــا التمييز العنصري ضد السود فما زال قائماً حتى يومنا هذا.

إنـــها ديمقراطية للبيض فقط، ولا ديمقراطية للسود.

أما إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي صدر عن الثورة الفرنسية، فقد أكـد بكل شموخ أن "كل الناس يولدون أحراراً ومتساوين في الحقوق"، ولكن الدسـتور الإقطاعي الذي شكل الإعلان مقدمة له، استبعد من حق التصويت ثلاثة أربـــاع الفرنسيين لأن فقرهم جعل منهم "مواطنين سلبيين".

إنـــها ديمقراطية الأغنياء ولا ديمقراطية للفقراء .

ونجد الموقف نفسه في ميدان حقوق الإنسان.

لقد جرى تعداد هذه الحقوق في "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" الذي صـدر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٨. كانت كل هذه الحقوق تعابير متناقضة بشكل جلي مع الواقع، وسنكتفي بإيراد مثالين فقط:

- المثال الأول يتعلق بإعلان "حق العمل"، بينما يخلق النظـــام القـــائم ملايـــين العاطلين عن العمل، ولا يتوقف عددهم عن الازدياد.

- المثال الثاني، هي المادة التي تتحدث عن "حق التصويـــت"، بينمـــا نـــرى أن الحساب المصرفي، قد حل محل بطاقة الانتخاب، ليس فقط في الولايات المتحـــدة، حيث تكلف الحملة الانتخابية المرشح إلى مجلس الشيوخ أو النواب ..٥ مليـــون دولار، بل في الكثير من البلدان حيث تسمح الثروة بشراء الأداتين الضرورتـــين

للوصول إلى السلطة: وسائل الإعلام بقصد التلاعب بـالرأي العـام، وصناعـة السلاح لقهر الرأي العام كحل أخير.

ويقولون عن هذا "الإعلان" أنه "عالمي"

ويستطيع كل الناس الأدعياء أنـهم يعملون وفق حقوق الإنسـان: المسـاواة الكاملة أمام القانون، فالعاطل عن العمل والمليادير، كلاهما يتمتعان بحق متسـاوٍ في تأسيس صحيفة أو سلسلة من المحطات التلفزيونية. وتتجلى هذه المسـاواة مـرة أخرى أمام القانون عندما نعلم أن كليهما ممنوعان من سرقة رغيف خبز، لأنـهما سينالان نفس الجزاء.

هؤلاء الذين يدَّعون لأنفسهم أنـهم المدافعون عن حقوق الإنسان على امتداد العالم كله هم الأكثر إرهاباً في العالم، والأشد انتهاكاً لحقوق الإنسان، ليس فقـط من خلال ماضيهم البعيد "مجزرة هنود أمريكا، معاهدات الرقيق الأسود، الاستعمار بشكل عام" وإنما أيضاً من خلال جرائمهم حديثة العهد، كما جرى عندما أمطروا أرض فيتنام **بالنابالم**، وزودوا بالمال والسلاح والمدربين، **جلادي رواندا**، وكمـا جرى في العراق، حيث يتحملون مسؤولية موت ٤٠٠ألف إنسان، وهم المذنبـون الحقيقيون في وفاة ٢٥٠ ألف طفل في المستشفيات في أقل من خمس سنوات "أرقام منظمة الصحة العالمية"، وفي وفاة عدد مماثل خارج المستشفيات بسبب اسـتمرار الحصار على العراق.

بـهذا المنطق اجتمع رؤساء مجموعة السبعة، وهي الدول الأكثر غنى في العالم، في **ليون** ١٩٩٦، لمحاربة الإرهاب، برعاية الولايات المتحدة، ولن تكـرر ذلـك كثيراً، فأولئك الذين يريدون فرض نمط التنمية الليبرالية على العالم، يعـادل هـذا النمط، وفاة عدد مشابه لضحايا **هيروشيما** كل يومين.

هؤلاء الأساتذة الغرباء عن الأخلاق، يعطون العالم مثالاً للأصولية الأكثر تطرفاً.

تعني "الأصولية" الزعم بامتلاك الحقيقة المطلقة، وبالتالي، ادعاء الأصوليين بحقهم "بل بواجبهم" في فرض هذه الحقيقة على الآخرين. وأكمل مثال على الأصولية هو الاستعمار، إذ تحرك المستعمرون تحت راية زعم مزدوج:

أولاً التبشير بالنصرانية لفرض مفهومها الخاص عن الدين على العالم. وقد حمل العسكريون والتجار مسؤولية ما تبقى وهو المجازر والاستغلال. وبعد ذلك، وبعدما تراجعت مقولة التبشير، زعموا بأنهم يحملون "الحداثة" إلى العالم.

وعندما توحد الاستعمار تحت قيادة الولايات المتحدة، تبين أن "النظام العالمي الجديد"، ليس إلاّ تكراراً للفوضى الاستعمارية القديمة، والتي أطلق عليها منذ ذلك الحين "الليبرالية الاقتصادية الشاملة"، والتي أعطت فاعلية أكبر للهيمنة على العالم، وإهلاكه، بطرق اقتصادية "دون استبعاد التدخل العسكري". وأصبحت إسرائيل بعد إلغاء التمييز العنصري في اتحاد جنوب إفريقيا وهي في الأساس أحسن حليف لهذا النظام، أصبحت الممثل الأخير للاستعمار التقليدي، أي العنصري.

أما الأصوليات الأخرى فقد نشأت من خلال انتفاضات ضد الأصوليات الغربية الأساسية، وضد المتواطئين معها "من إسرائيل حتى السعودية ومن إيران الشاه حتى زائير **موبوتو**". وكانت الثورة الثقافية في الصين المثال الأول لرفض كلي للغرب بكل أبعاده "بدءاً من الضغط الوحشي حتى موسيقى **بتهوفن** التي اعتبرت برجوازية".

وكانت إيران الخميني قد شكلت ظاهرة مماثلة في رفض نظام حياة غريب على ثقافتها التي تعود إلى آلاف السنين.

وتعتبر كل الأصوليات الأخرى، بتطرفها، وأحيانا بلغتها المهجورة، ردود فعل على الأصوليات الغربية الأساسية، دفاعا عن هويتها. غالبا ما كان رد الفعل هذا

عودة إلى الماضي لأنـــها تحلم في مواجهة الغزو الثقافي، بعصر ذهبي سابق على هذا العدوان، ونادراً ما نتجه نحو المستقبل وفق مشروع حقيقي.

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل السابع

الفصل السابع

الحضارة ومعتقدات العوالم الأخرى
لاهوتيات التحرير

تعتبر مشكلة الإنسان ـــ لا مشكلة إجمالي الإنتاج الوطني ـــ هي إحدى أصعب المشكلات التي تواجه البلدان غير الغربية، لاكتشاف المبادئ الأساسية لإنجاز تنمية حقيقية. وهي مشكلة استعادة الثقافات المتوقفة بفعل خمسة قرون من الاستعمار، والتي أعطت هذه البلدان عظمتها الأولى، وهي قادرة اليوم أن تعلمنا كيف نبني حضارة مؤسسة على علاقات أخرى ـــ غير العلاقات السائدة حتى الآن ـــ مع الطبيعة، والإنسان، والله.

أولاً، في علاقاتنا مع الطبيعة: فبدلاً من اعتبارها مخزناً ومستودعاً، مخزناً نستطيع أن نستخرج منه بدون نهاية، مصادر الطاقة والمواد الأولية، ومستودعاً لفضلاتنا، علينا أن نستعيد شعورنا بان الطبيعة، ليست جزء منا، بل نحن جزء منها.

ذات يوم، قال لي صديق أفريقي أسود: تعود الطبيعة إلى مجتمع كبير جداً، مات جزء منه، وجزء مازال حياً، وجزء ثالث لم يولد بعد، نحن مسؤولون أمام الجميع.

ونحن؟ أنفكر بأحفادنا الذين عليهم بعد قرون أن يحموا أنفسهم من أشعاعات مخلفاتنا الذرية.

أجاب زعيم هندي أمريكي من إقليم "**ميلك ريفو**" القريب من حدود **مونتانا**، أجاب الغزاة الأمريكيين الذين حثوه للإسراع بتوقيع "ميثاق إقليمي" من أجل التخلي عن الأرض:

"مازال هناك وقت طويل تتـــألـــق فيه الشمس، وتجري الأنــــهار، وتبقـــى الأرض، لتهب الحياة للإنسان والحيوان. ربما تفكرون أن الخالق قـــد أرســـلكم، لتنظيمنا حسب إرادتكم، ولكن افهموا جيداً سبب حبي للأرض. أنا لم أقل أبداً أن هذه الأرض ملكي أستخدمها على هواي. إنما وُضعتُ هنا من قبل الروح العظمى لخدمتها، ولذلك لن نستطيع بيعها لأنـــها ليست ملكنا.

في نظام يباع فيه كل شيء ويشرى، أين نحن من هذا الاحترام للطبيعة والإله؟

وفي لوحة صينية تعود لعصر **سونج** (القرن الثالث عشر)، نعيش تحت تأثير مبدأ "**تاو**": "أن تكون واحداً مع الكل"،إن شبكات الأنـــــهار وسلاســـل الجبـــال، والغيوم، والأشجار، وهذا الإنسان الضئيل في سلّم الأحجام، كل ذلـــك يعطينـــا الإحساس أن ما يحيط بتفاصيل اللوحة ليس العين الجيومترية للإنسان الغـــربي، لأن المشهد يمثل رمزاً مرئياً لعالم بأكمله، مع قوى تأتينا من كل أنحاء اللوحة، فنغـــوص في نوع من الشمولية الكونية، تقرب من الصلاة عند رسامي اللانـــهاية.

ماذا يبقى في حياتنا، وفي الفنون التي يسمونـــها معاصرة، من هـــذه المشـــاعر الغامرة؟!

وفي علاقتنا بالآخر، فقد اكتشفنا أنه إلى جانب "الأنا" الصغيرة، وهي مركـــز ومقياس كل شيء، هناك الإحساس بالوحدة، أي بالشمولية الإنسانية، التي يشـــعر فيها كل إنسان أنه مسؤول عن مصير جميع الآخرين.

كانت تجربة أربعة شهور قضينها في كوخ صغير، على الحـــدود بـــين غينيـــا والسنغال، على بعد ألف كيلو متر من الشاطئ، حيث لا يسكن المنطقة مســـيحي أو مسلم، بل من نسميهم، لافتقارنا لمفردة أخرى "بالحيويين"، قد تركت في نفسي أثراً عميقاً جداً. وحتى في باريس، تدلنا معاشرة المجموعات المهاجرة من المغاربـــة

والسنيغاليين، على ما بقي لنا أن نتعلمه منهم، طالما أن المساعدة المتبادلة، والمجتمع الانساني، يكملان "الكرم" المؤسساتي لمنظماتنا.

أما علاقتنا مع الله، فنحن بحاجة لإيمان الآخرين، وكذلك لشكهم وكفرهم، كي نتحرر من آلهة القوة، الملوحة بالصاعقة مثل **زيوس وجوبيتر** أو آلهة الحرب مثل السهاف، وكل الأصنام المتشبهة بالأله، مثل آلهة المدن القبلية أثينا، أو الآلهة الصغار التي تهب النصر ـ أو تأمر بالمجازر لحماية "شعبها المختار" من الآخرين. إن هذه الآله القبيلة تتوعد بالجحيم من يعصيها وبالنعيم من يطيعها.

أما المسيح الآسيوي فقد ظهر كشهادة إلهية على القدرة والعوز، والانفصال الجذري عن كل الآلهة السابقة، ولترديد أصداء كل حكمة الشرق: حكمة كتاب "فيدا" الذي ابتدئ بكتابته انطلاقاً من الألف الثاني قبل الميلاد، والذي مكّن حكيماً هندياً أن يقول: إن ديانتنا "الفيدية" الخالدة، هي منبع كل الديانات، وكل الثقافات وكل الحضارات.

وقال الأب **الجزويتي مونشانان** عن الفيدا : إنه "الترنيمة الطقسية المطلقة"، لأنها تعلن أولاً عن وحدانية الكون كله، وتوحد الانسان مع الله.

وتصدح ترانيم الفيدا: "أسماء الله كثيرة، ولكنه واحد". إنها تسبّح بوحدانية الله، ووحدة الكل، منذ ألفي عام قبل كل الحركات الروحية الأخرى. إن ترانيم الفيدا وتفاسيرها في كتاب "**الأوبانيشاد**" الذي ظهر بعد الفيدا بقرون ليعبر عن نفس الرؤيا، إنما هي استبطان للإنسان المسكون بالإله: "أنت ذاك" أي إن "البراهمان" وهو الوحدة الكلية وهو ما ندعوها لله يوجد بكليته في الانسان، إن "الأنا" الأكثر عمقاً فينا، تتطابق معه والبراهمان أبعد مما يكون وما لا يكون، إنه في أعماق كل ما هو كائن، وخارج كل ما هو كائن، شأنه شأن الملكوت الذي وعدنا به المسيح، هذا الملكوت الذي لا ندخله بالغزو وإنما بالزهد.

ونفس التعاليم يحملها إلينا "الريشيس"، أي زهاد الهند الذين يحثون على نبذ كل ما هو خاص بنا، كل ما هو "ملكيتنا": أي رغباتنا الجزئية، وأشياؤنا التي تجعلنا نشعر بالرضى، وذلك كي لا نعمل إلا بما هو الحقيقة الباقية في العالم: الوحدة المطلقة، وهي كائن لا يمكن تجزئته، وضمير، وبهجة علوية. هذه الصيغة الأولى للثالوث: صمت الرب، الأب غير المرئي، ثم كلام الرب، الابن، الذي أصبح مرئياً عن طريق حياته وكلامه وأفعاله، وكل ما نستطيع أن نعرفه عن الإله غير المرئي، المحتجب، وأخيراً وجود الله، الروح التي جعلت من كل إنسان وعداً من الله، الذي جعل من نفسه بشراً، لكي يستطيع الإنسان أن يصبح إلهاً، كما قال آباء الشرق.

كتب طاغور:

"إن الحالة، التي تتحقق فيها اللحمة مع الجميع وتنفذ إلى كل الأشياء، من خلال الاتحاد بالإله، هي الهدف الأسمى، واكتمال الانسانية"

هذه هي أيضاً رسالة "التاوية الصينية، مستبعدة كل ثنائية، وقد كتب تشوانج تسو في القرن الرابع قبل الميلاد: "كل الكائنات وأنا، كنا في الأصل واحداً. أن تكون واحد مع الكل".

هذا الايمان، الوجه الداخلي لكل عمل إنساني بحت، ونعني بذلك أنه ليس له من دافع إلاّ خدمة "الكل"، متخلياً عن كل رغبة جزئية (ويسمى اللاهوتيون ذلك knenose). سواء كانت رغبة تتصل بالشخص نفسه، أو بجماعة جزئية: كالعرق، أو الأمة، أو الكنيسة أو الحزب. وتعتبر هذه الفكرة نقيضة للمفهوم القبلي، للشعب المختار" في العهد القديم، الذي حطمه المسيح بشكل جذري. هذه هي اليقظة التي كان بوذا شاهداً عظيماً عليها.

ولقد ربطت إرادياً، دعوات الحكمة السابقة هذه برسالة السيد المسيح في حياته ومماته، لأنه الأقرب إلينا منها، وأقرب في إيمانه الموحد للبشر، لقد جسد هذه الحكمة في شخصية واحدة. شخص واحد غيرتنا محبته، وأعطت معنى لحياتنا. كان

موته بعثاً لكينونتنا. وقد كتب أحد الروحيين البيزنطيين: "أنا أحب، إذن أنا موجود".

المسيح هو أولاً التخلي عن الذات، والتخلي عن انتماءاتنا الجزئية والقطيعة المطلقة: أولاً مع "العهد القديم" الذي نقض ناموسه كله. أضف إلى ذلك بأننا ندرك أن القديس بولس الذي لم يرجع إليه في حياته وأعماله وأقواله و لم يبدأ الإهتمام به إلا بعد موته محولاً صليبه إلى مركبة للنصر وقيامته معجزة القدرة الإلهية كي يعيد في رسائله السابقة على الأناجيل بناء هذه الحياة انطلاقاً من مقطع في العهد القديم وكأنه- أي المسيح- لم يأتي لنا بجديد. "لقد تنبأ الأنبياء وموسى بمن عليه أن يأتي وأنا لا أقول شيئاً بعد ذلك"، وكأن المسيح كان سعيداً أن يلعب دوراً في سيناريو كتبه الأنبياء. إن مسيح بولس، ليس يسوع. فالمسيح إنما هو ترجمة يونانية للمسيا اليهودي الذي توجب عليه إعادة بناء مملكة داوود. ولهذا توجب عليه إذن أن يكون سليلاً ومكملاً لداوود هذا، الرئيس الحربي لعصبة من المرتزقة الذين يروي لنا سفرا صاموئيل والملوك انتهاكاتهم الدامية وأعمال الدناءة التي ارتكبوها.

ليس يسوع داوود جديداً ولا هو ابن رب (الجنود). وليس الحب الذي وعظنا به انحيازاً لثأر العهد القديم، ولا حتى تضامناً قبلياً كما جاء في سفر اللاويين حيث يحب كل واحد الآخر إنما في حدود القبيلة فقط، كما يؤكد التلمود. عندما شرح كلمة "قريبك" في إطار التشريع في الكتاب المقدس، حدد التلمود أنه يعني الإسرائيلي فقط لأن النص الكتابي يقود إلى هذا التفسير.

وسيكون هذا كما قال يسوع أمراً جديداً لأنه لم يظهر في ألواح موسى. هذا التحويل من "حقير جداً" إلى "سام جداً" لقائد حربي ومن أسلوب داوود ويوشع، سيجعل من المسيحية يهودية مصححة، ومن يسوع إكمالاً لوعد قطع

"للشعب المختار" وهكذا ستمحى الجدة الجذرية لرسالة يسوع من خلال مسخ حياته البائسة المتواضعة عن طريق تمجيد وظيفته كمسيح، حاملة خاتمة منتصرة للتاريخ اليهودي.

وكتب المفسر الكبير "**داوود**" في كتابه (**مؤسس المسيحية**) ما يلي: "تترافق المسيحية اليهودية بدور سياسي وعسكري" لإبن" **داوود**، وآخر ما كان يتمناه المسيح أن يلعب هذا الدور".

ويضيف في كتابه الثاني "حِكَمُ مملكة الرب": "ليس لكلمات **يسوع ما** يوازيها في التعاليم اليهودية، ويجب أن لا تعتبر رسالة يسوع وكأنها محاولة لتصحيح اليهودية، فهو يحمل رسالة جديدة تماماً، لا يمكن توافقها مع النظام الموروث آنذاك".

وقال **آلبرت سُتوفر** وهو شارح آخر يعمل في كلية لاهوت **زيوريخ**، بلغة أكثر تطرفاً "يبلغ يسوع رسالة جديدة من الله، ديانة جديدة، خلق جديد، لا رابطة بينه وبين **التوراة**. "من كتاب **يسوع** وتاريخه".

وكتب لاهوتي آخر هو **جونزالس ماوس**: "إن الرب الذي دعى له يسوع، غير الموجود في العهد القديم".

أما بولس الذي أعاد تهويد المسيحية، فقد كان السلف لكل الذين ربطوا بين الكنيسة والسلطة منذ القرن الرابع الميلادي: الصليبيون، ومحاكم التفتيش، والاستعمار الذي أخذ صيغة "التنصير" والتعاون مع **فرانكو**، وكذلك مع بيتان، وما سمي بالإصلاح "الإحياء" الذي تعارض مع الانفتاح النبوي للفاتيكان، وإدانة لاهوتيات الحرية التي هي— ربما — أحد أعظم الآمال في عصرنا، لأنها تحقق السمو الإلهي بعد أن توقفت عن التفكير بمصطلحات خارجة عن وعي الإنسان، والتي تعفيه من مسؤولياته أمام الله الذي ينظم من خارج ومن أعلى، مصائر البشر.

وعلينا الاعتراف أن التجارب التاريخية لبناء الاشتراكية والتي حملت إسما مغتصبا هو **الماركسية** قد فشلت. وإلى جانب إخفاق الإنسان فإن الخطأ النظري الرئيسي لما يسمونه "الاشتراكية التاريخية" يكمن في الزعم أنه بالإمكان تحرير الإنسان عن طريق تجريده من"بعده المتعالي".

لكن لاهوتيات التحرير لم تشاطر هذا المفهوم رأيه في التقليل من قيمة الإنسان. إنها تشارك في القناعة أن كل معركة في سبيل التحرير، تحتاج إلى الكثير من التعالي، أكثر مما تحتاج إلى الحتمية.

لقد فتحت هذه اللاهوتيات طريقا جديدة لاتحاد لا ينفصم بين الإيمان والتاريخ.

وبنفس التوجه، تذكر هذه اللاهوتيات الأفراد، بتعالي التاريخ، وتذكر أفرادا آخرين بالبعد التاريخي للتعالي. وبهذا الشكل تجاوزت ثنائيتين مقلوبتين ونمطيتين تسدان الطريق أمام الحرية المطلقة للإنسان: الأولى: بالتعالي الذي ينظر إليه كخارجية أخروية مقللة بذلك أهمية الصراعات التاريخية للإنسان، والثانية إلتزام بالتاريخ دون مرجعية مطلقة.

فقد قادت هاتان الثنائيتان الجزئيتان في الغرب إلى عجز مضاعف: عجز المسيحية عن الفهم التاريخي للحركات الأساسية لتحرير الإنسان، والعجز الناتج عن فشل أولئك الذين حاربوا في تاريخ مغلق.

وبذلت لاهوتيات التحرير الجهد المعاصر الأكبر لوضع نهاية لهذا الطلاق.

وليست صدفة تاريخية أن لاهوتيات التحرير هذه قد ولدت في البلاد التي سادها الاستعمار.

أولاً: أمريكا اللاتينية، هذا الأديم الإنساني الذي تشكل من المجتمعات الأصلية، حيث ترعرع الوعي لدى المجتمعات الأكثر فقراً، بأن الكائن الفقير ليس كائناً

أبداً.وكان مفهوم للحب، قد حوّل مأساة سحق الجماهير كشرطٍ لفني بضعة أفراد إلى نوع من التجريد، ضمن استمرار الوضع القائم.

انطلاقاً من هذا الوضع التاريخي الواقعي، الذي وجد بأكثر ما يكون حدة في أمريكا اللاتينية وإفريقيا، تعهد لاهوتيو الحرية في كنيسة تابعة للمجتمع الديني للفاتيكان، والبابا يوحنا الثالث عشر، اللذين جاءا الفتح العالم بغية خدمته وليس لحكمه، تعهدوا بفك رموز هذا العالم على ضوء أوامر السيد المسيح، من أجل أولئك الذين أرادوا أن يتبعوه: التخلي عما يملكون ليس فقط لنجدة الفقراء، بل ليجعلوا من أنفسهم فقراء بين الفقراء، الفقراء بالمعنى الأكثر عمقاً للكلمة: أي الذين ألغتهم جسدياً الطبقة المسيطرة والمستلبة روحياً عبر الأيديولوجيا المهيمنة.

وتأكد هذا "الاختيار الذي أخذ جانب الفقراء"، بفضل لا هويتي الحرية، عام١٩٦٨ **في ميدلين ـــ كولومبو**، عند انعقاد المؤتمر الاستثنائي لأساقفة القارة في المجلس الأسقفي لأمريكا اللاتينية. وقد مزّق الاجتماع خدعة قاتلة وهي أنه باسم الحياد السياسي للدين والحب، جرى ضمان إبادة الهنود، واسترقاق السود، واليوم يضمن انقسام العالم بين أقلية من المالكين، وغالبية من المستعبدين.

هذا الوعي لوضع تاريخي محدد على ضوء تعاليم السيد المسيح، وكذلك الوصول إلى موقف لمحاربة اللامعنى، في عالم سخرت فيه الغالبية من صورة الإله على الأقل في العالم الثالث (ولكن ليس هناك فحسب)ـ قد قادا إلى قراءة جديدة للأناجيل، وإلى قلب جذري للمسيرة اللاهوتية التقليدية في الغرب. فبدلاً من الادعاء باستنتاج عقيدة اجتماعية أو سياسية من نصوص الأناجيل، دون الأخذ بعين الاعتبار الحقائق التاريخية لكل حقبة، فقد انطلقوا من هذا الوضع التاريخي الواقعي، كي يحلوا رموز المعنى على ضوء رسالة يسوع، التي اعتبرتها السلطات الدينية والسياسية في زمانه، مدمرة جداً مما قاده إلى الصلب.

تمثل هذه الثغرة الفريدة التي فتحها السيد المسيح في تاريخ الانسان، النموذج الخالد للتعالي المعاش في التاريخ.

وتمثل كتب "لاهوت الحرية" للأب **جوتيريز في البيرو** ، و"المسيح محررا " للأب **ليوناردو بوف** من البرازيل، و"تاريخ لاهوت الحرية" **لأنريكو دوسل** من الأرجنتين، نقاط علام بارزة في مسيرة إعادة البحث هذه في عملية القلب العظيمة في فهم رسالة السيد المسيح.

ونلاحظ أن نقدهم **للماركسية** هو الأعمق، إذ ليس هناك من نظرية قد فندت بمنتهى الجدية واستخرج منها آخر نقطة من الحقيقة التي تحملها، وأعمق جذور الأخطاء فيها، مثلما جرى للماركسية.

وقد ولدت **الماركسية،** شأنها مشاريع **اليوتوبيا** الاشتراكية التي سبقتها، في القرن التاسع عشر، وفي السياق التاريخي للثورة الصناعية، حيث أسبغت المظاهر التقنية على الرأسمالية لباسا أسطوريا على شاكلة **فاوست أو بروميثيوس** ، وإيمانا مسيحيا بالتقدم. هكذا دفع إلى الظل ملايين من البشر المسحوقين في المدن التي جعلتهم ضحاياها، حيث يمسخ الانسان إلى زائدة، ملحقة بآله أو بالسوق.

ويسمح لنا هذا الإختيار وحده أن نعطي معنى لحياتنا، عن طريق تحميلها مسؤولية قهر الانحرافات المميتة.

ولا تحدد لاهوتيات الحرية هذا التعالي باعتباره مسلمة لكل عمل تحريري، وكأنه مسألة خارجية، بل كإمكانية دائمة للإنقطاع عن الماضي وتجاوزه. وقد أعطانا يسوع النموذج المطلق، عندما كرس حياته وموته للصراع ضد أشكال الهيمنة التي أعطيت صفة التقديس. ولكن القراءات التقليدية للرسالة الإلهية قد جرت من "أعلى"، من قبل أصحاب النفوذ الأقوياء.

إن قراءة اللاهوتيين للحرية، إنما هي قراءة من "أسـفل"، أي انطلاقاً من المحرومين، من أولئك الذين يعملون، ويعانون، ويعيشون ويموتون دون أن يعرفوا هدفاً لعملهم ومعاناتهم، وحياتهم وموتهم. والمستقبل عند هؤلاء هو الأمل الوحيد لهم بالبعث، أي الإنتقال من ممر الموت إلى الحياة الحقيقية، حياة تحمل معنىً وهدفاً.

ولا يكون ذلك في "الإطلال" عليهم من فوق، وإنما بالتحول ليصبح المرء واحداً منهم، يشاركهم وجودهم وآلامهم، ولا يكون في أن يعيش اللاهوتي، لاهوتيته وكأنها حرفة حرة وإنما كشاهد مجند للرسالة التي واجه المسيح الموت من أجلها.

وما هو جديد، وما هو باعث للقوة، في لاهوتيات الحرية، العثور على ما هو ضروري لهذه الرسالة التي لا بديل لها، والتحرك حسب ندائها. فالأب **غوستاف جايتيريز** في كتابه "لاهوت الحرية" يرى في رمز الحساب الأخير الذي يشير إليه **ماثيو** "خلاصة الرسالة الأنجيلية"، فنحن لن نحاسب في محبتنا للآخرين، وفق قلنون أو حكمة، أو حتى من خلال إيمان لا يتفتح في شكل عملٍ حدده المسيح: أن نطعم الجوعى، ونكسي العراة، ونكرم الغريب. وقد جاء في إنجيل متى:

"في كل مرة تفعل ذلك من أجل واحد من هؤلاء الصغار فإنما تفعلها لأجلي (٢٥-٤٠)".

يقول الأب **غوتيير**: إن هذه الدعوة الإنجيلية تتحقق انطلاقاً من اختيار مبدئي، وهو الانحياز للفقراء: أي الصراع ضد كل أشكال الظلم والافساد والاستغلال، والمشاركة في خلق مجتمع تسوده أخوة وإنسانية أكبر. إنه يعني أن نعيش حسب يسوع وشهادته.

ويضيف: "فقط أولئك الذين يضعون الإنجيل في خدمة الأغنياء، سيرون في هذا الموقف قهراً سياسياً".

طرح **لاهوتيو** الحرية مسألة رئيسية: إن التحول الجذري الذي يحتاجه العالم كي يتجاوز اللامساواة والعنف الذي يتولد عنها، لا يمكن أن يتحقق وفق آيديولوجية حتمية، سواء عن طريق "التقدم" لدى الليبراليين أو نقيضه الديالكتيكي عند "أصوليي" الإشتراكية التي وصفت بالعلمية وهي في حقيقة الأمر اشتراكية وضعية "لأن العلوم تزودنا بأفضل الوسائل لكنها لا تعلمنا أن نضع الغايات الأخيرة للحياة".

لدينا كل الأمل في التغيير، مسقطين انحرافاتنا الجديدة، مستخدمين ما هو نقيض للحتمية، وهو التعالي، أي إمكانية الإنسان في قطع علاقته بالغايات الأخيرة التي يرسمها النظام القائم، أو بالأحرى غياب هذه الغايات.

والإيمان بالتعالي، هو برهان، مسلمة، تماما مثل الإيمان بالحتمية الكونية للتشابك الذي يكون فيه عمل لإنسان، حالة خاصة، ضمن حركة الأشياء.

وقد أخذ لاهوتيو الحرية مأخذ الجد، إعلان البابا الذي اعتبر فيه العالم أنه يعيش "وضع الخطيئة".

واعتبروا أن "حالة الخطيئة" هذه هي مفتاح كل تفكير سياسي أو ديني، ومفتاح كل عمل، لأنها قد شوهت "صورة الإنسان الذي خلق على مثال الله" عند الغالبية من الناس، وإيماننا بأن "الكل للكل". وليس التاريخ المقدس والتاريخ القصير جدا، إلا تاريخا واحدا للتحرير، يجتمع فيه الالهي والدنيوي في آن واحد.

إن الفصل الخادع بين خطة "الآخرة" وخطة التاريخ، يضع الانجيل في الحقيقة في خدمة الأقوياء.

وقد ترجم هذا التناقض في كنائس أمريكا اللاتينية بشكل أخاذ من خلال صورتين ليسوع ظهرتا على شكل لوحات أو تماثيل. كانت الصورة الأولى للمسيح المنتصر والسيدة العذراء بلباس ملك وملكة. أما الصورة الثانية فتمثل

"المسيح المغلوب" العاري والهزيل حتى برزت عظامه. تلك كانت صورة الغـــزاة والأغنياء والأقوياء، وهذه صورة الفقراء والمذلّين والمهانين.

وكتب الأب **ليوناردودوف:**

"وصلتنا شخصية يسوع مثقلة، محاطة بالألقاب والشروح الدوغماتيـــة....الـــتي تـــهدف لحجب أصالته وإخفاء وجهه الانساني، ونفيه من التاريخ بغية تحويلـه إلى أقنوم، وكأنه نصف إله يعيش خارج عالمنا.يجب على الإيمان أن يحرر شخص المسيا من الأغلال التي قيدوه بـــها وقللوا من شأنه. والإعلان بأن **يسوع**، هو المســـيح، السيد ابن **داوود**، ابن الله لن يشير إلا إلى ما يعتقدونه،إذا لم يهتموا مسبقاً، بمـــا تعنيه هذه الأسماء لنا في حياتنا...إن الإيمان بالمسيح لا يمكن أن يختصر إلى صيغ من الكلمات المهجورة، حتى ولو كانت جليلة، ولا إلى علم الـــتراث الانجيلـــي. إن الإيمان **بالمسيح**، بالمعنى الذي يتطلب عملاً يلتحم بوجودي، ويرسم لي منـهجاً في العيش بحيث تضاهي حياتي الشخصية والاجتماعية والكنسية والثقافية والشـــاملة حقيقة **المسيح**".

بـــهذه الطريقة فقط، يتوقف الدين عن أن يصبح أفيوناً واســـتلاباً. بـــهذه الطريقة فقط يصبح الإيمان خميرة المستقبل بوجه إنساني، أعني إلهي، عـــن طريـــق المشاركة في مجيء الملكوت. ويعتبر وضع نـــهاية لهذا الاستعمار الديني للاهـــوت الذي يقدم نفسه وكأنه إتمام للتاريخ اليهودي، أحد الوجوه الأكثر تجديـــداً قـــي لاهوت الحرية، بعد ما أصبح هذا التاريخ أوروبياً عبر الفلسفة اليونانيـــة، منظمـــاً حسب الطراز الامبرطوري الروماني. و لم تستطيع بقية العالم أن تتلقى رسالة **يسوع** الاسجينة هذه الثقافة الوحيدة التي تدعى أنه ليس هناك من "تـــاريخ مقـــدس" إلاّ تاريخ الشعب اليهودي، ولا لغة دينية إلاّ العبرية أو اليونانية أو اللاتينية.

وكما كتب "**انريكو دوسل**:"كانت الكنيسة المسيحية في أمريكا اللاتينية كمـا هي في أفريقيا وآسيا" استطالة لتاريخ البعثات التبشيرية".

ويضيف: الأوربيون، هم الذين "اكتشفوا" المسكونيين الآخرين، الذين وقعوا تحت السيطرة، بقوة السلاح والبارود والخيول والقوارب. وبقدر ما يكون المستقبل القريب شاملاً وحقيقياً، بقدر ما يكون المشروع القادم انسانياً، فهل سيعمل الأوربيون أنفسهم، على ازدهار مثل ذلك المشروع؟ أمريكا الهندية أمنا وأسبانيا أبونا، ولكن الطفل الجديد، ليس أمريكا الهندية ولا أسبانيا ولا أوروبا ولا الأنكا ولا الازتلك، إنه شئ جديد: ثقافة جديدة ومولّدة ومختلطة.

وهكذا ولد في أمريكا اللاتنية مفهوم متماسك عن الكون،، كانساً بذلك التوجه الشرير "للشعب المختار" الذي استخدمه الاستعمار باسم نشر المسيحية.

وامتد هذا التحرير إلى قارتين أخريين، كانتا تخضعان للاستعمار، أحياناً بواسطة التجارة وأحياناً بقوة السلاح، ولكنهما استعمرتا بشكل دائم روحياً بواسطة الكنائس.

وخلال القرون الخمسة التي مضت على السيطرة المستمرة للاستعمار الديني الذي تضمن فرض المسيحية على القارات الثلاث من خلال صيغ ثقافية ألبست لبوس الغرب، قدمت هذه الديانة للشعوب وكأن الله لم يخلق الإنسان، وإنما خلق الإنسان الغربي فقط.

وستصبح الصلة بالله أكثر يسراً إذا افترقنا عن الثقافة اليهودية ـــ الأغريقية المتفردة، واقتربنا أكثر من وحدة الثالوث ـــ بعد أن نكون عشنا النمودج الذي يقدمه لنا الأب **بانيكار**، وهو تطابق الذات الفردية مع الذات الكلية، كما ورد في **الأوبانيشاد**، وتأملات "أنكاراً"، أو أن نصغي إلى الصوفيين مثل ابن عربي حين رأى في **يسوع** "قربة القداسة"، والذي توحي لنا حياته من خلال خضوعه المطلق للرب، كل ما يمكن أن يرى من الله المتعالي الذي لا يُرى. عن هذا الإله قال **روزبهان الشيرازي**: "قبل أن توجد الأكوان ، ومصائر الأكوان، كانت الذات الأبدية هي وحدة الحب، وحدة الحبيب والمحبوب"

وبدأ لاهوت جديد يبرز من الظل، وفي واحد من أهم الاصقاع الروحانية في العالم: الهند. فمنذ بضعة سنوات أطلق **لاهوتيون** هنود أسس لاهوت يستند إلى تأمل وممارسة إيمان عاش في أرجاء البلاد. ففي ١٢ آذار ١٩٩٢، وفي هونغ كونغ افتتحت ندوة، شارك فيها لاهوتيون وفدوا من أنحاء مختلفة من آسيا. وعقب انتهاء الندوة، نشرت وثيقة نقدية حول موضوع: "مستقبل التفكير الاجتماعي المسيحي" وقعها كل المشاركين. واستنكر اللاهوتيون في هذه الوثيقة، بشكل خاص، المركزية الأوربية للتعاليم الاجتماعية للكنيسة، التي لا تعرف أو تجهل إنجازات المؤتمرات المسكونية الإقليمية، وخصوصيات الكنائس المحلية.

وقد حاول كهنة آسيويون وبأسلوب مبدع الربط بين التعاليم الكاثوليكية والصعوبات التي يواجهها الوضع الأسيوي. ولسوء الحظ تسعى بعثة تبشيرية إصلاحية قادمة من روما، أن تنفذ هذه الأيام إلى آسيا. وتقيّم البعثة المذكورة الوضع في آسيا بشكل تبسيطي، ودون التوغل في أعماق المشكلات، متوهمة بأسلوب خاطئ أن الأساقفة لا يتحدثون إلاّ عن الحوار، والتحرير، والجهل...إلخ، مهملين دعوة السيد المسيح. وقد حرضت بعثة الاصلاح هذه على التوقف عن تنمية وتطوير التفكير المتناسق لاتحاد مؤتمرات المجامع المسكونية في آسيا. وقد علق لاهوتي هندي هو **فيليكس ويلفريد** على هذه النوايا بقوله: "يجب أن نأمل أن إرسال الفاتيكان لبعثة كهنوتية إلى آسيا، أمر موقت، وظاهرة عابرة، وأن يتابع اتحاد المؤتمرات المسكونية في المستقبل الخط الذي تشير إليه وثائق وفيرة، وأن ينجز بنفسه ظهور صورة جديدة للمسيح مطابقة لعبقرية آسيا".

وعلق راهب مليء بالحماسة والنشاط في الحركة المسيحية على جدار كنيسته الرعوية لوحة كبيرة كتب عليها: "يسوع هو الجواب" ولكنه استيقظ في اليوم التالي ليكتشف أن شباناً أشراراً قد كتبوا تحت العبارة: "ولكن... ما هو السؤال؟".

لقد حاول المسيحيون عبر قرون، اكتشاف شخصية المسيح، وحياته ورسالته، من خلال أسئلة خاصة بهم، نبعت من طبيعة كل مرحلة من مراحل تطور المجتمعات التي ينتمون إليها. ونتساءل هل نرفض نحن الاحتمال ذاته أي أن تطرح آسيا اليوم أسئلتها الخاصة بها؟ أعلينا نحن أن نحمل إليها الإجابات دون أن نلقي بالاً لأسئلتها؟ لندع آسيا إذن تكتشف، ثم تعيد اكتشاف صورة المسيح الفضلى، والأكثر ملائمة للإجابة على تحديات القارة. وقد تنبه الفاتيكان إلى تصميم لاهوتيي آسيا، على التفكير بمستقبل الكنيسة في هذه القارة، بطريقة غير الاكتفاء بنقل الخطابات الرسمية من روما.

إن إرادة تجذير رسالة المسيح في الحضارات والثقافات غير الغربية، هي واحدة من أهم الوعود الخصبة للمستقبل.

ولد **آلوسيوس بيريز** وهو **كاهن جزويتي في سيرلانكا**. وهو مؤسس ومدير مركز أبحاث **تولانا في كيلينيا** بالقرب من **كولومبو**. وهو منطقي هندي تقليدي مختص بالفلسفة البوذية، كما اشتغل في برنامج واسع للبحث في الأدب الفلسفي البوذي الوسيطي في بالي. ويرأس تحرير مجلة **"حوار"** المجلة الدولية للبوذيين والمسيحين، التي يصدرها المعهد المسكوني في **كولومبو**. وقد كتب بغزارة عن التبشير، ولاهوت الديانات ولاهوت الحرية الآسيوية والبوذيين.

أما ريمون بانيكار ، فقد ولد من أب هندي، وأم من **كاتالونيا**، وبذل جهداً كبيراً ليبرهن أن "إحدى البدهيات الأكثر عمقاً في حكمة الهند" تلتقي في بعض وجوهها مع الثالوث المسيحي.

وفي محاولته لتفسير عقيدة الثالوث من خلال التأمل المعاش لـ **ادفاليبتا الفيدية** "نسبة إلى فيدا" "وهي عقيدة لا ثنائية"، قال أنها تعلمنا أن الغاية الأخيرة لكل إنسان هي معرفة أن "اتمان" "الذات الفردية" تتطابق مع براهمان (الذات الكليّة) من

خلال عبارة (**الأوبانيشاد**): أنت، ذاك. وتساعدنا الهندوسية على تجاوز وهم خادع بان التفكير المتعالي هو"**خارجانية**".

أعطى كتاب "**الثالوث في التجربة الدينية**" وهو أحسن أعماله، تعبيراً نموذجياً لحوار حقيقي حول الإيمان، بريء من كل نزعة عرقية.

وتكون في أفريقيا وعي يشابه هذا الوعي الآسيوي، بضرورة أن يكون الإيمان كونياً، وهو شرط الاستمرار في القرن الحادي والعشرين.

وكان ساحل العاج قد شهد عام ١٩٧٧، مؤتمراً للاّهوتيين المسيحيين والكنيسة الكاثوليكية في أفريقيا السوداء عقد برئاسة **مطران ابيدجان "ميجرياغو"** وتحت شعار: "حضارة سوداء، وكنيسة كاثوليكية". وتحدث في المؤتمر الأب جان مارك إيلا، من منطلق المسيحية الشاملة قائلاً ما زالت الثقافة اليهودية المتوسطية تحمل المسيحية حتى الآن، وهي ليست إلاّ ثقافة بين الثقافات وليست المسيحية مرادفة للرومانية.

تهدف هذه الإرادة في تحرير الإيمان من الاستعمار، وفي جعل الثقافة الغربية نسبية، إنقاذ القيم الكونية المسيحية. وقد عبّر عن هذه الإرادة وبقوة **الأب هجبل الجزويتي** من الكامرون، في كتاب له بعنوان: انعتاق الكنيسة من الوصاية جاء فيه: "ليست المسيحية ديانة غربية، إنما هي ديانة شرقية انتقلت إلى الغرب فطبعها بطابع لا يمحى من فلسفته، وثقافته، وقوانينه، وقدمت إلى الشعوب الأخرى بهذا الشكل. علينا الآن، أن نطبع نحن آثارنا التي لا تمحى على الديانة نفسها، عن طريق التوقف عن إصباغ الإلهام الإلهي على فلسفة أرسطو ــ توما، والفكر البروتستانتي الجرماني، **والانجلو ساكسوني** أو أشكال التفكير والأعراف الغاليّة، أو الأغريقية ــ الرومانية، أو اللوسيانية، والأسبانية أو الألمانية.

واستنتج **الأب أوزانا** من كلام **مجوزويا** أسقف **يواندا**:

"نحن الورثة الشرعيون للديانات الأفريقية التقليدية التي هيأت الإنسان الأفريقي، كما لم تـــهيئ إنساناً آخر لقدوم يسوع المسيح، فقد لعبت هذه الديانـــات دوراً مشابـــهاً لدور العهد القديم".

ونعتقد أن التفكير الجديد بالوحدة المتعالية، لكل أشكال الحكمة والديانـات في العالم، ضروري لتأسيس اقنومية غير محدودة بالطوائف المسيحية، والتي ســـتزدهر بمساهمة كل الثقافات، وإيمان كل الشعوب من أجل قدوم الإنسان الكامل.

وبـــهذا الشكل نجنب دعوة الحركات الروحية في العالم لإعادة قراءة رســـالة المسيح، من الارتباط بالاصطفائية أو التوفيقية، إذ يتطلب الأمر أن نطلق من ثقافاتنا الخاصة الحقائق الكونية الدائمة التي تقودنا إلى حياة كونيـــة، وتمنحنـــا الوعـــي بخصوصية شهادة يسوع في الملكوت.

لم يأت المسيح فقط ليتم وعوداً وردت في العهد القديم، إنما جاء لـــيرد علـــى تساؤل كبير طرحه كل البشر حول معنى الحياة والموت.

إن الإيمان هو في البداية، قطيعة وتعال، وممارسة القطيعة والتحرر.

أما ما هو أكثر إثارة للحماس ومسبباً للحيرة، في أفعال المسيح، وأقواله، أنـــه لم يكن هناك أبداً حيث ننتظره، فنحن ننتظر دوماً قولاً أو عملاً، يبرر عواقب غرائزنا البيولوجية، ورغباتنا ومصالحنا وتاريخنا الفردي وثقافتنا وقوانيننا.

ولكن السمة الأكثر أسراً في حياة وموت السيد المسيح أنهما بَرِئَتا من كل تجهيز للشروط البيولوجية والنفسية والاجتماعية. إنـــها حياة لم تعرف الروتين يوماً، و لم يكن فيها شيء ينتج عن ماض ببساطة. كانت كل أفعاله اختياراً حراً مجرداً مـــن الأنانية أو ربقة التقاليد. إنه قرار جديد، وانبثاق شعري للإنسان.

وأنا لا أدعو للعيش وفق "قانون" المسيح، ولكن وفق ما أسميه "شاعرية المسيح"، أي الوعي بأن طبيعتي تملك القدرة على تجاوز الطبيعة، والوعي أن كل فعل من أفعالي، وكل حادث أكون شاهداً عليه، أو أشارك فيه، وبأن حياتي الشخصية، وكذلك حياة المجتمع الذي أعيش فيه، والتاريخ الذي أعاصره، ليست كل هذه الأمور إلاّ حلقات في سلسلة من الأسباب والنتائج، إنها على ما هي عليه بسبب صلتها بالغاية النهائية، وتقاس بموجبها، فتعطيها دلالتها. إنها المعنى العميق لقدوم ملكوت يسوع.

ولا يجب وضع هذه الملكوت في الفضاء البعيد أو بالزمن الآتي، مثل أي **يوتوبيا**، وإنما في اختبار الضرورات الآتية، كأن ما أعتقده هاماً في العالم وفي واجباتي سينهار في اللحظة الآتية، وكأن عليّ أن أعيد النظر بكل تصرفاتي وأحكامي وفق هذه الحقيقة الأكثر عمقاً والأقرب إلينا من حبل الوريد، ما دام الرب هو الآن هنا، في داخلنا، وفي الخارج عنا. ملكوت لا يحتاج فيه العدل إلى قانون، بل يسود فيه الحب كمبدأ.

وينبثق الإيمان من داخلي حالما أتوقف عن سؤال نفسي: كيف؟ أو أطالبها بالإجابة على: لماذا؟

وعندما أتساءل عن الغايات النهائية وليس عن الوسائل فقط:

– فإنما أتساءل عن المسألة الأساسية المتعلقة بأهدافي الشخصية والاجتماعية.

– أما فعل الإيمان فيكسر حلقة عاداتي ومسلماتي.

– وعندما يتوقف السياسي عن الاهتمام بالوسيلة للتوصل إلى السلطة فقط أو حماية هذه السلطة، ويتابع التساؤل عن الغايات الأخيرة للمجتمع البشري، إمكانيات ابتكار ما يبرز في أعماق كل إنسان، القدرة على اختيار هذه الغايات والمشاركة الفعالة لتحقيقها، عندها يصبح هذا السياسي نبياً.

وعندما يتوقف الفنان عن الاهتمام فقط بتأكيد تميزه الفردي، والعمل على هيمنة أسلوبه، وانطلاقاً من مهارته التقنية خاصة، ويستعد للإصغاء ليصبح ضمير المجتمع، ويجعل من عمله لا إنعكاساً للواقع، بل اختباراً للممكن، لمساعدة المجتمع على تحقيق الوعي لمشروعه وأمله ومستقبله، عندها يصبح الفنان خلاّقاً.

عندما يرى المحب في حبه وسيلة عطاء لا أخذ، لا عطاء ما عنده، بل عطاء نفسه وذاته وعطاء حياته إلى درجة تفضيل حياة الآخرين عليها، عندها سيتعلم ما قاله **روزبيهان الشيرازي:** "أن يفسّر في كتاب الحب الإنساني، لغة الحب الإلهي".

ومع ذلك فهذا الإنقطاع وهذا التعالي ليسا بعدُ، الإيمان.

فالإيمان هو فعل التخلي عن الذات. هكذا كانت تجربة التخلي عن الذات والليلة الظلماء للقديس **جان دولاكروا:**

"أن أحول إلى صمت، الرغبات التي تعتملُ في داخلي بقوة، أن انتزع نفسي من حدود وسطي الاجتماعي، أن أمحو الصور التي تبهرني دون أن تستضيء بها نفسي، أن انفصل عن كلمات ومفاهيم صنعت بغية التلاعب بالأشياء".

- عمل التخلي هذا، التخلي عن "الأنا" الصغيرة، بغية التخلي عن الذات، والذي يدعوه اللاهوتيون المسيحيون Kénose والذي يدعوه بوذا في موعظة **بينارس،** بالحقائق الأربعة المقدسة التي ترينا الطريق، كما تعطينا تأملات زا- زن الخبرة، هذا العمل من الزهد، هو المقدمة الوحيدة الممكنة ليقظة حياة جديدة "اسم بوذا نفسه يعني اليقظة".

تعني الحياة الجديدة أولاً الوعي بأني لا أستطيع الاكتفاء بذاتي، وبأني لست موجوداً إلاّ من خلال ترابطي مع الآخر وكل آخر، حسب الصيغة الساطعة للصوفي **البيرنطي كاليست** (القرن الرابع عشر): أنا أحب إذن أنا موجود.

ونحن هنا بعيدون عن فقر الديكارتية في مقولتها: أنا أفكر إذن أنـــا موجـــود، لأنـــها تختصر الإنسان إلى مجرد فرد والروح إلى مجرد عقل.

وكشف الشيخ أبو سعيد وهو صوفي إسلامي من القرن الثالث عشر، عما سماه سر الشيطان: "إذا قلت أنا تصبح شبيهاً بي". والتجربة الأساسية هنا، هي تجربـــة الصليب التي تنقطع عن كل الصور التقليدية للإله: القوة والجمال والعقل والعدل

معرفة الله وشكره من خلال هذا المصلوب، والمحبط، والمعزول الضعيف الـــذي هجره الناس طالما لم يبد واحد منهم إشارة للدفاع عنه، وطالما أن أقرب رفاقه إليـــه أنكره، والضعيف جداً لأنه هُجِرَ أيضاً من قبل "أبيه". وأمام الصرخة الأخيرة مـــن الألم قبل أن ينتزعه الموت أطلق السؤال الممزق: لماذا هجرتني؟

إن تجربة الإيمان بأكملها هي محاولة للإجابة على هذا السؤال المحير الذي يسمح لكل إنسان أن يعيش بشكل إلهي حياته كإنسان، أي حيـــاة مع مسؤولية كاملـــة عن مصيره الخاص وتاريخه الخاص: ليس فعل الإيمان ، هو تأمل الصليب، بل هو أن نحيا هذه التجربة المريعة والتي تحررنا من الصليب. من هنا فقط يبدأ الطريق الجديد، طريق البعث. لأن المسيح لم يمت، بل قتل. لقد اختار رجال أن يقتلوه وأختار هـــو أن يموت. هذا الفعل وهذا الاختيار يعطيان كامل معنى إنبعاثه، فموته ليس كموت كل الناس، إنه اختيار لحياة جديدة، ولن يكون بعثه عودة إلى حيـــاة بيولوجيـــة، ولكنها بداية حياة جديدة.

والإيمان هو فعل استقبال هذه الحياة الجديدة، وانتشار هذه القوة، وذيوع هـــذه البهجة.

الايمان هو تجربة الينابيع. فالإيمان ليس تجربة حلودي، إنما تجربة القـــدرة غـــير المتوقعة لتجاوز هذه الحدود. إنـــها ليست تجربة النقصان، وإنما تجربة النمـــــاء في المركز وليست على الأطراف كما يقول بونـــهوفر.

الهوامش

- **سونج**: سلالة ملكية حكمت الصين من ٩٦٠ إلى ١٢٧٩، قضى عليها المغول.

- **تاو- التاوية**: ديانة شائعة في الصين، وهي مزيج من روح الطبيعة، وروح الأجداد، وعقائد لاوتسو ومعتقدات أخرى مختلفة. وتاو في الفكر الصيني هو المبدأ الأعلى وتجسيد لوحدة الكون والنظام. تشير عقيدة لاوتسو وتشوانج تسو إلى ضرورة تحرير الإنسان من العالم المادي الذي يعيش فيه كي يستطيع الوصول إلى العالم الحقيقي لتاو، وهذا يعني الانخراط في تجربة روحية صوفية يستطيع المتعبد بموجبها الوصول إلى العالم الحقيقي.

- **وقد صبغت هذه الديانة الحضارة الصينية بشكل عميق.**

- **زيوس** :إله أسطوري يوناني، هو جوبيتر عند الرومان فرض على الأرض العدل والنظام.

- **جوبيتر**: إله أسطوري عند الرومان، يعتبر رب الأرباب وإله السماء والضوء والعاصفة والرعب، وموزع خيرات الأرض وحامي المدينة.

- **الفيدا**: كتابات الهند المقدسة وهي كلمة تُعني المعرفة، كتبت في عصور متلاحقة ، وتتضمن مبادئ الديانة الهندوسية ويضم أشعاراً وصلاوات وأدعية وتعاويذ وتسابيح، كما تنظم بعض أقسامه الحياة اليومية للإنسان. وتعتبر الرمايانيا والمهابهارتا المصدران الرئيسيان المكتوبان للهندوسية وخاصة القسم الأخير من كتاب المهابهارتا والمعروف باسم باغافا جيتا. تقوم الفلسفة الهندوسية على فكرة إتحاد روح الفرد "الأنا" بالروح المطلقة، بعد تخلصها من أدران الحياة المادية. ولكن الروح الفردية تعجز عادة عن الوصول إلى هذه الطهرية خلال حياة الإنسان

القصيرة. وكي تحقق هذه الغاية النهائية على الروح أن تمر بمراحل متعاقبة، وتطرد خلالها كل الشرور الموجودة فيها، هذه الشرور التي تعيق الروح الفردية عن الذوبان في الروح الكلية أو المطلقة. على هذه الروح التي تسعى للوصول إلى الطهارة الكاملة أن تكفر عن كل أفعالها حتى يصبح بإمكانها الوصول إلى الحرية والخلاص. تنقسم الهندوسية إلى مرحلتين أساسيتين: المرحلة الملحمية والمرحلة البورانية. ويمثل كتاب أدفايبتافيدانتا المرحلة الثانية: ويدعوا إلى الإيمان بوحدانية الوجود والعقل والمادة ويتضمن أفكار الفيلسوف الهندي سنكارا آشاريا "٧٨٨-٨٢٠؟ ق. م"، الذي كتب الأوبانيشاد وهو مجموعة مقالات فلسفية عميقة وسامية وتأملات ميتافيزيقية حول طبيعة وجوهر روح الكون. والعالم الظاهر بالنسبة لسنكارا وهم، والحقيقة الوحيدة هي البراهمان أي الكائن المطلق الذي تستطيع الروح المطهرة وحدها أن تماثله. وتعتبر فكرة "أنت ، ذاك" أو "هو، أنت" مفتاح تعاليم الأوبانيشاد. والمعرفة الصحيحة هي التي تقود النفس إلى التخلص من وهم أن لها وجودا مستقلا عن روح الكون. والمعرفة التي يقود إليها الفيدا هي التي تقود إلى زوال هذا الوهم والوصول إلى "النيرفانا" أو البركة الأبدية.

- طاغور (**١٨٦١-١٩٤١**)، شاعر الهند العظيم. منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩١٣.

- يبدو أن الآيات التي تترجم رسالة يسوع والرسل إلى "خراف إسرائيل الضالة":

١-لا توجد هذه الآيات إلاّ في إنجيل متّى، بينما لا نراها أبداً في مرقس أو لوقا.

٢-يقول لنا شارحو السنوبس (بيريز بينو- بوانارو) أن هذه الآيات هي إضافات أدخلها متّى مباشرة.

٣-خالف أكبر مفسر لإنجيل متّى هذا التصور، إذ أشار أن يسوع نفسه، قد أضعف من شأن هذا الرفض لكل رسالة إلى الوثنيين عندما شفى ابنة امرأة كنعانية

وثنية قائلاً لها! أيتها المرأة، إيمانك كبـــير.(الإصحـــاح العاشـــر – غـــارودي).
جاء في إنجيل متّى (الإصحاح العاشر):

- "ثم خرج يسوع من هناك، وانصرف إلى نواحي صور وصيـــدا. وإذا امـــرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمني يا سيد يا ابـــن داوود. ابنتي مجنونة جداً. فلم يجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قـــائلين اصرفـــها لأنـــها تصيح وراءنا. فأجاب وقال لم أُرْسَلْ إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالـــة، فأتت وسجدت له يا سيد أعنّي فأجاب وقال ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنـــين ويطرح للكلاب فقالت نعم يا سيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابـــها. حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة عظيمٌ إيمانك، ليكـــن لك كما تريدين. فشفيت ابنتها من تلك الساعة".

- **بوذا (٥٦٣-٤٨٣ق.م)**، فيلسوف هندي مؤسس الديانة البوذية، كرد على البراهماتية. يدعو بوذا إلى التخلي عن الشهوات والتي هي ســـبب آلام الإنســـان ومعاناته، وسيكون ذلك عن طريق إنكار الذات. يعتبر الدارسون موعظته الأولى- مشابـــهة في روحها وسموها الأخلاقي وأهميتها التاريخية بموعظة الجبـــل للســـيد المسيح. تركت البوذية آثاراً عميقة في معتقدات الهندوسية نفسها. قُـــدِّر عـــدد البوذيين عام ١٩٦٠ بـــ ٣٥٠ مليون إنسان منتشرين في الهند واليابان وتركستان وكوريا وبورما والتيبت وكمبوديا وغيرها. تأثر انتشار البوذية بالفتح الإسلامي في القرن الثاني عشر. تستند البوذية إلى مبدأين أساسيين: الآنا (الآتما) والكائن المطلـــق (براهمان). وتتميز البوذية بالتسامح وانفتاحها على الطبقات، وعلـــى الرجـــال والنساء على حد سواء، والإبتعاد عن التعصب الطائفي.

- **جاء في أعمال الرسل- الإصحاح السادس والعشـــرين**: " لأجـــل ذلـــك أمسكني اليهود في الهيكل وشرعوا في قتلي فإذا حصلت على معونة من الله بقيـــت إلى هذا اليوم شاهداً للصغير والكبير. وأنا لا أقول شيئاً غير ما تكلـــم الأنبيـــاء وموسى.

- **فرانكو (١٨٩٢-١٩٧٥)**، جنرال إسباني ورئيس دولة (١٩٣٩-١٩٧٥) شارك في الحرب الأهلية (١٩٣٠-١٩٣٩) التي قادته إلى إقامة حكم مطلق في إسبانيا.

- **فاتيكان II**: هو المجمع المسكوني الثاني، عقد ما بين عامي ١٩٦٣ -١٩٦٥، وبرعاية البابايوحنا الثالث والعشرين، وبولس السادس، هدف هذا المجمع إلى تجديد الكنيسة أمام تطورات العالم المعاصر، ولإستعادة المسيحية. وقد تميز أيضاً بحضور مراقبين غير كاثوليك، كان المجمع المسكوني الأول قد عقد بين عامي ١٨٦٩-١٨٧٠.

- التعالي **Transcendamce**: تفوق، سمو، عظمة، وبالمعنى الفلسفي تعالٍ (الوقوع وراء نطاق المعرفة أو الخبرة، كينونة فوق الوجود المادي ومفارقة له. Tramcendant، فائق، مفارق (وصف يطلق للدلالة على سمو الله على المخلوقات ومفارقته لها).

- **إنجيل متى: (الإصحاح الخامس والعشرون)**: " ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعّد لكم منذ تأسيس العالم. لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريباً فآويتموني، عرياناً فكسوتموني، مريضاً فزرتموني، محبوساً فأتيتم إليّ فيجيبه الإبرار حينئذ قائلين: يا رب متى رأينك جائعاً فأطعمناك؟ أو عطشاناً فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريباً فآويناك؟ أو عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك؟ فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم. بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فيّ فعلتم".

- بالمقارنة مع المسيحية الأولى، في دراسة س.هـ. دود: "رموز ملكوت الله" التي جاء فيها: "لأن الوضع يتطلب تضحية، فيبقى السؤال مطروحاً.. أتريد أن تقبل ملكوت الله؟ أتريد أن تجازف بحياتك من أجله؟" (غارودي)

- **جاء في سفر اللاويين**: "لا تغضب قريبك، بالعدل تحكم لقريبك. لا تسع في الوشاية بين شعبك. لا تقف على دم قريبك. أنا الرب. لا تبغض أخاك في قلبك.

إنذاراً تنذر صاحبك، ولا تحمل لأجله خطية. لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك بل تحب قريبك كنفسك".

-**انجيل يوحنا الاصحاح ١٣، الآية ٣٤**:"يا.أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد. ستطلبونني وكما قلت لليهود حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا. أقول لكم أنتم الآن **وصية جديدة أنا أعطيكم**.

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الثامن

الفصل الثامن

كيف الخروج من المأزق؟

انطلاقاً من كشف حساب الثقافة الغربية الذي نستنتج منه الخسارة والفشل، ومن هذا الحج إلى الإيمان وثقافة الآخرين "ونعني بذلك إيمان وثقافة أربعة أخماس سكان الكرة الأرضية" يتوجب علينا أن نبرز الرؤى التالية:

- كيف الخروج من التناقضات والطرق المسدودة لنظام لا يستطيع قيادتنا إلاّ إلى الموت؟

- أية استراتيجية يمكن أن تسمح لنا ببناء عالم بوجه إنساني، نواجه به القرن الحادي والعشرين؟

يجب علينا، من منظور **"فلسفة الفعل"** التي تحررنا من أشكال الهيمنة وليدة فلسفات الكائن الغربي على امتداد خمسة وعشرين قرناً، الخروج من قياس أقون- حسب تعبير المناطقة -كل حدّ من حديه خاطئ، فحدٌّ يقول: يجب تغيير الإنسان بغية تغيير العالم، وحدّ يقول: إذا غيرنا البنى، فسيبزغ بالضرورة إنسان جديد.

لم ينجح الأخلاقيون، وبشكل خاص المسيحيون أتباع بولس، والمؤمنون بالطريق الأولى أي تحرير الإنسان من الهيمنات والعزل والحروب، عن طريق الموعظة. لقد استمر هذا الفشل ألفي عام.

أما الآخرون فقد سلكوا الطريق الثاني معتقدين أنهم أكثر واقعية. وقد حملت "المسيحية" السوفيتية خلال ثلثي قرن وهماً شبيهاً بأوهام الأولين: إذا بدّلنا في بنى الاقتصاد، ووضعنا نهاية للملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، وألحقناها بالدولة، فسيؤدي ذلك إلى ولادة الإنسان الجديد.

ولكنه لم يولد. أما عودة الرأسمالية، فقد سمحت بولادة المافيا، ونشوء ثـــروات مضاربة وطفيلية بسرعة نمو الفطر السام، رافقــــها البــؤس والفســـاد والبغـــاء والمخدرات، وكل الرذائل التي يتسم بـــها الانحطاط الليبيرالي.

وأصبح واضحاً أننا لا نستطيع الفصل بين الخيارين: هذا الذي تأســـس علـــى تعالي الفعل الخلاق، وذاك الذي يطلب من المبدع أن يحدد تخومه، في هداية بعــض الأرواح حتى ولـــو صاروا قديسين، ولكنهم لا يملكـــون مـــن الخيـــــارات إلاّ الانعزال في "صومعة" أو العيش على هامش المجتمع.

في فلسفة الفعل لا يمكن فصل هاتين الصيغتين، فليس الإيمان والفعل إلاّ الظـاهر والباطن للإنسان الكامل. فالإيمان المنفصل عن الفعل سيتبخر إلى تقوى صافية، إنما شخصية. أما الفعل المنفصل عن الإيمان فيقود الإنسان إلى حيوانيته الأولى.

تنصهر الروحانية في الصراع من أجل تغيير البنى وتتشابك معه، ولكنها لا تفقد أياً من أبعادها الباطنية.

وفي العودة اليومية للتأمل في الغايات الأخيرة لفعلنا، ولوحدتنا الصوفية "مـــــع الكل"، نحمي عملنا من أن يختزل إلى البحث عن الوسائل والإنتاجية والكفايـــــة، وسنعي أن الطبيعية بأكملها هي أجسادنا، وبأن روحنا مسكونة بكل الثقافـــــات الإنسانية في تاريخها الكلي، لا بـــ "أنا" معزولة، وبأن إيماني الذي يعبر عن نفســـه بالثقافة يلتقي مع إيمان الآخرين الذين يعيشونه عـــــبر ثقافاتـــــهم، دون رغبـــة "بـــهداية الآخر"، أعني دون رغبة أن أختزل الإيمــــان الأساســــي للآخـــر، إلى طريقتي في الحياة.

وغالباً ما يفسرون ويشوهون الصيغة التي اختصر بـــها لوكيه، هـــذه الرؤيـــة للإنسان: "يعمل، ويتصرف بما عمل، ولن يكون شيئاً آخر غير ما عمله".

ولن تشوه هذه الصيغة، إلاّ عندما يحرم الفعل من بعده الباطني أو فاعليته.

وإذا ما بدأت معركة بناء عالم آخر- وليس عالماً آخر من الشطحات أو أحلام المدن الفاضلة – فإن عليها أن تتطور في ثلاثة مستويات: التربية، والفن، والسياسة، وبطريقة ينصهر فيها فعل الإيمان وفعل الخلق الفني، والفعل السياسي، في حركة فاعلة واحدة.

١- قلب التربية:

ليس المطلوب اقتراحاً "لإصلاح" النظام التربوي، لأن محتوى وبنى التعليم القائم لا يحتاج إلى مجرد إصلاح، بل إلى قلب جذري.

ولا نريد هنا أن نكتب تاريخاً للتربية، بل لنسجل فقط أنها لا تهدف حتى الآن، إلاّ إلى إعادة إنتاج النظام القائم.

وينطلق نظامنا القائم من مفهوم نابليون الذي كان أوّل من وضع تصوبياً لمحمل الدور التربوي، بعد الثورة الفرنسية. كان همه الأول من تأسيس المدارس، إيجاد الكوادر لجيشه، وإداراته، وإعادة إنتاج التعليم.

ومنذ ذلك الحين، وبدءاً من المونسينور فاتيمسنيل حتى وزراء التربية الحاليين، جرت إصلاحات متعددة للاستجابة الأفضل لاحتياجات النظام، آخذين بالحسبان تطوره والمتطلبات الجديدة. فمع تطور الصناعة مثلاً، ازدادت الحاجة إلى تقنيين من كل المستويات، وأدى ذلك إلى ديمقراطية التعليم: الإبتدائي أولاً لمن لا يستطيعون أن يرتقوا إلى أكثر من ذلك بسبب ازدياد تعقيدات التنمية، وتأهيل الآخرين ليصبحوا كوادر أو مهندسين. وقادت هذه الحاجة إلى إصلاح محتوى التعليم، فأنزلت اللاتينية عن عرشها، وكانت حتى ذلك الحين بطاقة المثقف، واستبدلت بالرياضيات والعلوم الأساسية للتقنيات الجديدة.

ولكن هذا التكييف التربوي المتعاقب مع الاحتياجات الجديدة للنظام الاجتماعي، حافظ باستمرار على ما هو ضروري: بقاء هدف النظام التربوي تكوين،"نخبة" أصبحت متخصصة أكثر فأكثر في ميادين مثل الفيزياء النووية، وعلم

الوراثة، والاقتصاد السياسي، أو المعلوماتية، ولكنها بقيت محرومة من ثقافة، لا نقول عنها عامة، وإنما شاملة، أي أن تطرح هذه الثقافة مسألة الغايات الأخيرة للأبحاث والمنجزات.

لهذا نقول أن الأمر لا يتطلب إصلاح النظام وإنما قلبه وبشكل جذري. ولن يتحقق ذلك بمثة عملية إصلاحية، سواءً جاءت هبة من الحكومة، أو قراراً من الهيئات الإنتخابية والتشريعية. والطريق الصحيح هو تبديل العقليات التي تعمل على استمرار النظام القائم الذي لا يملك غايات إلاّ زيادة إجمالي الناتج القومي، والاستهلاك، والقوة، وغزو الأسواق.

أيتطلب الأمر أن :نفبرك" في مدارسنا أطباء أسنان ومهنيين أو عسكريين، أم علينا أن نهيئ الإنسان كي يكون إنساناً، نعني بهذا أن يكون خلاّقاً.

لهذا يتطلب الأمر تغييراً جذرياً شاملاً لمحتوى وبنى التربية.

وفي البداية علينا المساعدة في معالجة تراجع تعليم ثقافات الآخرين لأبنائنا، بالنسبة لثقافتنا الغربية ولا نعني أن يكون ذلك، فقط في الكوليج دوفرانس، أو "الدراسات العليا"، أو اللغات الشرقية، إنما لدى الجماهير، لتعليمها ثقافات الآخرين، وليس في المدرسة فقط بإضافة ملحق للبرنامج المدرسي، وإلاّ فلن يكون لدينا معلمون قادرين على تنفيذ هذه المبادرة، طالما أننا لا نكوّنهم إلاّ في "المدرسة الأوروبية".

وسنكتفي بمثال واحد يعود إلى زمن قريب منا، وهو مثال الفلسفة، نتساءل متى أدخل في برنامج "الاستاذية" وخارج الخط الذي يصل بين **أفلاطون وهايدجر، فلسفة تشوانغ تسو، وفلسفة سنكارا والغزالي.**

وأثناء ذلك، وخارج المدرسة، لن تعوز الفرص للالتقاء بأولئك الذين يحملون تلك الثقافات: فليس الصينيون غائبين عن أمريكا وأوربا، ولا الهنود عن إنكلترا، ولا العرب عن فرنسا، ولا الترك عن ألمانيا.

الوراثة، والاقتصاد السياسي، أو المعلوماتية، ولكنها بقيت محرومة من ثقافـــة، لا نقول عنها عامة، وإنما شاملة، أي أن تطرح هذه الثقافة مسألة الغايات الأخـــيرة للأبحاث والمنجزات.

لهذا نقول أن الأمر لا يتطلب إصلاح النظام وإنما قلبه وبشكل جذري. ولـــن يتحقق ذلك بمئة عملية إصلاحية، سواءً جاءت هبة من الحكومة، أو قـــراراً مـــن الهيئات الإنتخابية والتشريعية. والطريق الصحيح هو تبديل العقليات التي تعمل على استمرار النظام القائم الذي لا يملك غايات إلاّ زيادة إجمـــالي النـــاتج القومـــي، والاستهلاك، والقوة، وغزو الأسواق.

أيتطلب الأمر أن :نفبرك" في مدارسنا أطباء أسنان ومهنيين أو عســـكريين، أم علينا أن نـــهيئ الإنسان كي يكون إنساناً، نعني بـــهذا أن يكون خلاّقاً.

لهذا يتطلب الأمر تغييراً جذرياً شاملاً لمحتوى وبنى التربية.

وفي البداية علينا المساعدة في معالجة تراجع تعليم ثقافات الآخريـــن لأبنائنـــا، بالنسبة لثقافتنا الغربية ولا نعني أن يكون ذلك، فقط في الكوليـــج دوفرانـــس، أو "الدراسات العليا"، أو اللغات الشرقية، إنما لدى الجماهـــير، لتعليمـــها ثقافـــات الآخرين، وليس في المدرسة فقط بإضافة ملحق للبرنامج المدرسي، وإلاّ فلن يكـــون لدينا معلمون قادرين على تنفيذ هذه المبادرة، طالمـــا أننـــا لا نكوّنـــهم إلاّ في "المدرسة الأوروبية".

وسنكتفي بمثال واحـــد يعـــود إلى زمـــن قريب منا، وهو مثـــال الفلســـفة، نتساءل متى أدخل في برنامج "الاستاذية" وخارج الخط الذي يصل بين **أفلاطـــون وهايدجر، فلسفة تشوانغ تسو، وفلسفة سنكارا والغزالي.**

وأثناء ذلك، وخارج المدرسة، لن تعوز الفرص للالتقاء بأولئك الذين يحملـــون تلك الثقافات: فليس الصينيون غائبين عن أمريكا وأوربا، ولا الهنود عن إنكلـــترا، ولا العرب عن فرنسا، ولا الترك عن ألمانيا.

ربما كان هذا هو المستوى الذي يجب أن تبدأ منه الأشياء: توجه مختلف نحـــو المهاجرين الذين يحملون معهم، واعين أو غير واعيين، قيم مجتمعاتـــهم وإيمانـــهم الخاص.

وهكذا يصبح ممكناً، في صفوف الجماهير، أن يبدأ التنبيه لوجود الآخر، والغـنى الإنساني الذي يحمله بداخله، والوعي بأننا نستطيع أن نتعلم منـــه أشـــياء، لا أن نبحث من أعلى مركزيتنا الأوروبية، عن طريق لاستيعابه، أو تكامله مع انحطاطنا:

- حيث أصبح العلم علموية.
- حيث أصبحت التقنية، تكنوقراطية.
- حيث أصبحت السياسة، مكيافيلية.

والعلموية: هي شكل من السحر، أو بالأحرى أصولية شمولية، تأسست علـــى المسلمة التالية:

يستطيع العلم أن يحل كل المشاكل، أما مالا يستطيع العلم قياسه، أو يخضعـــه للتجربة، أو يتنبأ به فهو غير موجود. وتقضي هذه النظرية الوضعية، على الأبعـــاد الأكثر سمواً في الحياة: الحب، الخلق الفني، والإيمان.

والتكنوقراطية: شبيهة بالسير أثناء النوم. فالتقنية من أجل التقنية، دون أن تطرح إطلاقاً مسألة الغايات. وتأسس هذا التفكير على مسلمة تقول: كل ما هو ممكـــن تقنياً، مرغوب فيه وضروري.

هذا "العقل" يولد أسوأ اللامعقول. إنه يحتوي على السلاح النووي، وحـــرب النجوم، وديانة الوسيلة.

والميكافيلية هي هذه الحيوانية التي تتصف بـــها سياسة محددة بتقنية الوصول إلى السلطة، لأهداف غير الاستجابة لغايات المجتمع الإنساني، فتوضع الوسائل، الـــتي تؤدي إلى تحقيق هذه الغايات.

أمن أجل هذا نحن نفخر باستيعاب هؤلاء المهاجرين وتكاملهم معنا؟ أليس من الأفضل أن نضيف إلى "إنسانية حقيقية" وعياً بأن فرنسا، تغني ثقافتها منذ قرون بثقافات مزيج من عشرين عرق، كما يقول ميشليه أو رينان.

ليست فرنسا "كينونة" سابقة على الفرنسيين. نحن نقول: أجدادنا الغاليّن، وكأننا لا نحمل في عروقنا إلاّ دم "فيرسنجتوري". أو لا نحمل في ثقافتنا إلاّ هدي "كلوفيس". إنها أساطير تستخدم حتى اليوم من أسوأ القوميين، وكأننا لم نكن أيضاً رومانيين عندما استعمرو بلاد الغال، أو جرمانيين مع الفرانك، سلتيين مع البروتونيين والغزوات النورماندية، أو عرباً مع ما حمله شعراء الأندلس إلى شعراء التروبادور في الغرب.

ربما توجب علينا كي نحول- وعلى مستوى الجماهير- درب المفهوم الاستعماري، إلى درب المفهوم المتناغم للتواصل بين الحضارات، أن نبدل نظام التصدير الثقافي "للمتعاونين". لقد حلمت طويلاً، ومن الخطورة أن يمتد هذا الحلم طويلاً، إلى إرسال "متعاون" من أصل آسيوي، في الألف الثالث للميلاد ليقوم بوضع دراسة عن الأجناس التي تعيش في شبه الجزيرة هذه، الواقعة في "أقصى آسيا" والتي تدعى أوروبا. وسيكرس عالم الأجناس هذا الذي كونته مبادئ البوذية في السيطرة على الشهوات، أو على الأقل الحد منها، تقاريره الأولى عن تقنيات تطور الطمع في عالم ما قبل التاريخ "لهذه القبائل البدائية"، وتقنيات الترويج والاعلان والتسويق.

وسوف يذكرنا هذا العالم من خلال حرصه على الأمانة العلمية في ذكر مراجعه ومصادره أن الصوفيين في أثينا، وحسب أقوال أفلاطون، اعتبروا أن الخير هو امتلاك أقوى الرغبات، وإيجاد الوسائل لإشباعها. ويمكن لهذا العالم أن يضيف أنه وجد في نظام التنمية السائدة في "الحقبة الآثارية" للنصف الثاني من القرن العشرين نظام تنمية مازال يستند إلى مفهوم التنمية عند الصوفيين الأثينيين. لقد

بحجت تقنية الطمع "الترويج، التسويق...الخ" في خلق حاجات نمطية فأفسحت المجال بذلك ميدانياً للمشاريع المتعددة الجنسيات في العالم كله.

وسيلجأ من خلال معالجة المظهر الطقسي لوحدانية السوق، وديانة النمو في المناطق المعمورة ما قبل التاريخ، إلى دراسة أنماط التربية لهذه العصبة المقدسة من التكنوقراطيين، وأساتذة الحلقات الدراسية الجشعين، والتلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى، انطلاقاً من عقيدة أساسية: استبعاد كل ما يتعلق بالسؤال "لماذا؟"، وبالغايات الأخيرة للإنسان، وسيصل من خلال بيولوجيا عصرنا، مستفيداً من أبحاث لا يوري، إلى نتيجة تفيد بأن تفوق شبه الجزيرة، لم يكن نتيجة شيء آخر غير "دماغها الضخم".

وسيتحدث لنا هذا العالم "المستغرب" ، "عن الاستشراق" هذه الحقبة ذات المركزية الأثنية، وسيكون قرار اتهامه قاسياً، وربما عمومياً جداً، لكنه مبني على بعض الأمثلة المشهورة، إنما مع الأسف، بلا تعليل.

على سبيل المثال: كان المستشرق الأول، سيد المستشرقين، **سيلفستر دوساسي** الذي أطلع غوته على حضارات الشرق، هو نفسه الذي كتب بيانات ب**ونابلوت** عند غزوه مصر، وبيانات الجيش الفرنسي عند غزوه الجزائر.

أما **ماكس موللر**، وهو أحد الرجال الأكثر أهمية في تاريخ الاستشراق التقليدي، فقد نظم في **كامبردج** فصولاً دراسية بهدف إعداد إداريين إنكليز للعمل في مستعمرتهم الهند. وكتبت السيدة روث بينديكت، كتابها الجميل "السيف والأقحوان" عن اليابان، بأمر من المكتب الحربي **للجنرال ماك آرثر**، بغية الوصول إلى شكل أفضل لدمج اليابان في النظام السياسي الأمريكي.

ويخشى أن تتحول هذه الفكرة المرعبة عن الاستشراق "إلى استغراب"، أي الوقوف في موضع ينظر منه إلى الغرب بالمجهر، بما يشبه فعل علماء الحشرات الذين يراقبون حشراتهم بالمجهر، وكما نظر الغرب حتى الآن إلى البلدان غير الغربية.

انطلاقا من التعامل مع المهاجرين يجب أن لا يبدأ تبديل التوجهات نحو الثقافات الأخرى في المدرسة أو الجامعة ، بل بين الجماهير، منطلقين من المثـــالين اللذيـــن أوردناهما، أي المهاجرين والمفهوم أحادي الجانب للمتعاونين.

ولن نستطيع النفاذ إلى التعليم المؤسساتي إلا من "الأسفل"، لأن الحكومـــات، اليسارية منها واليمينية والأحزاب، وحتى الطبقة الدينية، لا يذهب أحد منـــها في هذا الاتجاه.

وسيكون الأمر نفسه بالنسبة للتاريخ الذي تحدث عنه **بول فاليري** في كتابــه "نظرات على العالم المعاصر" حين يقول:

"التاريخ هو الإنتاج الأخطر لكيمياء المثقف"، فهو يجعلنا نحلم، ويجعل الشعوب تتمثل ما يولد لديها من ذكريات كاذبة، ويفجــر ردود أفعالـــها، ويلامـــس جروحها القديمة، ويعذبـــها في فترات راحتها ويقودها إلى معاناة آلام العظماء، أو آلام الاضطهاد، ويعطي الأمم المرارة، والعجرفة باطلة وغير محتملة.

ويبرزون من التاريخ ما يريدون تبريره. إنه لا يعلم شيئا على الإطـــلاق لأنـــه يتضمن كل شيء، ويعطي أمثلة على كل شيء".

وقد رأينا سابقا الدور الذي لعبه التاريخ الرسمي في الآيديولوجيا القومية.

ويلعب نفس الدور في تبرير الاستثنائية الغربية ما داموا يقدمون لنـــا بشـــكل منسق، معارك الماراتـــون، وبواتييه، مشوهة إلى حد كبـــير، فيتحدثـــون عـــن انتصارات خادعة للغرب على الشرق. فبعد قرن من نزاع الماراتون الذي أفـــرط **هيرودوت** كثيرا في تقدير أهميته ممالأة للاثينيين، الذين نقدوه أجوره فـــورا كمـــا أوحى بذلك **بلوتارك**، أملى **تيرميباز** عام ٣٨٦ باسم **كسرى الفرس**، وبلغة السيد شروطه على المدن اليونانية بكثير من التعالي الذي أغضب **ايزوقـــراط** فخطـــب يقول:

"إنه هو الذي ينظم شؤون اليونان، ويأمر بما يجب أن يفعله كل واحد منـــهم، ويمانع تماما في تأسيس الحكومات في المدن.. ألن ندعوه بعد ذلك بالملك العظيـــم، وكأننا أسراه؟".

وبعد قرون من معركة **بواتييه**، كان العرب في **ناربون**، فزحفوا مجددا إلى وادي الرون، تشهد على ذلك كتابات لها طابع صوفي في كاتدرائية بوي وستصبح قرطبة خلال ستة قرون مركز الإشعاع الثقافي في أوروبـــا كلها، ومركز إشعـــاع علمي كما يشهد بذلك **روجر بيكون**، وشعري، كما يشهد بذلك **شعراء التروبادور في الأوكسيتاني، وكذلك دانتي.**

أما الجزء من البناء النفعي للتاريخ والمتعلق بالغايات السياسية، لمرحلتنا المعاصرة، فهو أكبر من سابقه بكثير، لأنه يسعى لتبرير- كمثال- الإفراط في التسليح والهيمنة الاقتصادية. إنـــهم "يفبركون" تاريخا للعدو كي يجعلوا منه شيطانا: كان الاتحـــاد السوفيتي، مثلا هو امبراطورية الشر، وبعد انـــهياره وجد **بوش** في الإسلام بديـــلا لهذا الشيطان، كي يجد مبررا لانتهاج نفس السياسة.

وبالمقابل فقد "ألفوا تاريخا مقدسا"، كان في البداية تاريخ العبريين، ثم استأثر به المسيحيون الذين أرادوا أن يصبحوا هم ورثة هذا التاريخ، كي يبرروا حروبـــهم الصليبية واستعمارهم للشعوب الأخرى.

يجب أن تعاد كتابة التاريخ، لا من قبل هؤلاء المؤرخين الذين كونتـــهم هـــذه المدرسة، وإنما انطلاقا من تبديل حقيقي في علاقات الشعوب، وبشكل خاص مـــع الشعوب غير الغربية.

ويجب أن يترجم هذا الإقصاء الضروري للمركزية الأثنية الغربية، عن منـــاهج التعليم، إلى اعتراف بمنجزات كل شعب في مسيرة أنسنة الإنسان. ولكننا ســـنرى فيما بعد أن المدرسة لا تكفي وحدها للوصول إلى هذا الهدف.

ويلعب التاريخ الرسمي دورا قاتلا. وسوف نرى ذلك جليا عندما نتذكر كل الابداعات الصينية والهندية والإسلامية، وكلها سبقت الغزو الغربي للعالم، والذي وضع كل هذه الإبداعات في خدمة إرادته في القوة والثروة.

إن التاريخ الرسمي الذي يعلموننا إياه في المدرسة أو في الموسوعات، قد كتب دائما من قبل الغزاة. كانوا دائما يسعون لتصوير هيمنتهم، أنها إنتاج تفوق ثقافتهم، وليس فقط أسلحتهم. وفي وسط كل الاحتمالات الإنسانية، فلم يحكى لنا إلا عن المنتصرين، وعن التاريخ باعتباره تاريخ الهيمنة والسيطرة.

وينقسم التاريخ، حسب المنظور الغربي إلى مراحل تحددها الاكتشافات التقنية. ويمكننا تقسيم حتى ما قبل التاريخ إلى عصر الحجر المقطوع، وعصر الحجر المصقول، وعصر البرونز، وعصر الحديد. وبهذا المنظور نفسه، يدعون أن التاريخ الحديث بدأ عام ١٤٩٢، مع بدايات الاستعمار، ثم هناك عصر الآلة البخارية، والكهرباء، ثم الذرة.

إنه المقياس الوحيد للتقدم والهيمنة، لأن تقسيم التاريخ إلى عصور بدأ مع تشكل الامبراطوريات، ووجود سلالات حاكمة: في مصر أو الامبراطورية الرومانية، التي بنت لنفسها سدا ضخما من الحصون والجيوش، واعتبرت كل من هو خارجه من البرابرة.

وماذا لو اختاروا معيارا آخرا؟!

مثلا، ولكي لا نذكر إلا ماترك أثرا باقيا: الفن، لكانت التواريخ، والطبقات الحاكمة شيئا آخرا.

عندها يصبح رسم لحيوان **البيزون للاسكو** معاصرا لأقواس **ماتيس**، ولوحة رولو صينية من عصر **سونج** في القرن الثالث عشر تكون متقدمة أو متخلفة عن أعمال **روشنبرغ** أو **آندي فاروك**؟ وكاتدرائية **تشارترز**، أليست- إنسانيا- أكثر تفوقا وأسمى من أعمدة بورن في القصر الملكي؟

أيستأهل باني تاج محل "تغليفا" من **كريستو**. أين سيكون موقع الرامايانــــا في تسلسل التاريخ والطبقات، بالمقارنة مع ملاحم طرزان وبطولات لا **الـــترمينيتور الماحق**؟ وأين سنضع **بروميثيوس لأسكيلوس** بالمقارنة مع كتاب **"سوف أبصـــق على قبوركم" لبوريس فيان**.

وستتغير معايير التقدم أيضا، لو قارنا الأخلاق ببعضها وكذلك الديانات، ولدينا عنها الكثير في الآثار المخطوطة.

ولدينا هنا أيضا، واحدة من أهم الثغرات في تعليمنا. لقد خلط مفهوم خــاطئ للعلمانية في العلاقة بين مؤسستين: الكنيسة والدولة، حيث اعتبر فصلــهما عــن بعضهما في فرنسا غزوة كبرى شهدتــها بداية القرن، وكذلك قاد خطأ في مفهوم آخر إلى الفصل بين بعدين للإنسان: الإيمان الذي هو بحث عن الغايات الأخـــيرة للحياة، والسياسة التي هي إعمال الوسائل لتحقيق الغايات ما قبل الأخيرة والأكـثر "بشرية".

حرم هذا المفهوم المدرسة من التفكير بالغايات، بحذفه نصوصا دينيـــة أحاديــة الجانب (وهذا أمر جيد لأنه ضد المذهبية الضيقة لديانة ما). ولكنه حذف مع هــذا الإجراء كل النصوص المقدسة، من الباجادافيتا إلى أنبياء إسرائيل، ومن الإنجيــل إلى القرآن.

وليس من ضرورة لتضمين هذه النصوص في برنامج مدرسي، لأننا لن نجــد إلا القليل من المعلمين القادرين على التجرد عن الانحيــاز إلى دياناــهم الخاصـــة، أو إلحادهم، كي يستطيعوا مساعدة الطالب على التأمل في الغايات الكبرى التي تتـوج كل الثقافات. المطلوب وضع هذه النصوص في متناول اليد، في قاعات مخصصـــة لهذا الغرض يؤمها البالغون من كل الأعمار، ومن كـــل المســتويات الثقافيــة، وسيتكون هناك معلمو المستقبل، للتدريب على هذا التأمل للغايات الأخـــيرة، أو على الأقل لخلق مواطنين واعين لمشكلة معنى الحياة.

٢- الفنون "التاريخ المقدس" للإنسانية"

إن التدريب على هذه المسألة، التي تجعل من الإنسان إنسانا، يمكن أن يتحقق أيضا عبر الأعمال الفنية. ففي كل لحظة ينكسر فيها التاريخ، تشع أمام الإنسان مجموعة من الاحتمالات تنتشر كالمروحة، حيث ينتصر احتمال واحد فقط، وهو ما يسجله التاريخ. أما الاحتمالات الأخرى، فليس لديها شهود، إلا أعمالا تنبئ عن المستقبل. ولا نتحدث هنا فقط عن أعمال العالم المستعمر، التي كان مكانها وإلى عهد قريب في متاحف الأجناس كأعمال "بدائية"، مثل الأقنعة الإفريقية، أو **البولينيزية**، وانتهاءا بالتكعيبية التي أيقظوها، أو **الفنون الهندوأمريكية** التي أعجب بها **دوهرر**، والتي أحرقها الأسقف **ديغودولاندا** بإعتبارها رموزا للكفر، على غرار محاكم التفتيش، بينما كان يطالب بأشعار مقدسة، وكذلك "**البويول فو**" التي دمرت وكأنها أوثان، لأنها كانت محفورة من الحجر أو التماثيل التي أذابها مرتزقة بيزار في سبائك لأنها كانت من ذهب.

وحتى داخل أوروبا فقد، انعكس الحصار المفروض على الأمم على المدرسة نفسها إذ لم يكن مسموحا إحياء الأعمال التي تطرح مسألة معنى الحياة.

وتوجب انتقاء الخيار الروسي لإحياء **دراما الممسوسين** عند **دوستوفسكي في** الاخوة **كرامازوف**، أو "الأبله" المهيب، **يسوع** الذي بعث في عالم لا يمكن العيش فيه، وكما هو في **دون كيشوت لسرفانتس**، الفارس النبي الذي آمن أن المثالية هي أكثر حقيقة من الواقع. وعلينا انتقاء الخيار الانكليزي لإحياء دراما عصر النهضة عبر **شكسبير** أو الخيار الألماني مع **وليم مايستر** لغوته، أو مع إشعار **هولدرلين**.

وحتى في الأدب الفرنسي، تفسح الكتب المدرسية مكانا لجان جينيه، مثلما تعطي **لرومان رولان** أو **برنانو** أو **مورياك**، وأحيانا مكانا أوسع.

ونادرون أولئك الذين تجرأوا أن يصرخوا أمام ضلالات **بوبورج**، المركز الأكثر استقبالاً للــزوار: الملك عــارا، كما جعله – وبكل جرأة- **الرسام مـــاثيو أو البروفيسور فورمارولي** الذي استنكر ما سمي بــ"سوق الفن".

من يتجرأ أن يقول خلسة أو همساً، أن الديسكو بقوة ١٢٠ ديسيبل إنما يدخــل في تاريخ الضجيج وليس في تاريخ الموسيقى.

سيمضي وقت طويل من القرن الحادي والعشرين، حتى يجرؤ مؤرخ بعيد عمــا هو شائع، وعن التفكير الأحادي، والإرهاب الثقافي، أن يقيّم الثلث الأخير مـــن القرن العشرين من منظور الثقافة، مثلما استطاع التلفزيون، والحانات، وصـــالات العرض، أن يقنعنا بأن **نيكي دوسانتغال** كان نحاتاً **وبرنارد هنري ليفـــي** كـــان فيلسوفاً، وأن **كونينج** كان رساماً؟

إنه عدوان تحت شعار الحداثة المزعوم، طالما هناك "أطفال شـــيوخ" يحملـــون أفكاراً بالية، يشوهون **ساعة اللوفر** في باريس، والقصر الملكي، أو الجسر التاســـع بمساعدة وزراء معادين للثقافة.

يجب أن يبدأ تكوين الحس الجمالي الحقيقي لدى الإنسان من المدرسة، ومنـــذ الطفولة. ويجب أن يكون لتعليم الرقص أو الرسم فسحة كبيرة، منذ سنوات التعليم الأولى، شأنـــها شأن تعليم القراءة والكتابة والحساب واســـتخدام النظـــام الآلي، والهدف عدم تراكم المحفوظات، لإفساح مكان للروح الخلاقة بدلاً من الآلـــة، إذ يمكن للآلة أن تمارس أفضل منا، كل مناهج الحفـــظ والتركيب، مـــاعدا العمـــل الخلاق الذي يعطي لكل أفعالنا غايات كونية.

ولكن التربية، لا تستطيع حتى في بنيتها أن تنمو منفـــردة في المدرســـة، ولا في السنوات الأولى من العمر فقط.

ولقد أصبح تطور العلوم والتقنيات المختلفة، والعلاقات فيمـــا بـــين الأفـــراد والشعوب على مستوى العالم سريعاً جداً، بحيث نستطيع القـــول أن رجـــلاً في

الثمانين من عمره قد ولد في وسط التاريخ الإنساني، إذ أن ما حدث من تطور في هذا القرن، أكبر من ستة آلاف عام من التاريخ البشري.

ولنضرب مثالاً على ذلك: يمكن لأستاذ في الطب وصل إلى عمر الثمانين أن يقول لي: أنا لم أتعلم كتلميذ أكثر من ٣% من المعارف التي استخدمها اليوم. ويمكن لفيزيائي ذرة من نفس العمر ولكنه معاصر لعلوم فيزياء الذرة الآن، أن تكون معلوماته مساوية لمعلومات فيزيائي ذرة في الخمسين من عمره ومعاصر للعلوم ذاتها.

ولن نتحدث عن طلبة عام ١٩٦٨ الذين وضعوا على مدخل السوربون لافتة كتبوا عليها: "كلية الآداب والعلوم اللاإنسانية"، وهم محقون في ذلك.

إذن لا يمكن أن تبقى المدرسة محددة ببداية حياة الإنسان فقط، بل لابد من وجود فترة تكون فيها الحاجات الإنسانية مشبعة، من خلال عمل يمتد ثلاث ساعات يومياً فقط. عندها تستطيع المدرسة أن تمتد على مدى العمر كله لتخلق شعراء في كل الفنون وتلبي أعلى احتياجات الخلق لديهم.

ويجب أن يتكون التدريب، بدءاً من تدريب العمال اللازمين للصناعة، مروراً بتشكيل الكوادر الفنية والباحثين، هناك حيث يكون تكوين المعرفة تحويلاً مستمراً: في المصنع ومراكز الإدارة ومراكز الأبحاث في جبهة خلاقة، من العمل الإنساني متجددة باستمرار.

أما المدرسة، بما هي عليه اليوم فهي مؤسسة بالية، تتصل باحتياجات مرحلة معينة من التاريخ، ولكنها لا تلبي الاحتياجات الحقيقية للإنسان.

وهذا هو السبب الرئيسي لسخط التلاميذ والطلبة شأنهم في ذلك شأن المعلمين والمدرسين، ولن يستطيع أي "إصلاح" لهذا النظام أن يجعل منه أداة لتكوين المستقبل.

والمبادرة في الفعل الخلاق، لها مكانتها المميزة في الفنون؛ عندما لا تكون هذه الفنون، زمن الانحطاط، انعكاساً للفوضى المحيطة، أو تمرداً سلبياً عليها.

ومن المهم أن نتذكر دوماً الدعوة الأساسية للفن: خلق إمكانيات جديدة لتقدم الوحدة الإنسانية. ويتوقف الفن عن كونه فناً عندما تغيب عن وعيه هذه الرسالة النبوية، وهذا النداء للتعالي الإنساني، لجوهره الصلب والخلاّق، مثلما فعل شعراء **المهابهارتا، ورسوم تاو الصيني**، والرهبان الذين ترجموا الحماسة الصوفية رسماً ولوناً، ومثل روبيليو الذي أبدع أيقونة الثالوث، ومثل الذين أبدعوا معبد **بوروبودوار، ومساجد قرطبة وكاتدرائية تشارتوز**، ومثل **فان كوخ** المصلوب على صليب الفن. أو سادة التجريد الغنائي مثل **مانسييه أو ماتيو**.

من سيعطينا من جديد حماسة **بروميثيوس** منحوتة في لوحة "**العبيد، مقيدين" لمكلانج، أو** التركيز على الكينونة "للحي اليقظ" **لبودادوماتورا**.

ومن المحتمل أن توضع أيضاً خارج المدرسة أو باستخدام تقنيات النسخ الدقيق، وفي أيدي الجميع نسخ من الأعمال لنحاتين من كل أنحاء العالم باستخدام خلائط من الصموغ التركيبية التي تسمح بنقل المعالم بدقة نظام الميكرون. وستسمح لنا أعمال كهذه، توضع تحت ناظرينا على الدوام ولا تكلف أكثر من ثمن وجبة طعام، أن نتخلص من سموم موجات الرعب، و"التأثيرات الخاصة"، وأعمال العنف التي ترسلها **هوليود** إلى شاشاتنا الصغيرة، فهذا النوع من المشاهد، يدمّر الفكر الناقد، ليس أمام الحلم، وإنما أمام الكابوس الأمريكي، بما يحمله من أوهام بشعة في مسلسلات دالاس، ورعب الديناصورات، ورجال شرطتهم، أو "التأثيرات الخاصة" ليوم الاستقلال الخالية من كل إنسانية.

٣- السياسة وغائية الإنسان:

لا نرى هذا الكابوس فقط على شاشاتنا، إنما في قلب الحياة ذاتها، وعلينا أن نصارعه في هذا الميدان بالذات. عندها لا تصبح السياسة إلا الظاهر من باطن الفنون والإيمان.

إن نية الولايات المتحدة في الهيمنة على العالم كله، أصبحت واضحة جداً، (عن طريق تدمير الحياة التي يزعمون أنهم يصدرونها ويفرضونها على العالم كله)، وتثير غضب العالم بأكمله. وحتى أوروبا، التي تشاركها في امتيازات الغرب، بدأت تستيقظ من خدرها الطويل الذي منعها من أن تعي أنها بدأت تصبح تابعاً إن لم تكن مستعمرة.

ويملك القادة الإسرائيليون، الملهمون للسياسة الأمريكية وسادتها، القدرة للوصول إلى الرأي العام في البلدان الدائرة في فلك الولايات المتحدة، عن طريق وضع اليد على وسائل الإعلام من السينما إلى النشر، ومن الراديو والتلفزيون إلى الصحافة المكتوبة. ويستطيعون بهذا الشكل أن يموّهوا ولو لفترة من الزمن، الانحرافات القاتلة في السياسة الأمريكية، الهادفة إلى الهيمنة. وقد رسموا لها أهدافها المتعاقبة: العراق لتدميره أولاً بالسلاح، ثم بالحصار الذي قتل من البشر أكثر مما قتل السلاح، وهم يطمعون بعد العراق، في فرضها على إيران، وليبيا، وكوبا، وكل الدول التي ترفض إملاءات صندوق النقد الدولي، القاتلة لكل الشعوب.

كانت الشيابا في المكسيك، الانتفاضة الأولى. وهي نمط من الانفجارات الاجتماعية التي تقع بسبب سياسة الحرية الاقتصادية التي تسمح للأقوياء بالسيطرة على الأكثر ضعفاً واستغلالهم. كما تبدت بأعمال العصيان ضد سياسة صندوق النقد الدولي التي تتطلب إضافة إلى الخصخصة وكل الإجراءات التي تسمح للولايات المتحدة بغزو البلاد الخاضعة لإملاءات الصندوق، تتطلب ضغط الإنفاق الاجتماعي، بهدف تسديد القروض وفوائدها.

وأخذت المقاومة اتساعاً خاصاً في المكسيك، لأن سياسة الهيمنة فرضت عليها بموجب اتفاقية التبادل الحر "المعروفة باسم ALENA بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، والتي ألغت كل قيود التبادل التجاري والاستثمار.

لنتذكر معاً علاقة القوى الاقتصادية بين البلدان الثلاثة:

	الولايات المتحدة	كندا	المكسيك
التصدير "بمليارات الدولارات"	٣٩٣,٨	١٢٧,٧	٢٧,٢
الاستيراد "بمليارات الدولارات"	٤٩٤,٨	١١٦,٧	٣٨,٤

وأخذ العجز التجاري للمكسيك مع الولايات المتحدة يتصاعد بعد رفع الحواجز، سنة بعد سنة. وتتوقع المادة ١٠٢ من الاتفاقية:

١- إلغاء العقبات في وجه التجارة، وتسهيل حركة الممتلكات والخدمات.

٢- تشجيع ظروف المنافسة الشريفة.

٣- الزيادة الجوهرية في فرص الاستثمار.

إذ لا تكتفي المعاهدة بالتبادل التجاري، فالاستثمار يشكل جزءا من الاتفاق (المادة ١٠٣) الذي ينص أن يمنح كل بلد العضوين الاخرين، شروطا تفضيلية للإستثمار على الأقل بنفس القدر الذي تتمتع به الاستثمارات المحلية، وذلك فيما يتعلق بالتأسيس، والتملك، والتوسع، والإدارة، والبيع، وكل الأحكام الأخرى التي تتعلق بالاستثمار.

اتجه ٦٠% من رأس المال الأجنبي في المكسيك إلى أسواق البورصة، وكرس ما تبقى منه (٤٠%) لشراء المشاريع الحكومية التي أخضعتها الحكومة للخصخصة.

ولم تكن النتيجة فقط أن رأس المال الأجنبي، لم يؤسس أية صناعة جديدة، ولا فرص عمل جديدة، إنما العكس هو الصحيح، فقد أدت الخصخصة إلى انخفاض فرص العمل. أما الأرباح التي تتحقق بسرعة في البورصة، وكذلك تبخر رأس المال فهما خاضعان لظروف اليوم الواحد. فما أن تحدث مشكلة صغيرة، أو تنخفض

الأرباح، حتى تفر الرساميل بسرعة من البلاد، لقد أدى اعتماد الاقتصاد المكسيكي على رأس المال الأجنبي إلى فقدان البلاد لسيادتــها.

قاد الفارق الكبير في مستوى التطور بين المكسيك من جانب، وكندا والولايات المتحدة من جانب آخر، إلى لجوء الرساميل الاستثمارية الأجنبية للعمل منفصلة عن راس المال الوطني، مستخدمة تجهيزات تقنية أكثر تطوراً من التجهيزات المحلية، ممــا دفع بالمشاريع الوطنية إلى التوقف عن العمل واختفاء الأيدي الماهرة العاملة في هذه المشاريع.

أما ما يتعلق بالزراعة، فقد قادت الإجراءات التي اتخذتــها المكسيك، لتصبــح مؤهلة للمشاركة في اتفاقية (ALENA) إلى تعديل إجــراءات وأحكــام انتقــال الأرض، وتنظيم الملكية الزراعية التي حددها الدستور، فتحت مزاعم زيادة الإنتاجية وفق منطق الحرية الجديدة، توجب على الفلاحين مواجهــة الملكيــات العقاريــة الضخمة، والشركات متعددة الجنسيات العاملة في ميدان الزراعــات الغذائيــة، ففقدوا بذلك وسيلتهم الوحيدة للقوت.

وفي سياق هذا الوضع ظهر **جيش زاباتا** للتحرير الوطني.

كان منع المساعدات المالية عن الإنتاج الزراعي بموجب المادة ٧٠٤ من اتفاقيــة (**ألينا**). قد ترك المنتجين المتوسطين في المكسيك دون فرص أو إمكانيــة لمجــاراة الزراعة الواسعة في الولايات المتحدة وكندا.

ونورد في هذا المجال جزءاً من خطاب ألقاه أحد قادة عمال النسيج المكسيكيين في المؤتمر الدولي للعمل في سان فرانسيسكو (١٩٩٥):

"ينكر القانون الجديد على كل العاملين المكســيكيين حقــهم في الإضــراب للمطالبة بزيادة الأجور. وأما المسموح به فهو فقط الإضرابات المتعلقة بــالإخلال بنصوص العقود.

وتخضع المكسيك كلية، **لإتفاقية (ألينا ALENA)** وبدأنا نشهد إغلاق مئات المشاريع الصغيرة. لقد قيل لنا بأن "معلمي" هذه المشاريع لن يستطيعوا بعد الآن مجاراة المنتجات الأجنبية. وإذا أردنا أن نساعد أصحاب هذه المشاريع كي تستمر توجب علينا نحن العمال أن نتعاون معهم. ثم استخدم التهديد بإغلاق المصانع لفرض تنازلات على العمال، تنازلا بعد الآخر".

وطبقا لنصوص (**ألينا**) فقد جرت سلسلة من عمليات الخصخصة للمشاريع الوطنية والخدمية.

كما تكاثرت الاتفاقات الإنتاجية بين الحكومة وأصحاب المشاريع والنقابات الرسمية.

لم تقتصر اتفاقيات (التعاون) هذه على القطاع العام والخاص الإنتاجيين، بل امتدت إلى قطاعي الصحة والتربية. فقد ارتفع عدد طلاب الصفوف المدرسية عمّا كان عليه، وجرى الأمر نفسه بالنسبة للأطباء والممرضين والممرضات العاملين في الدولة، إذ ضوعفت واجباتهم تقريباً، مما أدى إلى انحدار مستوى الخدمات الصحية، بشكل درامي. أما الإجازة المرضية للعاملِيْن فقد ألغيت.

إن التنافس بين بلدين غير متساويين يؤدي إلى تدمير الأضعف منهما، وهو منطق مترابط مع الآيديولوجيا الليبرالية الجديدة. إن المستفيدين الوحيدين من (ألينا) هم فقط الأربعة وعشرون مليارديراً مكسيكياً (فوق المليار دولار).

وتولّد هذه الخبرة الأولية التي نستخلصها من قيام التبادل الحر بين بلدان قوية اقتصادياً، وبين بلدان ضعيفة بسبب تبعيتها، تولّد ما سوف يحدث على مستوى العالم كله، فيما لو نجح القادة الأمريكان في (عولمتهم) الاستعمارية.

كما تهدينا التجربة نفسها إلى دروب التحرير: وحدة كل القوى العاملة، والفكر المعادي للاضطهاد.

كانت جماعات هندية قد حملت السلاح في **شيابا** في ١/ كانون الثـاني ١٩٦٤ باسم (**جيش التحرير الزاباتي**). **وزاباتا** هو اسم القائد الموهوب للعصيان الهنـدي الفلاحي الأول عام ١٩١١، حيث أعطت المقاومة من خلالـه، الأمـل لكـل المضطهدين.

تلقت الحركة مساندة طيبة من أسقف **شياباس** (**شياباس**، هي المدينة التي دافـع أول أسقف فيها، عن الهنود بعد الغزو بقيادة **كورتز**).

كان أسقف **شياباس هو المونسينيور ساموبل رويز** قد وصل إلى **شياباس** عـام ١٩٦٥. وشارك عام ١٩٦٨ في مؤتمر أساقفة أمريكا اللاتينية الذي ولدت مـن خلاله لاهوتيات التحريـر. وفي عام ١٩٧٥ نشر **المونسـينيور رويـز** كتابـه "**اللاهوت الانجيلي للتحرير**" الذي قدَّم فيه المسيح يسوع كنبي ثوري، وأنشـأ في **أبرشيته** ٢٦٠٠ مجموعة قاعدية..

إن وضع منصب ذو طبيعة معادية للعنف، في خدمة **جيش زاباتا** دفع الحكومتان المكسيكية والأمريكية في آن واحد إلى اتـهامه بإثارة الهنود، ثم طلب **البابا يوحنـا بولس الثاني** عن طريق مبعوثه البابوي في مكسيكو، مـن الأسـقف أن يقـدم استقالته. ولكن الحكومة المكسيكية وأمام اتساع الحركة المسلحة، وجدت نفسـها مرغمة على الاستعانة به كوسيط. لذلك بقي في منصبه، وشرح في مؤتمـر عـام أسباب العصيان، فقال:

"لقد تعب السكان الأصليون في البلاد من الوعود الحكومية، واعتقدوا أنـه لم يبق أمامهم طريق آخر إلاّ حمل السلاح. لقد دُفِعوا دفعاً لينفد صبرهم".

يعود تركيزنا على المكسيك إلى ثلاثة أسباب:

١- لا يمكن فهم الوضع الحالي للمكسيك خارج السياق التـاريخي لأمريكـا اللاتينية، والتوسع الاستعماري للولايات المتحدة ليشمل القارة بأكملها. ويرسـم وضع المكسيك المسار الأكثر نمطية لتاريخ بلدان أمريكا اللاتينية.

٢- تعتبر الأزمة الحالية، الظاهرة الأولى التي تحمل دلالة فعلية على انهيار تدريجي لنمط الليبرالية الجديدة، المرتكزة إلى وحدانية السوق بسبب تناقضاتها الداخلية. وبسبب المعارضة المتزايدة للشعوب التي فرضت عليها. وما انتفاضة **الشياباس** إلا نموذج لما سيحدث آجلا أم عاجلا في عالم المضطهدين كله.

٣- أنشأت **اتفاقية (آلينا)** "وهي نفسها اتفاقية نافتا بلغة الأطلسي"، سوقا حرة بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، مستلهمة نفس المنطق الذي أوحى إلى أوروبا بوضع **معاهدة مايستريخ**، وبعبارة أكثر عمومية بنفس المنطلق التجاري الحالي الذي تريد الولايات المتحدة فرضه على العالم كله.

ومنذ ذلك الحين، أخذت **حركة شياباس** النموذجية ضد الهيمنة الأمريكية، أبعادا جديدة.

قرر **كلنتون** لأسباب انتخابية قذرة، وهي منافسة الجمهوريين في قاعدتهم الانتخابية، عن طريق كسب أصوات الكوبيين المعادين للثورة، والأقوياء في ولاية فلوريدا، إلى تشديد الحصار على كوبا بتنفيذ القوانين التي وضعها الجمهوريون أنفسهم وبشكل خاص القانون المعروف بـ **هلمز- بورتون**، والذي يعاقب المؤسسات الأجنبية التي تتاجر مع كوبا، وكذلك قانون **داماتو- كينيدي**، الذي يعاقب المؤسسات الأجنبية التي تنشئ استثمارات لها في إيران وليبيا. ولم يثير الإجراء غضب ضحاياه الأوائل من أبناء الشعب بسبب تدخله في المكسيك فحسب، بل أثار أيضا غضب شركات متعددة الجنسيات لها استثمارات في كوبا "كما في إيران وليبيا".

وإنه لأمر ذو دلالة أن قانون هلمز - بيرتون الذي أقره الكونغرس بمبادرة من الجمهوريين في ٣ كانون الثاني ١٩٩٦، قد وقعه كلينتون في ١٢ آذار والقاضي بفرض عقوبات دولية ضد حكومة فيدل كاسترو، بغية المساعدة في وصول وشيك وبالطريق "الديمقراطي" لتشكيل حكومة جديدة في كوبا.

ويكشف هذا الموقف عن خداع ودجل ما يسمى **بالتعددية الحزبية في الولايات المتحدة**، إذ يحكمها بشكل دائم حزب واحد، هو حزب المال (ويكشف دخول الملياردير روس بيرو حلبة الانتخابات الرئاسية عن حقيقة هذا الخداع. ويحمل قادة حزب المال سواء كانوا ديمقراطيين أو جمهوريين، السهم الأكبر نفسه، وهو فرض الهيمنة على العالم كله، لفتح الأسواق لمشاريعهم بدون عوائق.

وكانت المكسيك التي قبلت نير وعبودية (ألينا)، هي الضحية الأولى. كانت مجموعة **دوموس** الاختصاصية بالاتصالات اللاسلكية قد استثمرت في **كوبا** ٧٠٠ مليون دولار، فمنع مديروها مع عائلاتهم، وحتى أطفالهم، من الإقامة في الولايات المتحدة، منذ أن وضع قانون **هلمز- بورتون**، موضع التطبيق في ٢٤ آب ١٩٩٦.

وهكذا أصبح قانون أمريكي، له قوة القانون خارج الولايات المتحدة، تشريعاً للعالم كله.

و لم يتوقف تدخلهم عند هذا الحد. ففي نفس اليوم أي في ٢٤ آب، ومن خلال تطبيق نفس القانون الأحادي الجانب، وجهت ضربة للمؤسسة الكندية **شيريت (انترناشيونال)**، فقد تسلمت الشركة إنذاراً مدته ٤٥ يوماً لتضع حداً لاستثماراتها في مناجم كوبا "وبشكل خاص استخراج ومعالجة النيكل". وإذا تجاوز الأمر هذه المدة دون تنفيذ مضمون الإنذار، ستقوم سلطات البوليس والجمارك بمنع مديري هذه المؤسسة وعائلاتهم من دخول الولايات المتحدة، علماً أن اثنين من المديرين من بريطانيا.

أثار هذا الإجراء غضب حكومة كندا، لأنها الشريك التجاري الأول لكوبا، إذ يبلغ حجم التبادل بين الدولتين ٥٠٠ مليون دولار سنوياً.

هنا، تعطينا "**اتفاقية ألينا**" كل معناها الحقيقي، إنها التجربة الأولى التي توضح كيف تؤذي الهيمنة الأمريكية شركائها "الأتباع".

وأعلنت الحكومة المكسيكية، يدعمها القطاع الخاص في الاقتصاد المكسيكي رفضها لهذه الإجراءات المخالفة للحقوق الدولية. كما اقترحت الأحزاب الرئيسية الأربعة التصويت على قانون للرد على مثل هذا الاعتداء على السيادة الوطنية. وقال بيان الأحزاب: (علينا أن نطبق قانون المعاملة بالمثل: "العين بالعين والسن بالسن") لحماية المشاريع الوطنية من التوقف بسبب ضغوط خارجية، ولبناء نظام معونة لمصلحة الذين سيرفضون الخضوع للضغوط الأجنبية.

وحتى حكومة **زيديك**، المعروفة بخضوعها التام لأوامر واشنطن، قامت بالتشاور مع الحكومة الكندية لتشكيل جبهة مشتركة لمواجهة مثل هذه الانتهاكات والتشاور حول الإتفاقية التي تنص المادتان ١١٠٥ و ١٦٠٣ على التعامل بحقوق متساوية بين الأطراف الثلاثة، في الاستثمار وحرية تنقل رجال الأعمال في الدول الأعضاء، وهما مادتان انتهكتا بمنتهى الوضوح في قانون **هلمز – بورتون.**

كما قررت الحكومة المكسيكية أن تعرض الأمر على منظمة الدول الأمريكية، والاتحاد الأوروبي، لدعم هذه الجبهة ومواجهة الأطماع الأمريكية. وكانت منظمة الدول الأمريكية قد عارضت مراراً تشديد الحصار على كوبا.

أما أوروبا، فقد مستها أيضاً وقاحة القادة الأمريكان الذين ينوون فرض قوانينهم على كل "حلفائهم"، والذين أرادوا أن يجعلوا منهم أتباعاً، كما توحي بذلك النصوص الملحقة **بمعاهدة مايستريخ** "لا يمكن لأوروبا إلاّ أن تكون الركيزة الأوربية لحلف الأطلسي".

وأعلن الناطق الرسمي باسم المفوضية الأوربية كلاوس فان دريا، معلقاً على قرار واشنطن بمنع خمسة من قادة مجموعة الاتصالات اللاسلكية المكسيكية "دوموس" من دخول الولايات المتحدة قائلاً:

(إن عمليات كهذه غير مقبولة، ونحن لن نقبلها).

أما على المستوى القانوني، فالحصانة الدبلوماسية، والتصرف من جانب واحد، يشيران إلى مدى انحراف **قانون هلمز- بيرتون**. لقد قررت الولايات المتحدة دون أن تستشير أحداً أن تطبق أحكام القانون بحق مواطنين ليسوا أمريكيين، وتتعلق بأعمال تجري خارج أرضها. ويجري كل ذلك في الوقت نفسه الذي تدرس فيه الغالبية العظمى من البلدان، وعبر المنظمة الدولية للتجارة تأسيس قواعد مشتركة لتشجيع التجارة العالمية. وهذا ما دعى إلى ظهور رد فعل أوربي جماعي لرفض هذا القانون- **قانون هلمز- بورتون**، بما فيه الحكومة البريطانية.

وفور الإعلان عن قرار المنع ضد المؤسسة المكسيكية أدلى الناطق الرسمي باسم الخارجية الفرنسية بالتصريح التالي:

"أعلنت الولايات المتحدة في إطار تطبيق القانون المسمى **هلمز- بورتون**، عن نيتها منع قادة أحد المشاريع المكسيكية من الدخول إلى أراضيها، بسبب استثمار هذه المؤسسة أموالاً لها في كوبا.

إن تصرفاً أحادي الجانب كهذا، والمناقض لقواعد التجارة الخارجية، غير مقبول. وتأسف فرنسا لتطبيق هذا التشريع الذي تعارضه بحزم، مثلما تعارضه شريكاتها الأوروبيات. وتقوم الحكومة الفرنسية بالتشاور مع السلطات المكسيكية حول هذا الموضوع.

وسوف يستطيع المرء قريباً التحقق إن كانت هذه الأقوال الحازمة، ستؤكدها الأفعال، لأن القانون طال أيضاً مؤسسة أوروبية، وهي المؤسسة الإيطالية "ستيت"، التي اشترت من (**دوموس**) جزءاً من مشروع الاتصالات الهاتفية في كوبا، وهو ما يقع تحت طائلة المادة ٣ من القانون والذي يجيز للولايات المتحدة المتابعة القضائية للمؤسسات الأجنبية التي تستخدم ممتلكات صادرتها الثورة **الكاستروية**. وقد دخل هذا القانون حيّز التنفيذ في الأول من شباط ١٩٩٧.

(لنتصور أن فرنسا لديها نفس الحق لاستخدام هذا النوع من العقوبات ضـــد مؤسسات أمريكية، وضعت يدها على مؤسسات فرنسية في الجزائر، صـــودرت عقب حصول الجزائر على الاستقلال).

ترى، هل تجتمع أوروبا على المطالبة بانعقاد المنظمة الدولية للتجارة (الغـــات سابقا)، التي تنص من حيث المبدأ على التبادل الحر الشامل والقابل للتطبيق بين كل الدول الأعضاء التي تتمتع بحقوق متساوية؟

أو حتى دعوة محكمة العدل الدولية؟

سيكون ذلك في نطاق المنظمة لأن الدول الخمسة عشرة، قد وضعـــت قيـــد الدراسة مشروعا لمقاطعة قانوني **هلمز- بورتون وداماتو- كينيدي**، الذين يطالبان هذه الدول بتشديد الحصار على ليبيا وإيران.

لا يقف عائقا في وجه هذا التحرك الأوروبي إلا الخلافات بـــين الشـــركاء في نواياهم لمقاومة الهيمنة الأمريكية، البعض مثل المكسيك، لأن علاقات القوى، مـــع الولايات المتحدة، هي وإلى حد بعيد في غير صالحهم، والبعض الآخر مثل كنـــدا، لأن تبادلهم التجاري مع الولايات المتحدة ضـــروري في تجارتـــهم الخارجيـــة، فخضعوا للضغوط الأمريكية، كما حدث في الزيارة التي قام بـــها **ســـتورات ايزنشتات** المبعوث الخاص للبيت الأبيض في أيلول ١٩٩٦، مجددا إنذاره، وهكـــذا تراجع الشركاء الأوربيون، فتراجعت شركة **شل** عن مشاريعهـــا البتروليـــة في إيران، كما تراجعت اليابان التي أرخت بعد ذلك قبضتها.

لم يبق إلا ردود الفعل في بقية العالم مستنكرة الإملاءات الأمريكية، وهو مـــا يبشر بوعي قادم أن الولايات المتحدة تشكل الخطر الرئيســـي علـــى اســـتقلال الشعوب، كما يبشر باتساع متزايد معارض لأمريكا العدو المشترك.

يعتمد حل مشكلاتنا المتمثلة بالجوع في الجنوب والبطالة والتسريح، حـــتى في أوروبا، على استعدادنا لتوحيد كل ضحايا الهيمنة الأمريكية، بغية عزل قادتـــها،

باتحادنا في مؤتمر جديد، بمستوى **مؤتمر باوندونغ**، لشعوب الجنوب التي ترفض الهيمنة الاستعمارية للولايات المتحدة التي تمارسها على اتباعها الحاليين. فأوروبا التي استفادت طويلاً من سيطرتها الاستعمارية، ترى نفسها اليوم أنها في طريقها لتصبح هي نفسها مُسْتعمَرَة.

إن البرنامج الواقعي لعملية التحرير المزدوجة هذه، سيستطيع أن يعبر عن نفسه بإعلانين متضافرين:

- إعلان من الجنوب بالدعوة **لباندونغ** جديد.
- إعلان من أوروبا بالدعوة لوحدة عالمية منسجمة.

الهوامش

- **أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م)**، الفيلسوف اليوناني الشهير تلميذ سقراط ومعلم أرسطو. أساس فلسفته نظرية الأفكار والمثل وأسمى هذه الأفكار فكرة الخير. من أهم كتبه "الجمهورية" و "المحاورات والشرائع".
- **مارتن هايدغو**: فيلسوف ألماني ولد عام ١٨٩٩، من مؤسسي الفلسفة الوجودية.
- **الغزالي**: أبو حامد (ت ١١١١م) لقب بحجة الإسلام. نشأ نشأة صوفية، ثم انصرف لدراسة الفقه والكلام والفلسفة، علّم في بغداد، وكتب "تهافت الفلسفة" و "أحياء علوم الدين" و "المنقذ من الضلال".
- **ميشليه (١٧٨٩-١٨٧٤)**، مؤرخ فرنسي عرف بأفكاره الليبرالية والمعادية للكنيسة اتصفت كتاباته بروح إنسانية والتعلق بغوامض الطبيعة.
- **رينان (١٨٢٣-١٨٩٢)**، أديب فرنسي كرّس نفسه لدراسة اللغات السامية وتاريخ الديانات، أكدت أعماله المتصلة بدراسة الكتاب المقدس وجهة نظره العنصرية.
- **غوته (١٧٤٩-١٨٣٢)** شاعر ألماني، من أشهر كتبه **"فاوست"، وفرتر"، و"هرمان ودوروتيه"**.
- **ماك آرثر (١٨٨٠-١٩٦٤)** جنرال أمريكي، قاد جيوش الحلفاء في المحيط الهادي، وترأس القوات التي احتلت اليابان ١٩٤٤-١٩٤٥.
- **بول فاليري (١٨٧١-١٩٤٥)** كاتب وشاعر فرنسي، كتب في الموسيقى والرسم والعلوم.

-**هيرودوت مؤرخ يوناني (٤٨٤-٤٢٠ ق.م)** كتب تاريخاً تضمن ما هو تاريخي وأسطوري، وقارن بين الحضارة اليونانية وما سماه بعالم البرابرة (مصر - الفرس - ميديا).

- **بلوتارك (٥٠-١٢٥م) مؤرخ يوناني**، عاش في روما وجال في الشرق. له كتاب عن مشاهير رجال اليونان والرومان.

- **الأوكسيتاني**: مجموعة أقاليم وسط فرنسا تتكلم بلغة OC، وهي مجموعة من اللهجات ذات اصل لاتيني.

- **ايزوقراط (٤٣٦-٣٣٨ ق.م)** خطيب يوناني، دعم اتحاد اليونان ومقدونيا ضد الفرس.

- **لاسكو**: كهف في مونتنياك (جنوب غرب فرنسا)، اكتشفت فيه عام ١٩٤٠ مجموعة هامة من المنحوتات والرسوم تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

- **دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١)**، من أكبر كتاب الرواية الروس، ترك أثراً كبيراً في الحركة الفكرية الروسية المعاصرة.

-**سرفانتس (١٥٤٧-١٦١٦)** كاتب إسباني صاحب كتاب "دون كيشوت". يتصف أسلوبه بالسخرية.

- **هولدرلين** شاعر ألماني ولد عام ١٨٣٤، تميز أسلوبه بالصوفية التي توحي بالرومانتلية.

-**جان جينيه** كاتب فرنسي ولد عام ١٩١٩، كتب في الرواية والشعر والمسرح، تتضمن كتاباته نقداً جارحاً لرياء العالم المعاصر.

- **رومان رولاين (١٨٦٦-١٩٤٤)**، كاتب فرنسي حائز على جائزة نوبل.

- **جورج برنانوس (١٨٨٨-١٩٤٨)** كاتب فرنسي موزع بين الصوفية الكاثوليكية والثورة. انتقد في رواياته الوسطية واللامبالاة.

- **فرانسوا مورياك (١٨٨٥-١٩٧٠)** كاتب فرنسي، له عدد من الروايـــات، عرض فيه صراع الإنسان بين إيمانه وحياته الخاصة، نال جائزة نوبل لـــلآداب عام ١٩٥٢.

- **جورج ماتيو رسام فرنسي**، ولد عام ١٩٢١، اهتم بالفنون التطبيقية. منظـــر المدرسة التجريدية الغنائية.

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل التاسع

الفصل التاسع

إعلان عالمي للواجبات

لا يمكن أن يكون القادة الرئيسيون لعملية التحرير من وحدانية السوق، من نوع أولئك الذين ينتسبون إلى إعلان "حقوق الإنسان"، الذين لهم الفضل، في أعقاب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ بوضع نهاية للسلالات الحاكمة، وأصحاب امتيازات الدم، لأنهم أوجدوا بدلاً منها سلالات حاكمة أخرى، وامتيازات أخرى هي امتيازات المال.

لقد سجنوا الفرد داخل أنانيته، وممتلكاته، بعد أن ألغوا النظام القديم، نظام النبلاء والسلالات الملكية الحاكمة، كي يتركوا لمن يملكون كامل الحرية لاستخدام واستغلال الجماهير المحرومة.

المطلوب اليوم، شيء آخر غير هذا الرفض البسيط للماضي القريب.

المطلوب رفض كل أشكال الهيمنة، ومزاعم الاستثناء الغربي، وإيجاد تيار رئيسي وعالمي لأنسنة الإنسان، انطلاقاً من إعلان للواجبات، يدعو كل إنسان، وكل البشر إلى تحمل مسؤولياتهم، مذكراً، انطلاقاً من الطبيعة، بفطرية إنسانية الإنسان.

وهذا هو المخطط الأولي الذي نقترحه لإعلان عالمي للواجبات:

ينطلق إعلان الواجبات من التفريق بين الإنسان والكائنات الأخرى، إذ هناك فارق أساسي بين التطور البيولوجي، والتاريخ الإنساني. فالإنسان لم يصنع الأول، أما الثاني فهو من عمله.

لهذا لا يملك الإنسان طبيعة فقط، بل يملك أيضاً تاريخاً. وهو مسكون، واعياً لذلك أو غير واعٍ، بكل أعمال الخلق السابقة في الثقافة الإنسانية. لأنه يستفيد من هذا التراث، فهو مسؤول عنه، وعليه واجب المشاركة الخلاقة لإغنائه، لمتابعة أنسنة الإنسان.

ومن هذا الواجب الأساسي تنبثق كل الواجبات الأخرى.

١- ترتب علينا أنسنة الإنسان، التي هي نتاج ثقافات كل عائلات الأرض، واجبات لخدمة هذه العالمية.

ولا تستطيع كل الأفعال، وكل الأفكار أن تمتلك قيمة إنسانية، إذا لم تعط كل طفل، وكل امرأة، وكل رجل، كائنة ما تكون ثقافتهم الأصلية، أو إيمانهم أو موطن ولادتهم، الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية والروحية، لتطوير إمكانياتهم الإنسانية الخلاقة التي يحملها كل منهم بين جنبيه.

ولا يمكن لأي تنظيم اجتماعي أن يكون إنسانياً إذا كان له هدف آخر غير هذا.

ويستدعي ذلك إلغاء إدعاء كائن من يكون أنه "شعب مختار" لما يتضمنه هذا الإدعاء من رفض قبلي للوحدة الإنسانية.

٢- ترتب كل سلطة يتمتع بها أي إنسان بواقع وجوده في موقع إدارة أو منظمة في المجتمع الذي هو عضو فيه: كنيسة، أمة مشروع إنتاجي، مشروع خدمي، منصب مهني، أو أية مصلحة أخرى للمجتمع مسؤولية واجبات إضافية في أن يسهر من خلال ممارسة سلطته، على مصلحة مجتمعه الخاص، دون أن يؤدي العمل الخارجي لهذا المجتمع إلى الإضرار بالمجتمعات الأخرى في العالم كله.

مثلاً: لو تمتع هذا الإنسان بسلطة دينية، فيجب أن لاتصل هـــذه الســـلطة إلى درجة الضغط أو عزل أي فئة أخرى سواء كانت دينية أو لا دينية.

وتفرض عليه السلطة التي يمارسها كائناً ما يكون مستواها، إنما بشكل خـــاص ممارس السلطات العليا، واجب السهر على مصالح شـــعبه الخاصـــة دون إنشـــاء امتيازات خاصة به، وعلى الأقل عدم الهيمنة على شعب آخر.

٣- تتضمن الملكية واجب استثمارها في خدمة الإنسانية جمعاء، لأن هذا الغـنى إنما هو من عمل العلم والتقنية اللذين أبدعهما الإنسان. وتعود ملكية هذه الـثروة ومنذ آلاف السنين، إلى الأجيال المتعاقبة التي ابتدعت أنواع الزراعات الجديـــدة، وتقنيات الصناعة والتبادل، وكذلك العلوم والفنون التي خلقتها هذه الأجيـــال أو طوّرتـــها.

وما كان منها - في زمن ما - مشاعاً أو ملكاً خاصاً، أو جماعياً، فهو منـــها بمثابة الوكيل المسؤول. فإن لم ينجز واجباته، توجب على المجتمع الذي هو عضـــو فيه، أن يجرده من هذا التكليف، ويعطيه شخصاً آخر أو جماعة تكون واعية لهـــذه الالتزامات.

٤- الواجبات تجاه الطبيعة: إنـــها حالة خاصة من الواجبات تجاه الملكيـــة. لا يجوز لفرد أو جماعة، أن تدعي لنفسها امتيازاً لإنـــهاك الطبيعة أو تشـــويهها، أو تدمير ثرواتـــها من أجل متعته أو متعتها الخاصة.

وقد ورثنا طبيعة- بالشكل الذي هي عليه اليوم - عملت الأجيـــال العديـــدة المتعاقبة على أنسنة القسم الأعظم منها.

لذلك لا يجب أن نعتبرها مستودعاً للثروات لا حدود له، لإرضـــاء شـــهواتنا الحاضرة، ولا مجمع قمامة لنفاياتنا. إنـــها لا تعود فقط لمليارات البشر الأمـــوات الذين أخصبوها. بل أيضاً إلى مليارات من البشر الذين لم يولدوا بعـــد. وعلينـــا

واجب أن نجعلها أكثر خصباً وأكثر جمالاً مما تلقيناها من الأسلاف، دون ربط للمستقبل بها.

٥- تعني الحرية أن لا يكون المرء أسير مصالحه الشخصية، أو أسير أهداف خاصة بالجماعة التي ينتمي إليها، وأن يتحرك فقط من هدف تشجيع كل أعضاء المجموعة الإنسانية.

إنها ليست صفة لفرد منعزل.(**وباليونانية ذرّة**، بمعنى أنه جزء منفصل عن بقية الأجزاء بفراغ). أما الفرد في الغرب فهو مركز ومقياس كل الأشياء، ومنفصل عن كل الآخرين بحاجز حقوق مرسوم بدقة. وبالعكس نحن نرى أن الكائن البشري يعي واجباته، أي أنه مسؤول تضامنياً عن مصير الآخرين.

٦- وينبثق مفهوم الأمن ومقاومة كل أشكال الاضطهاد، التي لا تقع إلا من فرد أو جماعة تنكرت لواجباتها الإنسانية، ينبثق من هذه الروح التضامنية التي يتصف بها من يعون واجباتهم.

ولن تستطيع أية قوة مادية أن تنتصر طويلا على جماعة موحدة بالوعي الجماعي لهذه الواجبات الإنسانية. وأعطانا التاريخ الإنساني أمثلة كثيرة عن التفكك النهائي لكل الامبراطوريات.

٧- يتوجب على كل رجل وكل امرأة في موقع ما من القدرة الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية، أو الروحية، أن يسأل نفسه عن الغايات الكبرى، أي معنى عمله وهدفه، وفيما إذا كان هذا العمل يخدم ازدهار الإنسان، كل إنسان، أو يؤدي إلى انحطاطه ودماره، مثل:

- إقامة المشاريع الإنتاجية ذات النفع المادي الأكبر مثل التسليح والمخدرات.

- إقامة أجهزة تستفيد من سلطة أكبر للتلاعب بالأفكار والتلاعب بها عن طريق وسائل الأعلام والنشر والتربية والدين والفنون.

٨- تنبثق حقوق الإنسان من هذه الواجبات ويمكن إجمالها في حق واحد: أن لا يواجه أحد عقبات أو حدوداً مثل التمييز الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي أو الروحي أو تمنعه من أداء واجباته تجاه البشرية جمعاء.

٩- ويمكن إرجاع كل هذه الواجبات، إلى واجب واحد برز من خلال واحدة من أقدم الروحانيات في تاريخنا، عندما امتلك الإنسان وعياً كاملاً لإنسانيته، أي خصوصيته بالنسبة لكل الأنواع الحيوانية. فالطبيعة لا تستبعد الصراعات حتى الموت بين الأنواع المختلفة، ولا هلاك مليارات الكائنات، وهي بالتالي لا تستطيع أن تزودنا بقوانين تتعلق بالعمل الإنساني خاصة. إن واجبنا الفرد الذي تتولد منه كل الواجبات، يأخذ صيغته الأساسية الواعية والإنسانية أبداً: أن أكون "واحداً" مع "الكل".

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل العاشر

الفصل العاشر

برنامج عملي

أولاً: مؤتمر باندونغ جديد.. للعالم الثالث.

هذا هو البديل الذي نقترحه، كي يتمكن القرن الحادي والعشرون أن يرسم نهاية لحيوانية الإنسان في عصور ما قبل التاريخ. إن غنى أقلية صغيرة، في عالم مقهور، يقود إلى التبعية والاستغلال، أو موت القسم الأعظم من الإنسانية.

١- لا يمكن لإحياء الوحدة الإنسانية أن يتحقق بالطريقة التي تمزقت بها: بالعنف والسلاح، إنما بواسطة تضافر كل القوى الإنسانية، وبشكل خاص قوى الاقتصاد والثقافة والإيمان.

٢- يعود القسم الأعظم من ضعف الشعوب المعاصرة المضطهدة، إلى انقساماتها، بسبب العقبات والحروب التي أثارها وغذاها سادة العالم الفعليون. ويجب أن ينصب الجهد الأساسي المطلوب على المفاوضات الهادئة لوضع نهاية لكل الصراعات التي هي لعبة الطغاة.

٣- لابدّ من رفض جماعي لتسديد الديون المزعومة إلى صندوق النقد الدولي. ولهذا الموقف ثلاثة أسباب:

أ- من هو الطرف الدائن؟

إن الغرب هو المدين للعالم الثالث بدين مرعب.

- من يدفع **للبيرو** "قيمة ١٨٥٠٠٠" كيلو غرام من الذهب "١٦" مليون كيلو غرام من الفضة التي اعترفت شركة **"كازا كونترا كاسيون"** في **سيفيل** أنها نقلتها ما بين عامي ١٥٠٣و ١٦٦٠؟

– وبشمولية أكثر، من دفع للهنود ثمن قارتـــهم بأكملها والتي اغتصبها الغزاة؟

– من سيعيد ترميم الهند القديمة، أعظم مصدر عالمي للنســـيج، أثمـــان ملايـــين الأطنان من الأقطان أخذت من المنتجين بأسعار تماثل الابـــتزاز بـــالعنف، ومـــن سيعوض تدمير مشاغل النساجين الهنود لصالح المصانع الكبرى في **لانكشاير**؟

– من يعيد لأفريقيا حياة الملايين من أبنائها الأقوياء الذين نقلوا إلى أمريكا عبيداً، بواسطة تجار الرقيق الغربيين وعلى مدى ثلاثة قرون؟

٢– ما هو سبب هذه المديونية؟

دمرت بلدان الاستعمار القديم، الاقتصاد الوطني في البلاد التي استعمرتـــــــها، وبشكل خاص زراعاتـــها الحيوية لصالح زراعة نوع واحد أو إنتاج واحد، ليشكل زائدة أو ملحقاً باقتصاد الدولة المستعمرة، ولمصلحتها بشكل مطلق. و لم يســـتطع هذا الشكل من الاقتصاد، المحافظة على استقلال هذه البلدان، ولا على كفايتـــــها الذاتية من الغذاء، ولا على اليد العاملة في صناعات لا تحتاجها البلاد.

وهكذا تواصلت التبعية، وأصبحت القروض أمراً لا مفر منه.

٣– لقد جرى تسديد هذه القروض منذ زمن طويل عن طريق الفوائد الربويـــة التي دفعت للمقرضين الأجانب، فقد دفعت الجزائر مثلاً ٦ مليار دولار سنوياً فوائد قروض بلغت ٢٦ مليار دولار. ومن المستحيل بـــهذا الشكل الوصـــــول إلى أي تصحيح لهذا الوضع، وهنا يكمن المصدر الأساسي لفكرة اكتمال ســـــداد هـــذه القروض.

لقد تجاوزت المبالغ التي دفعناها فوائد للقروض، ومنذ زمن طويل القيمة الأصلية لـــها. أما المساعدات المزعومة فهي أقل بكثير مما سدّد من هذه القروض.

- لذلك نحن نرفض أن نخضع للابتزاز، وأن ندفع إلى صندوق النقد الدولي هـذه الديون المزيفة، وما ترتب عليها من فوائد ربوية.

- كما نرفض المساعدات الزهيدة، والهادفة لتمويه هذا الظلم المميت عبر مئـات السنين.

- وسوف نؤسس مع إلغاء الديون وفوائدها، صندوق تضامن ودعم، يعوضنـا بشكل واسع عن (المساعدات) المزعومة التي يقدمها مستغلونا.

٤- نحن نعارض كل أشكال المقاطعة المفروضة بشكل تعسفي من قبل سـادة العالم المؤقتين، على البلدان التي ترفض هيمنتهم.

ولن نقيم لها بعد اليوم وزناً، وسنبدأ التعامل بحرية مع إخوة لنا تـأثروا بهـذه المقاطعة.

٥- ونقرر، وبشكل أكثر شمولية، إيجاد سوق مشتركة لشـعوبنا، ومضاعفـة التبادل بين الجنوب والجنوب، والذي تحتفظ بلدانه بـ ٨٠% من المصادر الطبيعية في العالم.

وسوف نتعامل في ميدان التبادل، على قاعدة المقايضة كي نتجنب تماماً النقـد الشمالي، وبشكل خاص الدولار، ساهرين على ذلك، كي نضع بشكل تدريجـي نـهاية للمضاربات، إذ لا مكان لها في بلداننا، وبانتظار أن نوجد نحـن عملـة مشتركة.

٦- ويتطلب هذا الموقف مقاطعة منهجية للولايات المتحدة وأتباعها، وبشـكل خاصة إسرائيل، الدولة المرتزقة لدى الغرب، والتي يستخدمها ضد ثقافاتنا وضـد السلام.

فنحن نريد أن نضع حداً للسيطرة الاقتصادية ونـهاية للعدوان الثقافي.

وسنناضل أيضاً ضد "اللاثقافة" التي تعززها مسلسلات الديناصورات الطفاة، و"قتلة" هوليود وكذلك لعبهم الفارغة، وكل الظواهر الأخلاقية والمادية لانحطاطهم.

٧- ويتطلب هذا الموقف، سياسياً، الانسحاب الجماعي من كل المنظمات المزعوم أنها عالمية، والتي أصبحت أداة بيد دولة واحدة مهيمنة، لتغطية اعتداءاتها العسكرية والاقتصادية والثقافية: الأمم المتحدة، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، منظمة التجارة العالمية "الغات سابقاً"، وكذلك الانسحاب من المنظمات التي انبثقت عنها، لأنها أصبحت مثلها أداة تآمر لفرض الهيمنة على العالم، وتحمل مفاهيم تحط من قدر الإنسان، إذ تنظر إليه كمستهلك ومنتج فقط، لا تحركه إلا مصالحه الخاصة، وترفض أن تعطيه معنى آخر غير العمل كرقيق، من أجل أن يستهلك أكثر، عندما لا يكون عاطلاً عن العمل أو مستعمراً، أو معزولاً.

٨- سوف نقاوم معاً أي اعتداء أو تهديد على أي منا. سنقاوم بكل الوسائل، وبالمجتمع الدولي كله.

٩- لا تطبق هذه الجماعة الإنسانية، المتطلعة لإنشاء عالم بوجه إنساني، أي عزل ديني، أو سياسي، لأنها تهدف أساساً إلى خلق وحدة غير استعمارية، ولكنها منسجمة في إنسانيتها. وسيحمل كل شعب، وكل جماعة إلى هذه الوحدة غناه الخاص في أرضه وثقافته وإيمانه.

والباب مفتوح أمام الرسميين في الدول، الذين يشاطروننا فكرتنا الإنسانية، كما هو مفتوح أمام الأقليات المضطهدة، بشرط الاعتراف لكل بلد بوحدته على أساس مبادئنا العامة.

كان الهدف الرئيسي لمؤتمر **باندونغ الأول**، رفض عالم ثنائي القطبين ورفض الانحياز لأحد المعسكرين، وحماية استقلال كل بلد من بلدان عدم الانحياز وسيبقى هذا الهدف هدفنا.

ولكن الظروف التاريخية تبدلت، فنحن اليوم نعيش عالماً أحادي القطب، وعلينا بذلك أن ندافع عن هوياتنا وثقافاتنا واقتصادنا ضد التكاملية التي توّطئ للطامعين بالهيمنة على العالم من خلال وحدانية السوق، أي حرية الأقوى في التهام الأضعف، ليجعلوا من السوق، أي من المال، الناظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية.

نحن نرفض النظر إلى العالم بدون الإنسان، وإلى الحياة بدون مشروع إنساني وبلا معنى، وسوف نتوحد لنبني عالماً من "الأمم المتحدة" غنياً بتنوعه، مطمئناً لمستقبله، من خلال امتزاج الشعوب والثقافات في إيمان واحد، نغذيه بتجربة كل شعب وحضارته، تتفتح فيه الحياة باستمرار وفق مشروع شامل يعطي كل طفل وكل امرأة وكل رجل مهما كان أصله، وتقاليده الخاصة، كل الوسائل لتبرز بشكل كامل كل إمكانياته الإنسانية التي يحملها بين جنبيه.

* * *

ثانياً: وحدة عالمية متناغمة ومنسجمة – مشروع لأوروبا.

إن السياسة الوحيدة اليوم التي يمكن أن يكون لها مستقبل هي التي ستحل المشاكل الأساسية المطروحة أمامنا:

– البطالة.

– الهجرة.

- الجوع في العالم.

- مع كل التبعات الأخلاقية الناتجة عنها.

- ويجب ملاحظة:

- أن هذه المشكلات لا تعمل إلاّ متضافرة، وكأنـــها مشكلة واحدة.

- أنـــهم لا يقدمون لنا إلاّ الحلول الخاطئة.

إن القولين الأكثر خداعاً هما:

- قولهم أن هذه المشاكل ستحل عن طريق التنمية.

- قولهم أن هذه المشاكل ستحل عن طريق أوروبا.

إنـــها الأكاذيب الأشد قتلاً.

١- لن تحل التنمية أياً من مشاكلنا الحياتية:

فالولايات المتحدة، والأحزاب السياسية في البلدان الغربية لا تلامـــس هـــذه المشكلات أبداً، لأنـــها مأخوذة منذ خمسة قرون بأوهام التنمية، أي تحقيق إنتـــاج أكبر وأكبر، وبسرعة أشدّ وأشدّ، لأي شيء، مفيداً كان أو غير مفيد بل أحيانـــاً يكون مميتاً "كالسلاح والمخدرات".

وتُقدّم لنا هذه التنمية عبر وسائل الأعلام ودروب السياسة وكأنـــها الترياق من الأزمة، ومن البطالة. لكن التنمية التي تحققت منذ عام ١٩٧٥، ومن خـــلال زيادة الإنتاجية بفضل التطور العلمي والتقني، لم تخلق فرص عمل جديدة، وإنمـــا فعلت العكس، أي أنقصت فرص العمل عندما استبدلت عمل الإنسان بعمل الآلة. لنذكر مثالاً على ذلك: أنتجت بلجيكا عـــام ١٩٨٠ /١٠/ مليـــون طـــن مـــن

الفولاذ، عمل فيها ٤٠٠٠٠ عامل، وأنتجت عـــام ١٩٩٢، ١٢,٥ مليون طـــن بـــ ٢٢٠٠٠ عامل فقط.

لقد دفعت التنمية إلى الأمام بسبب زيادة الإنتاجيـــة، بفضل العلـــم والتنميـــة الذين سمحا باستبدال قسم كبير من العمل الإنساني بالآلة. والآن، سيستبدل قســم آخر، وربما أكبر عن طريق تطور المعلوماتية والإنسان الآلي "الروبوت".

مثلاً: لقد زادت الإنتاجية بسبب هذين الاكتشافين ٨٩% وهي فرصة للإنسان لتوفير الجهود الأكثر تكراراً. ولكن ما بقي سيئاً أن ساعات العمـــل لم تنخفـــض وتضاعفت البطالة عشر مرات.

وهذا يدل أن التنمية الإنتاجية لم تخدم مجموع البشرية، وإنما خدمـــت فقـــط مالكي وسائل الإنتاج.

إذن، ولكي تكون هذه التنمية مفيدة للجميع، لابد من ربط ساعات العمـــل تطور الإنتاج.

وسيكون عملاً خيّراً، إذا لم نربط الزيادة في أوقات الفراغ، "بسوق أوقـــات الفراغ"، الذي يحول وقت الفراغ إلى وقت "فارغ"، فارغ من الإنسانية من خلال ألهيات يقدمونـــها لنا، لا تؤدي إلى ازدهار ثقافي أو مادي.

وبدلاً من أن يساعد هذا الحيز من الحياة الإنسان كي يكون إنساناً أي مبدعـــاً وخلاقاً، يتجه - بفضل نظام السوق - لجعله عاطلاً عن العمـــل، وفي أحســـن الحالات مستهلكاً.

ليس هناك صلة بين التنمية والبطالة.

ففي فرنسا مثلاً:

العام	معدل النمو	عدد العمال العاطلين عن العمل	نسبتهم إلى القوة العاملة
١٩٩١	٠.٧%	٢٣٤٨٠٠٠	٩,٤%
١٩٩٢	١,٤%	٢٥٠٠٠٠٠	١٠,٤%
١٩٩٣	١%	٢٩٠٠٠٠٠	١١,٦%
١٩٩٤ حتى نيسان		٣٢٠٠٠٠٠	-

وهي أرقام صادرة عن جهات رسمية.

ولا يفهم من ذلك، أننا معادون للتنمية، أو لتقدم العلوم والتقنيات، مادامت تعمل على تخفيض جهد الرجال والنساء ولا تقود إلى عبوديتهم أو انحرافهم، مثلما حدث في "الاعلام السريع" الذي يسخر للتلاعب بالرأي العام خدمة للهيمنة الأمريكية.

ولكن التنمية، وزيادة الانتاج، حتى مع التدابير التي نقترحها لن تحل مشاكل البطالة. حتى ولو حاولنا أن نوفق فيما بينها، عن طريق ضغط الأجور ونفقات الضمان الاجتماعي، كما تريد الحكومة وأصحاب العمل، فقد نستطيع ـ على الأكثر ـ أن نكسب بعض أجزاء السوق من خلال المنافسة الأوربية والأمريكية واليابانية. ومع ذلك سيبقى هناك ذرائع أخرى تدعو للسخرية.

٢ـ الكذبة الأخرى ـ بعد ترياق التنمية ترياق أوروبا.

لن تحل أي من المشاكل الحيوية في إطار أوروبا.

لقد وعدونا أنه مع "أوروبا "سيكون لدينا سوق تلبي حاجـــات ..٣ مليـــون زبون،وتناسوا القول أن ذلك سيستدعي وجود ..٣ مليون متنافس في "ســــوق" العمالة، لأن الاقتصاديات الأوربية ليست متكاملة وإنما متنافســـة، إلى جـــانب منافسة الاقتصادين الأمريكي والياباني.

أيعني هذا أن البديل الوحيد لأوروبا، هو الانكفاء الوطني، لفرنسا مثلاً، لتغلـق على نفسها أسوار الحماية؟

بالعكس،لأن ذلك سيكون الاختناق بعينه.

إن الحل الوحيد المحتمل، هو الانفتاح على العالم في شمـــوليته. لقد مضـــى..٥ عام على الاستعمار وخمسون عاماً من تأسيس صندوق النقد الـــدولي، والبنـك الدولي ومازال العالم ينوء كثيراً تحت عبء اقتصاد مشوه، بعد أن نـــهب الغـرب ثروات ثلثي سكان العالم، فتركهم في فقر مدقع، وسيبقون متاخمين لحدود المجاعـة والبطالة. وبين الإثنين ستبقى الهجرة طريق العالم من المجاعة إلى البطالة. حتى لـو قسنا الأمور بمعايير السوق فقط، فكيف نأمل أن نوفر العمل لأفراد بينما ملايـــين البشر لا يملكون الحد الأدنى لشراء غذائهم.

إن الحل الوحيد الممكن للاستجابة لجوع البعض، وبطالة البعض الآخر، والــرد على هجرة الجياع في بحثهم الخادع عن عمل، يكمن في التغيير الجذري في علاقاتنا مع العالم الثالث ووضعنا نـــهاية لسيطرة الغرب، وتبعية الجنوب، لأن هذه التبعيـة هي التي تولد التخلف.

نحن نعيش في عالم مجزأ، بين الشمال والجنوب، وبين الذين يملكون والذيـــن لا يملكون في الشمال نفسه، وكذلك في الجنوب. ويسيطر .٢٣% من ســـكان الأرض على .٨٥% من المصادر الطبيعية في هذا الكوكب، ويستولون علـــى ٨٣% مـــن

عائدات العالم. أما ٢٠% من سكان العالم الأكثر فقراً فلا يتجاوز نصيبهم من العائدات ١,٤% فقط.

ويموت بسبب هذا الانقسام، ٤٠ ألف إنسان يومياً، نتيجة سوء التغذية أو الجوع. ويكلف نمط التنمية الغربي العالم من الأموات، كل يومين، ما يعادل ضحايا قنبلة **هيروشيما**.

وتتسع الهوة يوماً بعد يوم، إذ ارتفعت نسبة التباعد بين الدول الغنية والدول الفقيرة، خلال ثلاثين عاماً، من واحد إلى ثلاثين، لتصبح واحداً إلى مئة وخمسين.

وبعد أن تمكن الاستعمار خلال ٥٠٠عام، **ونظام بريتون وودز** خلال ٥٠ عاماً، من خلق هوات لا قرار لها من عدم المساواة بين الشعوب، أصبح نظام التبادل كافياً لتعميق الهيمنات والتبعيات.

كيف نقلب الانحرافات الحالية؟

أولاً: عن طريق تحطيم الأسطورة التي تعمّد "ديمقراطية" حرية السوق، لأن السوق الحرة تقتل الديمقراطية بسبب تراكم الثروة في قطب واحد، والبؤس في قطب آخر.

ويتطلب هذا الأمر مجموعة من القرارات السياسية الهادفة إلى التحرر من خدعة عولمة الاقتصاد، أي من الإدارة الأمريكية التي تعمل على جعل فرنسا، وكذلك أوروبا، وكذلك بقية العالم، مستعمرة تفتح الطرق للاقتصاد الأمريكي في كل القطاعات: من الزراعة الغذائية إلى الملاحة الجوية، ومن الإعلام إلى السينما.

وفي كل يوم تزداد وضوحاً حقيقة أن **معاهدة مايستريخ** هي سبب رئيسي للشرور، ليس فقط للمزارعين "إذ تطالب المعاهدة بترك مساحات غير مزروعة"، وإنما لكل العاملين، فتشجع بذلك تحت زعم المنافسة الأوروبية، على الوصول إلى

تسوية عن طريق تعديل شروط العمل، باسم المرونة. وهي تريد بذلك أن تلغي كل صناعاتنا، من الطيران إلى المعلوماتية، وأن تـسهين ثقافتنا بغـزو تقـوده السـينما الأمريكية والتلفزيون الأمريكي.

كما تريد أن تجعل من جيشنا ملحقاً بجيشها يشـاركه التدخـل في البلـدان الأخرى. وتدعي معاهدة ما يستريح في ثلاثة مواضع من نصوصها، أن أوروبـا لا تستطيع إلاّ أن تكون "الركيزة الأوربية لحلف الأطلسي".

أما ما يتعلق بالاقتصاد فقد نصت المادة ٣٠١ من القانون الأمريكي على حـق أمريكا بحماية منتجاتـها الوطنية، بينما تفرض اتفاقية الجات (المسماة فيما بعـد بالمنظمة العالمية للتجارة)، التبادل الحر على كل البلدان الأخرى، والذي يفسـح المجال لكل المنتجات الأمريكية.

وجاء **قانون هلمز – بورتون** ١٩٩٦، **وقانون أماتو – كنيدي** الذين أقرهمـا نفس الكونغرس الأمريكي، طمعاً في منع كل المجتمع الدولي من المتاجرة مع بلـدان يحددها الكونغرس وحده. ووحدها أصبحت الولايات المتحدة تشرع للعالم كله.

ولابد من بروز مقاومة جديدة، لا للتخلي عن **مايسـتريخ** فقـط، ولكـن للانسحاب أيضاً من صندوق النقد الدولي، والبنك الـدولي، وكـل المنظمـات الأخرى التي تستخدم أداة في يد الإرادة الأمريكية في الهيمنة على العالم.

وانطلاقاً من ذلك كله، لابد من استعادة حريتنا لبناء علاقات جديدة كل الجدّة مع العالم الثالث، بالإضافة إلى هدف محدد وهو تشجيع الشعوب الأوربية الأخرى لسلوك نفس الطريق.

ويتطلب بناء العلاقة الجديدة:

١– إلغاء تام للقروض، إذ ليست واقعية ولا مبررة.

٢- إلغاء كل المساعدات المالية لحكومات العالم الثالث.

مثلاً:

يبلغ حجم ميزانية التنمية /٤٠/ مليار فرنك فرنسي، وهو حجم ميزانية المساعدة العامة في فرنسا، الهادفة رسمياً إلى دعم البلدان الأكثر فقراً في العالم. والواقع أن ٩٥% من هذا المبلغ الضخم لا يشكل مساعدة فعلية لهذه البلدان، ولا يحقق تنمية فيها، ولكنه في أحسن أحواله، يفرغ جيوب المكلفين الفرنسيين بالضريبة، ليملأ جيوب بضعة من المستفيدين الحكوميين (في الشمال وفي الجنوب). والأسوأ من ذلك أن توجه هذه المساعدات للقتل.

ونورد هنا أمثلة حديثة عن الكيفية التي تستخدم بها المساعدات:

- **رواندا**: جرى تمويل حكومة القتلة هناك إلى الحد الذي مكنها من الاستمرار، ثم تم تمويل عملية **توركواز**، لتسهيل وصول القتلة إلى زائير في محاولة لتحضير عمليتهم الثأرية.

- **الجزائر**: قُدِّم لحكومة الجزائر التي نصبت نفسها وألغت الانتخابات بشكل غير شرعي، ستة مليارات فرنك فرنسي. وقد بيع للحكومة نفسها طائرات هيلوكوبتر (وهي السلاح الأمضى ضد حرب الغوار).

٣- لهذا يجب أن لا تقدم القروض الحكومية والخاصة، إلى الحكومات، وإنما مباشرة للمنظمات القاعدية (مثل الاتحادات التعاونية، النقابات، والمجموعات الإنتاجية، وأحياناً تأسيسها)، ولمشاريع محددة وذات نفع عام، مع تفضيل الأقاليم الزراعية لتحقيق الاكتفاء الغذائي الذاتي (أجهزة زراعية، حفر آبار، بناء طرق ومستشفيات ومدارس...الخ).

٤- قبول سداد القروض بالعملة المحلية لتشجيع إعادة الاستثمار في البلد نفسه، بدلاً من عودة رؤوس الأموال المستثمرة إلى الوطن.

٥- العمل على تحقيق مقايسة شريفة بين أسعار المنتجات المباعة من دول الجنوب، مع أسعار المنتجات المباعة إليها من دول الشمال.

٦- الوقوف في وجه عملقة المشاريع، التي تسعى إليها الشركات الكبرى. ثم احترام التاريخ، وثقافات كل الشعوب، والاستخدام الأوسع للتقنيات الوطنية التي غالباً ما تكون فاعلة لملاءمتها للاحتياجات المحلية. سيكون التطور بهذه الشكل داخلياً بدل أن يكون تصفحاً من الخارج لا صلة له بالبلد أو حاجاته الحقيقية، أو أن يكون على النمط الغربي أتت به الشركات الأجنبية الكبرى خدمةً لمصالحها.

وقد يؤدي هذا التكيف الضروري في الصناعة استجابة للحاجات الحقيقية للجنوب، إلى تحقيق تكييف لعقلياتنا نحن أيضاً، استجابة لمصالحنا الحقيقية، لا للسلاح أو ألهيات قتل الفراغ بلا جدوى.

٧- أما ما يتعلق بمصادر الطاقة فيجب أن نعطي الأفضلية دوما (إلا في حالة الاستحالة المطلقة) لمصادر الطاقة المتجددة كالطاقة الشمسية وغيرها.

أنستطيع أن نتحدث عن السوق العالمية، وأمامنا ثلاثة مليارات من أصل خمسة مليارات، لا يستطيعون تأمين قوتهم اليومي.

أيمكننا أن نتحدث عن سوق عالمية تلبي فقط احتياجات الغرب، وتنسجم مع ثقافته، الغرب الذي لا يفعل سوى أن يصدر فائض منتجاته إلى العالم الثالث؟

هل علينا أن نقبل بحتمية استمرار عدم التوازن في علاقات العالم باعتباره واقعا لا يمكن تجاوزه، واقعا يؤدي إلى مظاهر العنف، والتعصب القومي والأصولية، دون أن نتساءل عن المسببات الحقيقية لهذه الفوضى العالمية؟.

١. علينا أن نعمل على خلق عولمة حقيقية بدلاً من العولمة الاقتصادية الكاذبة التي ليست إلاّ إرثاً خلفته الهيمنة الاستعمارية بقيادة الولايات المتحدة.

٢. وضد أوهام التنمية العمياء التي تنبثق من اقتصاد السوق الذي يتحكم بكل العلاقات الاجتماعية، لابد من العمل بالتصحيح الضروري الذي يسمح لنا بالوصول إلى الاشتراكية كما عرفّها ماركس: إعطاء كل الأطفال، كل النساء، كل الرجال الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية لتحقيق تنمية حقيقية، وبشكل كامل، لكل الغنى الذي يحملونه بين حناياهم.

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الخاتمة

الخاتـمة

تـهدف هذه الأفكار المبعثرة إلى التحضير للقـرن الحادي والعشـرين كي يمكن العيش فيه حتى النهاية ، إذ لو تابعنا العيش حسب الانحرافـات القائمة، نكون قد بدأنا تدمير البشر: مليارات من الناس ستموت جوعـاً في جنوب الكوكب ، حيث يكلفنا نمط التنمية الغربية كل يومين ما يعـادل ضحايا **هيروشيما** .

وفي بلادنا – أوروبا – سنشاهد أحياء بلا هدف ، وحياة بلا أفـق، إذا لم نضع حداً لهذا الانفصام الذي يشهده العـالم بسـبب تزايـد البطالـة والتسريح، والعنف والمخدرات.

ويعتبر هذا الكتاب دعوة لمقاومة اللامعنى، ولبناء عالم من الأمم المتحدة، مبنياً على مبادئ أخرى، غير المبادئ التي قادت الغرب بكامله إلى الانحطاط، وقادت العالم إلى المعاناة.

في النصف الثاني من هذا القرن ماتت الآمال، بعد حربـين قتلتـا ٨٠ مليون إنسان، وبعد فشل ثورة، أعطت، فوق خرائـب الحـرب الأولى، بوادر أمل للبشر، وقدمت خلال الحرب الثانيـة أكبر نصيب من البطولـة والتضحية بغية قهر الوحش النازي. ولكنها خانت الاشتراكية عن طريـق تقليد نمط التنمية في الغرب، ومركزية بيروقراطية جنونية.

والوهم المئوي "بحلم أمريكي"، قد تحول إلى "كابوس أمريكي" بسبب رغبة القادة الأمريكيين في الهيمنة على العالم، والإفراط البربري في إنتـاج

السلاح وامتلاكه، وخبث مبدأ الليبرالية الاقتصادية المفروضة على كل الشعوب.

وكذلك بإسباغ صفة الشيطانية على ما أسموه "امبراطوريات الشر" المتابعة، كي يبرروا تحت زعم الصراع ضد الإرهاب، إرهابهم الخاص، وجرائمهم ضد الإنسانية: بحق الهنود، والأفارقة، وفيتنام، وكذلك الحصار المفروض على كوبا وليبيا وايران والعراق، العراق الذي تحمل وفاة ٢٥٠ ألف طفل، حسب أرقام الصليب الأحمر الدولي .

وفي الولايات المتحدة، يموت طفل من كل ثمانية، جوعاً لأنه لا يجد ما يأكله. هؤلاء المدافعون عن حقوق الإنسان، بالإضافة إلى الجرائم ضد البشرية في الخارج، يحتفظون لأنفسهم بأكثر الأرقام العالمية مدعاة للحزن في استهلاك المخدرات، وانتحار المراهقين، والجريمة، والفساد. أما السينما لديهم فتتستر على كل ذلك، فتقدم لنا في ظل ديكور حالم، ضراوة أسماك القرش في مسلسلات دالاس وواقع العنف لدى الديناصورات، والترمنيتور الماحق.

أما وسائل الإعلام، والتلفزيون والإعلام السريع، فهي شعاع الموت الذي يدمر على مستوى العالم، الفكر النقدي، وثقافة الإيمان، والأمل والحب لدى خمسة مليارات إنسان.

ويقصد هذا الكتاب إلى التدليل على أن نهضة الإنسانية أو على الأقل استمرارها يتطلب بناء المستقبل على أسس أخرى.

يجب أن لا يتضمن كشف الحساب كشف حساب هذا القرن، فشـــلاً **لماركس** الذي خانوا اشتراكيته، إنما فشل **آدم سميث** الذي تــهددنا ليبراليّته التي دفعت إلى أقصى مدى لها، تــهددنا بانتحار كوني.

كيف نستطيع فتح أفق جديد، مستقبل جديد بوجه إنساني من خـــلال ساحات الدمار الذي أنتجته حيوانية ما قبل التاريخ مع نـــهاية هذا القرن؟

لابد لنا من البحث عن الخطأ في توجه عقارب التاريخ.

كان الإنفصال الأول للغرب، مع **سقراط** (الذي ابتدأ معه الانحطاط كما يقول **نيتشه**)، وتلميذيه **أفلاطون وأرسطو**. الذين أفسدوا ، خلال ألفـــين وخمسمائة عام التاريخ الثقـــافي للغرب من خلال "فلسفة الكائن" أســـاس كل الهيمنات.

وقد جربنا أن نستعيد مسيرة فلسفة "الفعل"، وهي مسيرة باقي الإنسانية برمتها منذ اكتشاف الأدوات الأولى، ومنذ حفر القبر الأول، ومنذ الحلـــم الأول بحياة خلاقة متحدة.

وكان الانفصال الثاني للغرب، أيام الصليبين، وفتوحاتـــــهم المتكـــررة ومحاكم التفتيش ضد كل حكمة الشرق.

وكان الانفصال الثالث، بدءاً مما سمي بعصر النهضة، حيث اســـتخدموا الاكتشافات العلمية والتقنية التي حققها الشرق (مثل البوصلـــــة، والدفـــة المحورية في السفن، والبارود والطباعة)، وجعلوا منها أدوات لغزو الشـــعوب والنفوس. وابتدأ عام ١٤٩٢، بعد الإستبعاد الأخـــير لثقافـــات الشـــرق،

بالاستيلاء على **غرناطة**، وغزو وتدمير ثقافات أمريكا الهندية، تعطشاً للذهب بدءاً من **كريستوف كولومبوس**.

هذه هي مسيرة ٢٥٠٠ سنة من فلسفة الهيمنة التي تدعونا لأن نطرح مسألة فتح آفاق جديدة للإنسان، ونقترح بديلاً للوحدة الاستعمارية للعالم: وحدة متناسقة، داعين حكمة العالم الثالث وثقافته لوضع الإنسانية من جديد في الدرب الواسع للإخصاب المتبادل بين كل الثقافات، وللانتهاء من الأهداف القاتلة للمركزية الأثنية الأوروبية، ومن الهيمنة.

واستدعى ذلك أن نجد معايير أخرى للتقدم غير القوة التقنية، وقوة الثروة، والناتج الوطني الإجمالي، لنتمكن أن نحدد من خلال هذه التعابير، لا من خلال النمو الإقتصادي، وإنما من خلال ازدهار الإنسان.

كما استدعى الأمر، في المستوى اللاهوتي، أن نعيد للإنسان بعده الأساسي: التعالي، منظوراً إليه، لا كالظاهر من إله ملك، يدير من الخارج ومن الأعلى مصير البشر والإمبراطوريات، إنما كانبثاق جديد جذرياً، بفعل خالق الإنسان، مع الوعي (ونستخدم هنا لغة آباء الكنيسة الشرقيين)، بأن الله خلق الإنسان، لكي يصبح الإنسان إلهاً. ويجب أن نتوقف عن الأحكام المسبقة التي تقول بأن التاريخ المقدس، هو تاريخ قبيلة واحدة، بينما يكشف هذا التاريخ عن جذوره لدى كل عائلات الأرض، وفي كل الثقافات والحضارات من أمريكا الهندية إلى أفريقيا إلى آسيا.

وعلى المستوى الأخلاقي افترضنا ضرورة، إجراء قلب عميق، في دراستنا للعمل الإنساني الخلاق. لم نقصد أن نقلل من جمال النمط الغربي لإنجازات اليونان أو عصر النهضة في القرن السادس عشر، وإنما أردنا أن

تخرج من متاحف الأجناس، أقنعة البولونيز وأفريقيا، والأعمال النحتية والفن المعماري لـهنود أمريكا، وأن نتعرف من جديد على الأبعاد النبوية للوحات الصيد في عهد **سونغ**، والنداءات الداخلية **لبوذا أو بوديساتغاس** في جنوب آسيا.

هكذا فقط تستطيع الفنون أن تخرج من " أخاديد المحاكاة "التي وضعها فيها **أرسطو**، والتي لم تقيّم من خلال معايير المنظور والتشريح منذ عصر النهضة (ولا الحذلقة التي تعاقبت لدى الأساتذة خلال ثلاثة قرون). وكذلك الخروج من الأخدود الآخر وهو الرفض لمجرد الرفض والتمرد اللذين قادا إلى انحطاط فن وصفوه "بالمعاصر"، وهو فن ظنوا أنه يكون حديثا بقدر ما يكون جاهلاً بالماضي. وقد وصل بهم الأمر أن يطلقوا اسم لوحة أو منحوتة على ما يشبه أرضاً بور تلقى فيها القمامة، وأن يستبدلوا تاريخ الموسيقى بالضجيج، والرقص بحركات هستيرية فارغة من كل دلالة إنسانية.

قال **جوان جري**، وهو أحد الرسامين الأكثر تجديدا في عصرنا، ورائد من رواد المدرسة التكعيبية: "تعتمد عظمة الفنان على قوة الماضي الذي يحمله في داخله: ليس بغرض محاكاة القدماء، وحفظ تقاليدهم، بل كي تستمر الشعلة النبوية التي حملها العظماء منهم لإنارة الإمكانيات المتجددة دائما في إنسانية الإنسان".

ويستدعي ذلك أيضا، في المستويين الاقتصادي والسياسي، تحطيم أصنام زعم أنها " علوم إنسانية "، التي نسخ أسلوبها عن أسلوب علوم الطبيعة، فنتج عن ذلك مفهوم مهين للإنسان: "الإنسان كائن اقتصادي". فهو بذلك لن يكون إلا منتجا أو مستهلكا، تحركه مصالحه

الخاصة. إنــها مسألة قاتلة، شأنــها شأن "الإقتصاديين" الذين يحاولون من خلال حاشية أو تعليق رياضي خداع وعويص، إعطاء المظـــهر العلمـــي، لأيديولوجيا مهمتها استمرار النظام القائم.

ويعني قلب المنظور، إعادة البحث، كي نتعلم من كل المفاهيم الأخـــرى للإنسان، التي ولدت في أحضان الثقافات الأخرى، الوسائل كيف نخلـــق شروطا تقنية واقتصادية وسياسية وروحية، تلائم الجميع، وتســـمح لكـــل كائن إنساني (رجل أو امرأة) أن يصبح أكثر إنســـانية، أي "شـــاعرا "، بأعمق معاني الكلمة، أي خلاقا لإمكانيات جديدة للمستقبل.

هذا هو الهدف الذي سعينا لتثبيته، وهـــو يتجـــاوز بــــهذا الشـــكل إمكانياتنا، لأنـــه ليس حتى الآن إلا اقتراحات متناثـــرة، ليس لهـــا مـــن طموح إلا المساهمة في نشر نظرتنا إلى العالم، إلى أن تتمكن نفوس أرحـــب مدى، وتعمل من خلال تفاعل البحث والإيمان، على بناء عالم إنساني.

في نـــهاية كشف الحساب هذا، وفي نـــهاية هذه الدراسة التي تجمع بين العرض والاقتراحات المستقبلية، وصية لحياة، حاولت أن تتماثل مع حيـــاة القرن الآفل، من خلال "فلسفة الفعل" التي قادني البحث فيـــها لأن أشـــق طريقي عبر " الفعل" المسيحي عند **موريس بلوندل**، والجهد الجبار **لماركس**، والرؤية الديناميكية للعالم في **القرآن الكريم**، وما يسيطر على من الإحساس باقتراب حياتي الشخصية من النهاية هو أقل بكثير من شعوري بالسعادة التي تغمرني لأني أستشف الملامح الأولى لحياة جديدة للقرن الذي سيولد والـذي ربما لن أراه.

٣٠-آب –١٩٩٦

روجيه غارودي

ملاحظـة

ليس هذا الكتاب خطاب تأبين ورثاء، ولا صلاة جنائزية بسيطة علـــى حضارة قضت نحبها، حضارة الغرب الذي يوحي اسمه، ببلاد تغرب فيـــها الشمس، بلاد الغسق الآفلة.

وفي الشرق، في البلاد التي تشرق فيها الشمس ، بلاد الفجر الـــتي بـــدأ النهار فيها يبزغ. إنه السابع من أيار ١٩٩٦ في بكين. وسيصف المجلد الثاني من هذه السلسلة vente du large، ورشة العمل التي افتتحت منذ ثـــلاث سنوات، من أجل هذا الأمل بوحدة متناسقة للعالم، انطلاقا من طريق الحرير الجديد الممتد من **شنغهاي إلى نوتردام**، انطلاقا مـــن حضـــارة اســـتوائية نلمسها في الأمازون، ومن "الصحراء" التي كانت قبل عشرة آلاف عـــام غابات ومراع، والتي يمكن أن ترتدي حلة خضراء في عشر سنوات .

لم يخصص سطر واحد في صحفنـــا ومجلاتنـــا، واذاعاتنـــا، ومحطاتنـــا التلفزيونية، لـــهذه الولادة، ولادة "عالم جديد"حقيقي.

وسيكون الكتاب الثاني من مجموعتنا عمل جماعي وضعـــه (صينيـــون وايرانيون واتراك، وهنود وماليزيون وغيرهم) وسيكون عنوانه:

لقد بدأ المستقبل

الهوامش

– قانون هلمز– بورتون:

– يجيز قانون هلمز– بورتون الذي فرض الحصار والمقاطعة على كوبا، يجيز لكل الأمريكيين، والكوبيين المتجنسين، والذي صودرت ممتلكاهم من قبل الحكومة الكوبية، أن يقاضوها أم القضاء، وكذلك يحق لهم مقاضاة أي أو مؤسسة أو شخص كائناً ما كان، يتعامل مع المشاريع المصادرة أو أن يشارك فيها.

– **قانون أمادو–كينيدي:** يحرم القانون الشركات التي تستثمر أكثر من أربعين مليون دولار من كل ضمانة مصرفية في ميداني الاستيراد والتصدير ومن إجازات استيراد بضائع للشركة المعاقبة، ومن كل قروض أو اعتمادات تزيد عن عشرة ملايين دولار، تفتح لدى المؤسسات المصرفية الأمريكية، ومن كل أشكال التوكيل أو الإيداع من باطن لحساب الحكومة الأمريكية، ومن كل احتمالات إجراء عقود مع الحكومة الأمريكية ومن كل استيراد إلى الولايات المتحدة.... الخ.

– أثار تطبيق هذا القانون مؤخراً أزمة بين الولايات المتحدة وفرنسا، وذلك عندما قامت شركة توتال بتوقيع عقد شراكه مع إيران.

– وأكدت وزارة الخارجية الأمريكية أن موقف فرنسا في القضية غير مفهوم، وأعربت عن خيبة أملها لرؤية شركاء الولايات المتحدة يرفضون فساندتها في الجهود التي تبذلها ضد إيران، مشيرة أن ضيج أموال في إيران

إجراء لا يساعد الولايات المتحدة. وأعلنت أو لبرايت وزيـــرة الخارجيـــة الأمريكية عن خيبة أملها إزاء قدرة الولايات المتحدة في إقنـــاع الـــدول الأخرى لصحة وجهة نظرها بشأن (الدول الخارجية عن القانون).

- وكان هذا العقد قـــد اعتـــبر انتصـــارا لإيـــران وأوروبـــا وضربـــة للهيمنة الأمريكية.

الدولار والإنسان

بقلم

أناتول فرانس

في بداية هذا القرن، وبالتحديد عام ١٩٠٨، كشف **أناتول فرانــس** في كتابه "جزيرة البطريق" عن الروح التي تقاس فيها نتائج السياسة الأمريكيـة واصفا إياها أنــها بلا روح. يصور المقطع التالي **البروفيســور أوبنوبيــل** الذي يزور الولايات المتحدة ويحضر جلســة للكونغرس الأمريكي ويقـدم لنا التحليل التالي :

رئيس الجلسة -: انتهت الحرب التي أشعلت لفتح أسواق .زيلاند الثالثـــة، بشكل يرضي الولايات المتحدة. وأقترح عليكم أن نرســل الحســاب إلى مفوض الإدارة المالية.

- هل من معارض ؟

حسن ، فاز الإقتراح.

- وسأل البروفيسور اوبنوبيل مترجمه المرافق له:

هل سمعت جيدا ؟ ماذا! أنتم الشعب الصناعي تشغلون أنفسكم بكل هــذه الحروب.

- أجاب المترجم:

بلا شك. فهذه الحروب، حروب صناعية، والشعوب التي لا تمتلك صناعة ولا تجارة غير ملزمة بخوض الحرب. أما الشعوب التي لديها أعمال. فهي مرغمة على سياسة الغزو، ولهذا ارتفع بالضرورة عدد الحروب التي أشعلناها، مع ازدياد نشاطنا الإنتاجي. عندما تجد صناعة من صناعاتنا أنها لن تستطيع تصريف منتجاتها، فلا بد من إشعال حرب ما كي نفتح سوقاً جديدة. وهذا ما فعلناه هذا العام في حرب الكربون وحرب النحاس، وحرب زيلاندا الثالثة، قتلنا ثلثي السكان لنجبر الثلث الباقي على شراء المظلات والقمصان الداخلية

وفي هذه اللحظة صعد إلى المنصة رجل ضخم كان يجلس على كرسي في وسط المجتمعين وقال:

أطالب بإعلان الحرب على حكومة جمهورية إيميرود ، التي تنازع خنازيرنا بوقاحة، السيطرة على تجارة الجامبون والسجق في كل أسواق العالم.

- فسأل الدكتور أو بنوبيل:

من هو هذا المشرع؟

- فأجاب المترجم:

إنه تاجر خنازير .

- قال رئيس الجلسة :

هل من معارض ؟ ...إذن أطرح هذا الإقتراح على التصويت.

وهكذا جرى التصويت برفع الأيدي على إشهار حرب ضـــد جمهوريـــة ايميرود وفاز الإقتراح بالأغلبية الساحقة.

- قال أوبنوبيل:

ولكن كيف؟ أبـــهذه السرعة واللامبالاة تقرون أشعال الحرب؟

- أجاب المترجم:

أوه! إنـــها حرب لا أهمية لها، إذ لن تكلف أكثر من ٨ مليون دولار.

- والرجال ؟

- الرجال ؟ إنـــهم ضمن ال ٨ مليون دولار .

أناتول فرانس " جزيرة البطريق " ١٩٠٨

❖ أناتول فرانس (١٨٤٤-١٩٢٤) كاتب وروائي فرنسي منح جـائزة نوبل للآداب عام ١٩٢١.

رمز طاحونة الشيطان

سنحاول أن نشرح هذا النظام الذي يختلط فيه التطور الإقتصادي مع تطور الإنسان ، من خلال أمثولة يوحي بها كتاب **ميشان**، بعنوان "ثمن التنمية " أما نحن فندعوه:

" أمثولة طاحونة الشيطان "

أقرت حكومة بلد ما، متطور جداً، حق الإفراد في حمل السلاح، استناداً إلى الحرية الفردية. وهكذا شهدت صناعة السلاح ازدهاراً لا سابقة له. وتبارى المنتجون المتنافسون، بما لديهم من قوة مخيلة، وانتشار، في إغراق السوق الحرة بأنواع مختلفة وبلا حدود، من المسدسات والقنابل المنمنمة. وقد تراوحت الأشكال والأنواع بين الممتاز جداً المعقود إلى سلسلة، وبين النوع المتواضع جداً لصالح الاستخدام اليومي، ومن المروّع كاتم الصوت المكفول في إصابة الهدف إلى السلاح الذي قيل أنه لإثارة الرعب فقط، إذ تستمر أصوات انفجاراته المروعة لإبعاد المعتدي المحتمل دون التصويب في مسار خاص. وحرية الاختيار عند المستهلك مؤكدة بشكل تام.

ورواج السوق من الناحية العملية، لا يحده حد، بسبب العصبية التي تخلقها نزاعات العمل، وازدحام السير في المدينة، والنزاع المستمر على القيم "الأكثر قدسية"، والإثارة الجنسية، والنزاعات المالية. كل ذلك يجعل المرء، حتى الأكثر هدوءاً، أو المرأة حتى الأقل جاذبية واغراءً، لا يخاطران في السير في الشارع، دون أن يحمل أي منهما مسدساً أو مسدسين، وبعض الذخيرة.

ومن جهة أخرى، يساعد مستوى المعيشة المرتفع جداً، والذي تحقق بفضل التوسع في النشاط الاقتصادي، يساعد كل فرد على شراء العديد من الأسلحة.إن زمن القحط والبؤس الإنساني قد ولّى. وولدت صناعات جديدة، برهنت على ديناميكية استثنائية، منها صناعة السترات الواقية من الرصاص، والخوذات، والأحذية ذات المشابك المعدنية، والأقنعة الكاتمة، والمركبات المصفحة، وزجاج العربات المضاد للرصاص، ومصاريع فولاذية للبيوت. ويبرهن ازدهار صناعة الحديد على الوضع الصحي لاقتصاد البلاد، وروح المبادرة لدى الصناعيين، وفضائل المؤسسة الحرة، والفكر الثاقب للحكومات. وفي إطار البهجة التي خلقها هذا الازدهار، غابت كل مظاهر الكآبة.

وفي الحقيقة، تتلقى كل قطاعات النشاط الوطني دعماً منشّطاً. إنه العصر الذهبي لأشكال التأمين المختلفة، والعيادات الخاصة، والمخابر الدوائية التي تستجيب بشكل محموم، وبلا انقطاع للحاجة المتزايدة للمهدئات. أما الاستخدام بدوام كامل فهو مضمون تماماً، فطرق العمل مفتوحة للشباب بلا حدود، وحتى العمال غير المؤهلين، فهم مطمئنون أنهم سيجدون أعمالاً تثيبهم بشرف، ولا تتطلب إلاّ تأهيلاً سريعاً، مثل حمل نقالات الإسعاف لالتقاط الجرحى أو الموتى.

وقد جرت مناقشة الميزانية، على ضوء التوسع الكامل للاقتصاد الوطني، وأبرزت-وهي محقة في ذلك- أن العلم قد استفاد من نتائج السماح بصناعات السلاح، وبالتسلح الشخصي، والمتمثلة بالانتهاك السريع لمصادر الثروة المعدنية. وقد قادت الأبحاث إلى اكتشاف مواد تركيبية أكثر مقاومة لإستخدامها في الدروع، وسيؤدى ذلك إلى تحقيق تقدم مماثل في صناعة

القذائف، وكما قال واحد من أبلغ خطبائنا البرلمانيين في هذا المجـــال: "إن لولب التقدم قد انفتح نحو اللانـــهاية".

أوجدت الجراحة، والطب، والطب النفسي، منافذ مذهلـــة في شـــفاء أمراض غير معهودة. لقد جدد ارتداء الدروع المحكمة، المفـــاهيم حـــول الأيضية، كما قاد حمل الأسلحة إلى اكتشافات تتعلق بـــالقلق والكـــرب، والعدوانية، هذه المواضيع التي تربك مستقبل علم النفس.

أي تجديد تشهده البلاد في ميدان الثقافة، وخاصة في ميـــدان العلـــوم الإنسانية ! لقد انفتح أمام علم الإجتماع الوضعي أفق بلا نـــهاية، كـــي يستطيع تطبيق أساليبه. ويلعب هذا العلم دورا رياديـــا لقيامـــه بأبحـــاث مشتركة مع علوم أخرى حول علم " المسدسات". وعمل رجال الإحصـــاء على بلوغ تقنيات التقديرات الاستقرائية مبلغ الكمـــال، لحســـاب دقيـــق ومتوازن للعام الذي سيصبح فيه حجم ووزن الأسلحة معادلا لحجم الأرض ووزنـــها، وقد استطاع فيها أحد الأسلاف اللامعين أن يحدد في أي عـــام، لن يترك فيه النمو السكاني في كرتنا الأرضية إلا مترا مربعا واحدا لكـــل فرد. ومن جهة أخرى قلب علم السكان الاتجاه، بالتخلص مـــن القـــانون اللوغاريتمي للإبادة، مفسحا المجال لإمكانية التنبؤ باليوم الذي سيقوم فيـــه آخر رجل، بتوجيه طلقة الخلاص الأخيرة إلى جاره الذي يقف أمام ناظره.

وتصبح المستقبلية الوضعية، من هذا المنظور العلمي ملكة العلوم متمتعـــة بنفس المستوى النظري كالفيزياء أو العلوم اللغوية. ويلعب اتحاد "الرنـــد" "اسم شركة كبرى" ومنافسوه الذين امتلكوا خـــبرة كبـــيرة في "نظريـــة الألعاب" الإستراتيجية، دورا مدهشا كمستشارين وأنبياء أمام مديرين كبار

في صناعة الموت، وقد اقترح باحث، وربما كان واحداً من أعظم العبقريات في قرننا هذا معتمدين في هذا التقييم على تنبؤاته على المدى الطويل، طرازاً جديداً في الهندسة المعمارية وهندسة المدن، وللفن بشكل عام، يستجيب لحاجات العصر "المسدساتي"، فالشوارع منحنية للحد من سير القذائف، وانطلاقاً من هذا الطراز الجديد فقد تحققت ثورة في عالم الأشكال، تلبية لهذه الحاجة. واستناداً إلى التماسك الداخلي لهذا النظام، وهي الخاصة التي تتصف بها كل الحضارات العظيمة، عندما تصل ذروتها، فإن البلاد تشهد ازدهار ثقافة جديدة، وكلاسيكية جديدة.

وفي كل مرة تسترجع الحكومة بفخر مشروع الإمكانيات، تبرز نتائج التوسع الذي حققته: معدل تنمية أعلى من كل المعدلات السابقة، مع كل ما يحمله من نتائج: عملة صعبة، فرص استخدام كاملة، ميزان مدفوعات لمصلحة البلد، غزو لا ينقطع لأسواق جديدة لتصدير السلاح، لأن الحجم الداخلي لإنتاجنا من المسدسات، قد أعطى أسعارنا وضعاً تنافسيا للغاية.

وقد تضاعف الإنتاج الوطني الإجمالي، في عشر سنوات، واجتمعت لدينا كل علائم الإقتصاد الصحي والقومي، كما اكتملت كل أحلام اقتصاد التنمية.

ومن العدالة، والحالة هذه، أن نأمل بالهيمنة على العالم، ليس فقط بسبب غنانا وقوتنا بل بسبب حكمتنا أيضاً.

ما وراء حملة كلينتون ضد الإرهاب

في ٥ أب ١٩٩٦ ، وقع الرئيس كلينتون، قانون أماتو-كينيدي معلناً استثناء ايران وليبيا من القانون الدولي. وكان حريصاً أن يقف أمام عدسات التلفزيون، محيطاً نفسه بطريقة تبدو طبيعية بأسر وأقرباء ضحايا لوكربي، في العملية التي جرت ضد طائرة عائدة لشركة البان أمريكان في ٢٠ كانون الأول ١٩٨٨، حيث حملت الحكومة الأمريكية ليبيا مسؤولية العملية، على الرغم من التحقيقات المتوازية التي كذبت هذه الرواية.

كان الإحتفال الرمزي، ذو دلالة كبيرة على السياسة التي تنوي واشنطن وضعها موضع التنفيذ: الإرهاب هو العدو الأكبر. وقد جرى تعبئة الرأي العام حول هذا الموضوع، واعتبرت البلدان المعنية أعداءً للولايات المتحدة. وكبداية، ستكون العقوبات الاقتصادية هي السلاح الذي أشهر في وجه هذه البلدان، وإن أمكن الحصار الاقتصادي.

وتتضمن قرارات واشنطن، والتي اتخذتها منفردة انتهاكاً صريحاً للمبادئ الأساسية لمنظمة التجارة العالمية، وتشكل تنكراً من الولايات المتحدة لالتزاماتها الدولية. وتعتبر المعركة ضد ما يسمى بالإرهاب، أحد المحاور الرئيسية في السياسة الخارجية لرئيس الولايات المتحدة ، وسيكون هذا الموضوع جاهزاً باستمرار، لإثارته كلما احتاجته الدبلوماسية الأمريكية.

أهو اختيار انتخابي، حدث على ضوء التصويت للرئاسة في نوفمبر ١٩٩٦؟!

نعم بالتأكيد. **فقانون هلمز- بورتون** الذي صدر في ١٢ آذار ١٩٩٦، والذي يشدد الحصار على كوبا، استطاع أن يخلق صدى كبيراً بين ٤٠٠ ألف أمريكي من أصل كوبي، سيدلون بأصواتهم في ولاية فلوريدا. ولكي يفوت **روبرت دول**، المرشح الجمهوري للرئاسة الفرصة على **كلينتون**، زاود على مواقف خصمه من الإرهاب. واصفًا "بالهش" مسلك الإدارة الديمقراطية تجاه كوبا وايران.

وتعطي الحكومة الأمريكية اليوم لقهر الإرهاب وأهدافه بغية القضاء عليه، حضوراً عالميا منهجيًا، ولكنه بسيط بشكل مذهل ومتعمد."سيكون الإرهاب أكثر التهديدات خطورة، والموجهة ضد أمتنا في القرن الحادي والعشرين".

هذا ما قاله **كلينتون** عشية الإجتماع الذي عقده في ٣٠ تموز ١٩٩٦ وزراء خارجية الدول السبع، الذين كرسّوا مقولة **كلينتون**. وطُوّر الأمر مرحلياً في تقرير نشرته وزارة الخارجية، عدّدت فيه النشاطات الإرهابية في العالم، وحددت معالم السياسة الأمريكية بهذا الخصوص.

وتبرز من قراءة هذا التقرير ثلاث نقاط:

- لا نرى في الإرهابيين إلا مجرمين، وبالتالي لا يجوز أن يعقد معهم أي اتفاق من أي نوع. وتجب ملاحقتهم، بغية الحصول على إدانات ملموسة أكثر.

- يجب ممارسة ضغط كبير ومستمر على الدول التي تتعامل معهم وتمدهم بالسلاح، والمعونات المالية، وتستخدمهم.

سيكون الضغط باتخاذ اجراءات سياسية دبلوماسية واقتصادية فعالة. وإذا فشلت هذه الإجراءات، اتخاذ اجراءات أخرى.

لم يتضمن هذا التوجه الحاسم، أي مضمون سياسي أو قومي او إقليمي أو حتى سياسي وعسكري، و لم يأخذ بالحسبان أي جواب تطرحه هذه المسألة التي طرحتها **مجلة الايكونوميست** في آذار ١٩٩٦، فقالت: ليس الإرهاب ظاهرة بسيطة ومحسومة، وليس عمل عصبة من الشبان الأشقياء، كما نحب نحن أن ندعوهم. من هو الإرهابي ؟ هل هو حامل القنبلة الإنتحاري؟ أم الثوري المتمرد هل هو جبهة التحرير، أم القوى المسلحة في الدولة ؟

على كل حال، هذا هو المفهوم الذي تريد الولايات المتحدة، أن ترجحه وتعتبره موضوعيا .

وتقدم الولايات المتحدة الإرهاب كوجه جديد لصراع الخير ضد الشر فهي تريد أن تعبئ العالم وتحت أي اسم، حول سياستها وتحليلاتها. وليتهم استوحوا ببساطة من اهتماماتهم الإنتخابية الأهداف الحقيقية، لكانوا قد توقفوا بعد انتهائها عن متابعة هذه النظرة المثالية عن الخير، وليس من دلالة أكبر بهذا الخصوص من قائمة الدول التي حددوها كمذنبة في دعم الإرهاب: إيران وليبيا والسودان.

ومهما كان رأي المرء بأنظمة هذه البلدان، أو نشاطاتها الخارجية وهي أنشطة مختلفة في البلدان الثلاثة، فإن المطلوب وبشكل واضح أي بلد

تناولت التغييرات السياسية فيه، بشكل أو بآخر النفوذ الأمريكـــي: ثـــورة ١٩٦٩ في ليبيا التي طالبت بجلاء القواعد العسكرية الأنجلو- أمريكية عـــن أراضيها، وقلب نظام الرئيس النميري في السودان عام ١٩٧٩، الذي كان مرتبطا بالسياسة الأمريكية في المنطقة، وسقوط نظام الشاه الـــذي كـــانت تعامله الولايات المتحدة وكأنه محمية.

وهناك أسماء حاضرة، وإن كانت غائبة من القائمة المذكورة: العـــراق، الذي كان اسمه موجودا على القائمة، ولكنه سحب منها، لأن صدام حسين قام بعملية تقارب مع الولايات المتحدة زمن الحـــرب العراقيـــة الإيرانيـــة، فقررت الولايات المتحدة مساندته، وأعـــادت علاقاتـــها الاقتصاديـــة والدبلوماسية مع بغداد.

وكذلك سورية، التي كانت دائما موجودة على قائمة الولايات المتحدة، لاتـــهامها بدعم الإرهاب، على الرغم من عدم اتـــهامها في الســـنوات الأخيرة، باعتبارها من الشركاء الرئيسين في مفاوضات السلام حول الشرق الأوسط. وتكفي هذه الأمثلة، لتكشف أن الحملة ضد الإرهاب تدخل وقبل كل شئ في إطار السياسة الخارجية للولايات المتحدة خدمة لمخططاتـــها.

وأعطى البيت الأبيض في الشهور الأخيرة، بعدا جديدا لهذه الحملة. أولا عن طريق مؤتمر شرم الشيخ في ١٣ آذار ١٩٩٦ عقب عمليـــتي القـــدس وأشكلون، عشية الأزمة اللبنانية الإسرائيلية، ثم في اجتماع قمـــة رؤســـاء ورؤساء وزارات الدول السبع الأغنى في العالم في ليون في حزيران.

أما مؤتمر شرم الشيخ فقد عقد ارتجالا وعلى عجل لدعم فرصة شـــيمون بيريز رئيس الوزراء في الانتخابات التي كانت ستجرى في اســـرائيل بعـــد

بضعة أسابيع، وقد تزاحمت الحكومات المشاركة في المؤتمر، على توقيع بيانات ضد الإرهاب الذي تخضع له هذه الحكومات. ولكن الرئيس **كلينتون** أراد أن يفيد من هذه الفرصة، فطلب الإشارة إلى ايران بالإسم كمسؤولة عن الإرهاب في المنطقة طبقا لتأكيدات ترددها اسرائيل على الدوام. ونستطيع في هذه المناسبة التأكيد أن الدبلوماسية الأمريكية، وتحت لواء مقاومة الإرهاب تسعى أن تعيد- ولمصلحتها - بناء حلف شبيه بالحلف الذي خاض حرب الخليج، ولكنه هذه المرة ضد ايران التي تعتبرها الولايات المتحدة الآن عدوها المميز، كما كان العراق قبل ست سنوات.

ويحمل سيناريو **ليون** دلالة أعمق. لقد أراد **كلينتون**، كما كان الحال في شرم الشيخ ، أن يجعل من مسألة الإرهاب الموضوع الهام في قمة الدول السبع في ٢٨ حزيران ١٩٩٦. ومن جديد عارضت الاليزيه ذلك، تجنبا لتقزيم المواضيع الأخرى المطروحة أو تنحيتها جانبا. ولكن واشنطن حملت الأمر هذه المرة إلى باريس نفسها. وعند اختتام جلسة العشاء التي ضمت الرؤساء ورؤساء حكومات الدول السبع، تبنى المجتمعون "وبالإجماع" بيانا حول الإرهاب. وقد يكون هذا الأمر طبيعيا، لولا أن هذه الوثيقة التي تدين الإرهاب كتحد رئيسي "لمجموع مجتمعاتنا ودولنا "، أشارت بشكل خاص إلى محاولة حزيران ١٩٩٦ ضد القاعدة الأمريكية في خبر في السعودية، والتي وصفت بأنها عمل برري لا مبرر له، وأعلنت الدول السبع الموقعة على هذه الوثيقة تضامنها الكامل مع الولايات المتحدة والعربية السعودية. وبذلك تكون الدول السبع قد وافقت ضمنيا على بقاء التشكيلات العسكرية الأمريكية في الشرق الأدنى، وبعبارة أكثر دقة في الخليج، وهو أمر

تقاومه بشدة كل القوى الاجتماعية والسياسية التي رفضت هذا القرار لأنه يتعارض مع استقلال بلدانهم.

لقد كشف هذا الحدث أيضا– كما في شرم الشيخ– عن المخططات الاستراتيجية للحملة ضد الإرهاب، التي تقودها الولايات المتحدة ، والتي تسعى دائما للحصول على تأييد شركائها لها. ومهما كان الأمر، فقد أوحى غياب الإدانة الكاملة الواضحة وبالاسم، إلى وجود تحفظات على ضوء العداء الذي تثيره الولايات المتحدة في البلدان التي تعتبرها مذنبة بجريمة الإرهاب. وقد رفضت الحكومات الأوربية، وكذلك كندا بعد ذلك، أن تستجيب لقانون **أمادو– كينيدي**، وأن تجبر المؤسسات الخضوع لأحكام **قانون هلمز – بورتون** المتعلق بكوبا، ولكن علينا أن لا نعطي هذا الرفض قيمة أكبر من حقيقته، فأوروبا لم تتخذ أي إجراء معاكس عملي. وكان الاتجاه تخفيف الخلافات الأمريكية – الأوروبية، وتجنب كل ما يمكن أن يظهر وكأنه سلسلة من أعمال الثأر المالي والتجاري.

بعد بضعة ساعات من توقيع **كلينتون** على قانون **أمادو– كينيدي**، طرح الناطق الرسمي في الخارجية الأمريكية **نيكولاس بومز** مسألة المصالح الفرنسية في ايران. أوضح الناطق الرسمي **أن شركة توتال**، ستأخذ بالضرورة مكان **للشركة كونوكو الأمريكية**، وحصلت على عقد كان سيكون مجزيا جدا للشركة الأمريكية. نحن نريد أن نعاقب المؤسسات التي سيكون لديها مثل هذه التوجه في المستقبل.

ونشك بمثل هذا الارهاب، أن تمد الشركات الأوروبية في المستقبل مشاريعها الإستثمارية إلى ايران وليبيًا اللتين تزودان الاتحاد الأوروبي

بـــ٢٠% من **الهيدروكاريور**، حتى لو طالبت أن لا يكون للقانون المذكـور وتعليمات الحكومات أثر رجعي. وسيكون أقل فاعلية أن تستجيب لمثل هذا القانون دول كالصين، أو دول الشرق الأقصى.

وترسم الحملة الإرهابية ضد "الإرهاب"، غالباً، عدواً رئيسياً: الحركات الإسلامية المتطرفة والرافضة والثورية في آن واحد والتي ترى في ايران المنبـع والمثال. ووضع المسألة بـهذا الشكل بما يحمله من عموميه، لا يتصل مـع ذلك بتباين الأعمال الإرهابية نفسها. وليس من شئ إيراني في اعتـداء ١٩ نيسان ١٩٩٥ في أوكلاهوما سيتي والذي نفذته مجموعة يـمينية متطرفـة، ولا في اعتداء ٩ تشرين الأول ١٩٩٥ على قطار ميامي- لـوس أنجلـوس الذي أعلنت مسؤوليتها عنه مجموعة تحمل اسم " **أبنـاء الجوسـتابو**" ولا اعتداء ٣ نيسان ١٩٩٦ ، الذي نفذه أستاذ رياضيـات يدعـى **تيـودور كازانسكي**، الذي أختبأ خلف اسم " أونا بومبر" والذي لجـأ إلى عمليـة الطرود الملفوفة ، ولا حتى قضية "الرجال الأحرار" الذين قاوموا في ربيـع ١٩٩٦ الشرطة واحداً وثمانين يوماً في مزرعتهم في مونتانا.

ومع كل هذه الوقائع لابد، من وجهة نظر أمريكا- من وجود حركـة إسلامية ما تكون هي الملهم الرئيسي والمنفذ للإرهاب.

ولا تشكل المعارضة الأمريكية للقوى السياسية والدول الـتي تتدعـي لنفسها لتفتش مفهوماً أصولياً إسلاميا موقفاً ثابتاً ، بأي شكل من الأشكال أو تقليدياً ، والعكس هو الصحيح.

فقد وضعت الولايات المتحدة، تاريخياً، قدمها في الشـرق الأدنى عـبر المملكة العربية السعودية، حيث رجحت كفة مصالحها البترولية بين الحربين

العالميتين. ومنذ ذلك الحين لم تتوقف الولايات المتحدة أبدا - عن اعتبار السعودية شريكها المفضل على الرغم من أنها تعتبر الدولة الأكثر أصولية في العالم. كما أنها حمت بكل عناية دكتاتور السودان السابق جعفر النميري، وهو أول من أراد في القارة الأفريقية فرض "الشريعة" على كل قوانين البلاد. كما اختارت شريكا مهما لها في جنوب غرب آسيا، نظام ضياء الحق، الذي فعل نفس الشئ. وعلينا أن لا ننسى أنها هي التي أوحت، ونظمت، وزودت بالسلاح المنظمات الأكثر أصولية في العالم التي عارضت النظام الأفغاني المدعوم من الإتحاد السوفيتي.

وسنكون مخطئين جداً إذا لم نعط تأثير أعمال التواطؤ هذه حقها من الأهمية، في تزايد الأعمال الإرهابية في السنوات الأخيرة، وفي الدرجة الأولى نتائج الحرب الأفغانية. فقد دخل أفغانستان خمسة عشر ألف رجل من اثني عشر بلداً، قاتلوا إلى جانب المنظمات الإسلامية الأفغانية. وقد عاشوا في نفس المخيمات، وتطبعوا بنفس العقيدة، وأسسوا في نهاية الأمر منظمات عديدة للعمل في ميادين أخرى خارج أفغانستان — محتفظين فيما بينهم بعلاقات قوية أو ضعيفة.

وكانت مصر الساحة الأولى لإحدى هذه المنظمات، التي اغتالت الرئيس **أنور السادات**، ثم رفعت المحجوب رئيس الجمعية الوطنية في أيلول ١٩٩٠، ثم الكاتب فرج فوده في ٨ حزيران ١٩٩٢. ثم انسحب رجال المنظمة بعد ذلك إلى السودان، ومنها كانوا يجتازون الحدود في فترات مختلفة، ويعتقد أن أحد قادة هذه المنظمة، يدعى محمد شوقي الأسلامبولي، **شقيق خالد الأسلامبولي** الذي اغتال **أنور السادات**.

وسنجد في الجزائر أيضا ما يشير إلى أفغانستان، فقد كان قادة المنظمة الإسلامية المسلحة، وهي المنظمة الإسلامية السرية الأولى، مقاتلين قدامى في افغانستان مثل طيب الأفغاني الذي هاجم الموقع الحدودي في غويما في تشرين الثاني ١٩٩١، ومثل مراد الأفغاني الذي قاد الهجوم على مركز البحرية في الجزائر، **وقمر الدين الخرمان والحاج بولوه**، اللذان جعلا من فرنسا قاعدة لهما.

ويعتبر **أبو المعاطي**، وهو احد المقاومين الأفغان، المسؤول الرئيسي عن المجاهدين في البوسنة. كان مركز قيادته في **زينيكا**. وكانت قواته قد اندمجت ولمدة طويلة في الكتيبة الثالثة للميليشيا المسلمة في البوسنة ، وقد تلقت هذه الميليشيات مساعدات مادية من بلدان إسلامية كثيرة ، وبشكل خاص من العربية السعودية، التي قدم ملكها شخصيا مبلغ ٤٠ مليون دولار إلى الرئيس البوسني **عزت بيجوفتش** عند زيارته الرياض– إضافة إلى٤٣ مليون دولار أتت من إمارات الخليج. كما وصل البوسنة ما يقرب من الفين وخمسمائة رجل من افغانستان عبر ألبانيا – في أشد أوقات المواجهة بين المسلمين والكروات.

وقد أثار وجود المجموعات الإسلامية في البوسنة، كثيرا من الصعوبات لأن رحيلها كان أحد التدابير الواجب اتخاذها طبقا **لإتفاقية دايتون** ولن تبقى هذه المجموعات، على الأقل في البوسنة، حيث يحتفظون باحتياطي جيد من المال.

وانطلاقا من هذه الأحداث، التي تدلنا على الطبيعة المشكوك فيها والمبهمة للسياسة الأمريكية فيما يتعلق بظاهرة الإرهاب، نستنتج أن هناك

اعتبارات سياسية واستراتيجية أصبحت معروفة جيداً، هـي الـتي توجـه عدوانية الولايات المتحدة ضد الحركات الإسلامية: الرغبة في قهر، أو علـى الأقل إضعاف النظام الإيراني ، ومجابـهة حركة حماس الفلسطينية، وحزب الله اللبناني، اللذين يخوضان معركتين متوازيتين ضد اسرائيل.

مقاطع من مقال بقلم بول ماري دولاغورس

في الموند ديبلوماستيك – شباط ١٩٩٧

تعقيب:

نشر **دوم هيلدركامارا** أسقف أوليندا وريسف في البرازيل كتابا بعنـوان "لولب العنف" باسم القارة التي كانت اكثر من عانى– وقبل كل الآخريـن – من الاضطهاد الاستعمارى.

وقد أوضح في هذا الكتاب وبطريقة قاطعة، جوانب هذه المشكلة مميـزاً بين ثلاثة أشكال للعنف:

١. العنف المؤسساتي: وهو عنف الظلم الذي يفـرض على الجماهـير من خلال شروط عيش غير إنسانية.

٢. العنف الثوري: الذي يتوجه ضد العنف السابق.

٣. العنف القمعي: الذي يقوم بسحق العنف الثوري لمصلحة العنـف المؤسساتي.

لكن الخداع، لا يسمى عنفاً، إلا العنف الثوري.

لقد عرفت الشعوب المستعمرة لأكثر من خمسة قرون، وأوروبا التي عانت من السيطرة الهتلرية ، التضليل الذي يخلط بين "الإرهاب"، و"المقاومة"، مقاومة الاضطهاد وجرائم النهب. ويستخدم القادة الأمريكيون والمتآمرون معهم نفس اللغة، بغية فرض سيطرتهم على العالم.

لاهوت السيطرة الأمريكية

أعلن الرئيس تافت عام ١٩١٢ :

"إن من واجبي أن أحمي شعبنا، وممتلكاته في المكسيك إلى أن تفهم الحكومة المكسيكية أن هناك رباً في اسرائيل، ومن الواجب إطاعته".

ويظهر هذا التعبير، وغالباً بصيغة "اسرائيل الرب الجديدة"، كثيراً في التاريخ الأمريكي منذ **ماي فلاور**، وتأسيس مستعمرة بلا يموث عام ١٦٢٠.

يالها من قصة جميلة ومؤثرة: شعب منفيٌّ، شعب صغير، يفر إلى هيمنة تحميه، باحثاً عن بداية جديدة.

وعقد حلف فوق جبل سيناء، فقد أعطى يهوه اليهود المنفيين الوعد الخاص بأن يكونوا الأمة الأكثر تفضيلاً. وأصبح اليهود "شعب الله المختار"، "مع أرض ميعاد"، وعُهد إليهم على هذه الشاكلة بدور هام جداً في قيادة باقي الشعوب.

والآباء المؤسسون للولايات المتحدة، البيوريتانيون، هم أيضاً "شعب مختار" منذ قرون، لا يقرأ الاّ التوارة، ويعتبر نفسه شعباً مختاراً، إن لم يكن عن طريق يهوه، فعلى الأقل عن طريق الرب المسيحي.

لماذا لا تصبح هذه الأرض، إذن، أرض الميعاد، ولماذا لا يصبح شعبها النور والهادي والقائد للشعوب الأخرى، ما دام شعباً مختاراً من الله ؟

ولكن أرض الميعاد ليست صحراء.

والفكرة الأساسية، هي أن الرب يساعد الشعب المختار، وأن نجاح هذا الشعب، لا يشير فقط إلى استقامته وصوابيته في نظر الرب، ولكنه أيضا يدل أن الوسائل التي استخدمت لتحقيق الظفر هي أيضا مبررة ومسوغة.

وكما زود العهد القديم ، الأمريكيين الأوائل، بوهم ملائم لعلاقتهم مع السكان الأصليين للبلاد، **قام البيوريتانيون** بدورهم بتزويد الإسرائيلين بوهم ملائم لعلاقتهم مع الفلسطينيين والنتيجة المسلم بها، إنشاء جبهة مشتركة ضد الإسلام.

اعتقاد اليهود بأنهم شعب مختار، يتماشى تماما مع اعتقاد الولايات المتحدة بأنها الأمة الأكثر قربا من الله، من أي أمة أخرى، معبرة عن هذا الاعتقاد في الشعار المطبوع على الدولار " نحن نثق بالله ".

و"البلاد الأكثر قربا من الله" هي أيضا ممثل الله على الأرض، الذي يحمل معه ثلاثة من صفات الله: العليم بكل شيء، القدرة الكلية، والإحسان. وذلك يعني واقعيا المراقبة الألكترونية في العالم كله، لكل أولئك الذين يشك بأنهم حملة الشر، ويعود للولايات المتحدة وحدها تقرير من الذي يدخل في طبقة الأشرار هذه. ولا حاجة لأن يكون هناك محكمة استئناف طالما أن الولايات المتحدة تحتكر إصدار الأحكام. وهكذا فهي تمارس سلطة ثقافية، وسلطة اقتصادية، وسلطة عسكرية تحت إشراف البنتاغون والمخابرات المركزية.

وتستحق امبراطورية الشر، أن تمطر بالقنابل، حتى تعود إلى العصر الحجري ...وهذا واجب.

وأية ديانة يمكن أن تكون أسمى من اليهودية المسيحية عقيدة يمكن أن تكون أسمى من الليبرالية المحافظة بصيغتها الرأسمالية؟

ولا يجوز لأية مؤسسة دولية أن تكون فوق الولايات المتحدة. وينطبق هذا الأمر على الأمم المتحدة، على الأقل لأن هذه المنظمة هي وسيلة الولايات المتحدة لممارسة نفوذها المسيطر على العالم كله. وفيما يتعلق بتراتبية الأمم، تقع الولايات المتحدة في القمة، يحيط بها الذين يمثلون مركز العالم: الحلفاء الذين يتصفون على الأقل باثنتين من الخصائص الثلاثة التالية:

- اقتصاد حرية السوق.
- الإيمان بالرب اليهودي والمسيحي.
- الإنتخابات الحرة.

وفي الطرف الثاني من هذا العالم ، المقسوم بين الخير والشر ، تتكون امبراطورية الشر من البلدان التي لا تؤمن باقتصاد حرية السوق، ولا بالإيمان اليهودي — المسيحي، ولا بالديمقراطية على غرار النظام الأمريكي.

الولايات المتحدة متحالفة مع الله، والبلدان الأخرى متحالفة مع الولايات المتحدة، ويتصف هذا التحالف بعلاقات خضوع المحيط للمركز، وخضوع دول الغرب للولايات المتحدة، وخضوع الولايات المتحدة لله. هذا هو اللاهوت الغامض للسياسة الدولية للولايات المتحدة .

جوهان جالتونغ من

كتاب "السياسة الخارجية للولايات المتحدة في مظهرها اللاهوتي"

فهرس الموضوعات

دار الكاتب

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

طواهري وكيلاني

دمشق - سوريا - جانب وكالة الأنباء (سانا)

ص.ب ٣١٦٦١ ☎ ٢١١٣٠٠٣ - ٢١٢٣٧٥٣

إن السلام الوحيد الممكن في الشرق الأوسط هو القائم على قرارات الشرعية الدولية، أي الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة.

استخدمت الولايات المتحدة، منذ العام ١٩٧٢ حق النقض في مجلس الأمن الدولي ثلاثين مرة ضد مشاريع قرارات تدين إسرائيل.

إن الإسلام هو الدين الذي جاء لكل البشرية وهو مستقبلها وخلاصها.

نحن نرفض النظر إلى العالم بدون الإنسان وإلى الحياة بدون مشروع إنساني وبلا معنى. وسوف نتوحد لنبني عالماً غنياً بتنوعه مطمئناً لمستقبله من خلال امتزاج الشعوب والثقافات في إيمان واحد نغذيه بتجربة كل شعب وحضارته، تتفتح فيه الحياة باستمرار وفق مشروع شامل يعطي كل طفل وكل امرأة وكل رجل مهما كان أصله وتقاليده الخاصة كل الوسائل لتبرز بشكل كامل كل إمكانياته الإنسانية التي يحملها بين جنبيه.

روجيه غارودي

دار الكاتب